حسن السعيد

المرأة المسلمة

هموم وتحديات



المرأة المسلمة

هموم وتحديات

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

ISBN

978-9953-490-40-3





هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ ـ ٠٣/٨٩٦٣٢٩ ـ فاكس: ٠١/٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان

Tel : 03/896329 - 01/550487 - Fax : 541199 - P.O.Box : 286/25 Ghobeiry - Beirut - lebanon

E-Mail : daralhadi@daralhadi.com URL: http://www.daralhadi.com

حسن السعيد

المرأة المسلمة

هموم وتحديات



بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه لا بد منه

هذه الوريقات كتبت في أوقات متفاوته، خلال عقد التسعينات من القرن المنصرم، ونشرت موضوعاتها (ما عدا المقدمة) في مجلات شهرية، وصحف يومية، في ديار المهجر، حمل بعضها أسماء مستعارة، نعيد نشرها اليوم، دونما إجراء تغييرات جوهرية، والله من وراء القصد.

الإهـــداء

• إلى من أرضعتني الإيمان

وسهرت وكابدت

إلى .... روح أمي

• إلى رفيقة العمر

التي تحملت معي بصبر جميل

شظف العيش ومرارة الغربة

إلى .... أم زهراء

• إلى الشموع التي تلألأت في ظلمات المنافي

لتطرد وحشة الروح .. وتشع أملاً وبهجة

بعيداً عن أحضان الأهل والوطن

إلى .... بناتي الحبيبات: زهراء ، آمنة ، بنان ، رحاب ، زينب

• إلى من تلظين بنار الألم

وتجرعن غصة الفراق

على أمل في لحظة من لقاء

إلى .... شقيقاتي

• إلى سليلات بنت الهدى

وكل السائرات على نهجها

أهدي هذه البضاعة المزجاة

في البدء كانت حواء

منذ فجر التاريخ.. والمرأة شريكة الرجل، بل كانت أمّنا حوّاء رفيقة أبينا آدم من الوهلة الأولى لبدء الخليقة: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً﴾[1]، ﴿ويا آدم اسكنْ أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما﴾[2].

وظلت حواء الى جنب آدم كظله الذي لا يفارقه، بعد هبوطهما الأرض: ﴿قال اهبطا منها جمعياً﴾[3]، ليواصلا حياتهما على وجه البسيطة ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين﴾[4]، ولتنطلق حواء بمعيّة آدم بحرث الأرض وسقيها ومدّها بأسباب البقاء والديمومة. ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت الحياة تزهو بالخصب والعطاء والديمومة. وكانت حواء هي الوعاء الذي يحتضن ذلك، وأما أبونا آدم فهو الذي يمدّه بجذوة الحياة والاستمرار.

وهكذا وجدنا نظام الزوجية في كل ناحية من مناحي الكون ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[5]، وما زوجيّة البشر إلاّ مظهر بارز من مظاهرها التي تتحكم في أدق الأشياء كالذرة، بل وفي أكثرها تناهياً في الصغر

---

١ – البقرة : ٣٥.

٢ – الأعراف : ١٩.

٣ – طه : ١٢٣.

٤ – الأعراف : ٢٤.

٥ – الذاريات : ٤٩.

كالجزيء. وبقي هذا النظام هو الذي يسود الكون والحياة، ووفقه يتواصل منطق الأشياء، وتستمر ديمومة الحياة.

ولولا هذا النظام لانفصمت عرى الوجود، وتوقفت الحياة، ووصل التاريخ الى نهايته المحتومة من هنا، لا يمكن للحياة أن تستمر في ديمومتها من دون هذه الثنائية «الذكر والأنثى»، فليس بالإمكان الاستغناء عن أحدهما، كشرط للبقاء، كما لا يمكن استغناء أحدهما، كشرط للتواصل، إذ لا يستقيم الأمر بدونهما معاً، طالما ليس بالمقدور الاكتفاء بأحدهما. وهذا هو سر ديمومة الحياة.

فالدور - إذن - تكاملي بين طرفي المعادلة الواحدة، سواء في بقاء الحياة وديمومتها، أو في صنع التاريخ واستمراريته. وما يدعونا الى التأكيد على هذه النقطة؛ هو ما نشاهده اليوم من دعوات مشبوهة تحاول دق أسفين وهمي بين الرجل والمرأة، تحت هذه الذريعة أو تلك. وقد شاعت في الآونة الأخيرة مصطلحات لم نألفها سابقاً، من قبيل؛ «الذكورية» و «الأنوثية» «والنزعة الظلامية».. وكل ذلك في سياق الترويج لأفكار «حداثوية» مزعومة، تتقاطع مع «الماضوية»!!

إن بعض العلمانيين وبعض العلمانيّات يتباكون اليوم على تراجع المكتسبات التحررية للمرأة العربية، إزاء تصاعد نبرة الأصولية والحجاب. وهاهم يندبون الحظ العاثر للحركة النسوية العربية، وما آلت إليه دعوات رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين وغيرهما.. حول «تحرير» المرأة، وكيف أنها أمست تدور في حلقة مفرغة، محاولين البحث عن أفق آخر، للخروج من المأزق - المعضلة![1]

وعودة سريعة الى المشهد النسوي في القرن العشرين، وما تزامن معه من صيحات حول «تحرير» المرأة، ونشوب معركة «السفور والحجاب»، وما أسفرت

---

١ - مي غصوب «المرأة العربية وذكورية الأصالة»، لندن، ١٩٩١م، ص٦٩.

عنه من تداعيات.. كل ذلك يقودنا الى الاعتراف بأن الجولة قد حُسمت - مرحلياً - لصالح دعاة السفور، وذلك لأسباب عديدة لسنا بصدد الخوض فيها.

ففي غمرة صعود الدعوات المنادية بضرورة اللحاق بركب الحضارة والتقدم، نشطت جهات معينة بحصر أسباب التخلّف بقضية «الحجاب والسفور» وصرفت جهوداً طائلة حول هذه المعركة.. وكأنها فصل الخطاب وأم القضايا!! وقد استعان دعاة السفور في هجومهم الشرس بكل الأساليب المتاحة، بما في ذلك الأجنبي المحتل، وصنائعه من الحكام والمتغربين، وصفحات المجلات والجرائد، ومناهج التدريس، والأفلام السينمائية، وبقية المنابر الإعلامية، من إذاعة وتلفزيون ومسرح.. ناهيك عمّا لديهم من ملفات كثيرة، حول مأساة المرأة المسلمة، وما لحق بها من ظلم، وحيف، وقهر، واستعباد! والتي تعتبر مادة دسمة وخزيناً لا ينضب من المادة الإعلامية التي توظف سلباً، بدلاً من استثمارها في الاتجاه الصحيح!

وفي غضون ذلك، وما تمخض من تراشق، وتبادل اتهامات، وكيد كان يُدبّر في ليل.. تم استدراج نسبة لا يستهان بها من النساء، الى حيث الفخ المنصوب إليها بإحكام خطوة خطوة. وكانت البداية هي إخراج المرأة من البيت الى متاهات الضياع:

• الشارع؛ تزاحم مناكب الرجال، وقل مثل ذلك عن تجولهن في الأسواق، وتواجدهن في المعامل والمؤسسات والدوائر.. وهذا ما أشار إليه الشاعر:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً   بين الرجال يجُلن في الأسواق!
يفعلنَ أفعال الرجال لواهياً   عن واجبات نواعس الأحداق

• التعليم المختلط؛ وما يستدعيه من احتكاك يومي، وما يسفر عنه من مزالق ومخاطر.. كاللقاءات المختلطة، والحفلات المشتركة، والسفرات الموحدة،

وأحواض السباحة المفتوحة والمغلقة، والورشات الواحدة، وتتخلل ذلك كله الخلوات المنفردة!

• صالات الرقص، بعيداً عن الحشمة والتقاليد المرعية، وقد ذهب الاستلاب حدّاً فاق مباذل الغرب في هذا المجال. كما صرّح اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر.

• بلاجات البحر؛ حيث تنحسر مظاهر الحياء وتهيج مكامن الشهوة الحرام!

• عرض الأزياء؛ وتقضي العوائل الاستقراطية وقتاً طويلاً، وهي منبهرة بما يستجد من موضات الأزياء، وتنقطع الأنفاس التي تتابع حركات الغنج والإثارة في قاعات عرض الأزياء!

• مواخير الرذيلة؛ وماذا يقول المرء عمّا يجري فيها من ابتذال وإسفاف وفساد وإفساد. ويكفي أن نذكر أن عدد الباغيات في شارع الهرم بالجيزة يربو على الثلاثين ألفاً.. وأما مبغى اسطنبول فيتجاوز السبعين ألفاً، حسب بعض الاحصائيات!!

ولانرانا بحاجة الى التأكيد أن العلمانية التي ملأت الدنيا ضجيجاً وصراخاً، حول المرأة، لم تكن تستهدف انتشال المرأة من وهدة واقعها المتخلف، لتأخذ بيدها صوب مراقي الفضيلة والكرامة، بقدر ما كانت - أي العلمانية - تصب كل جهودها؛ لإخراج المرأة المسلمة من حيائها المعهود، لتلقي بها في أتون الرذيلة والضياع!!

وهاهي المرأة، في ظل الأنظمة العلمانية، أمست سلعة رخيصة تعرض بابتذال في أسواق النخاسة الجديدة من؛ شاشات السينما والتلفاز، أشرطة الفيديو، مواقع الانترنت، وخشبات المسارح، وصفحات المجلات والصحف «والأنكى من ذلك وجود مجلات مختصة بعرض الصور الخليعة الخادشة للحياء»، تقليداً لصحف عالمية شهيرة دأبت على نشر الصور المبتذلة وبأحجام كبيرة، كما هو

الحال مع «جريدة الصن The Sun» البريطانية، والتي تخصص يومياً الصفحة الثانية بأكملها لصورة خليعة!!

ناهيك عمّا تشهده شوارع ستوكهولم وأمستردام وباريس ولندن وواشنطن وميامي وبرلين.. من مظاهر الانحطاط الأخلاقي المروّع، الذي يتمثل بالقطعان السائبة الهائمة الضائعة للشبيبة، ومن كلا الجنسين!! والتي تفترش الأرصفة والحدائق العامة والأزقة الضيقة، تمارس الجنس الرخيص، وتتعاطى الحشيش، وتحتسي الكحول، بشكل بوهيمي يدعو للشفقة والرثاء![1]

إن مقاربة عابرة بين نهج السماء والمنهج الوضعي ستتيح لنا الوقوف على مدى البون الشاسع بينهما، فكل ما يبتغيه الاسلام - من تكريم للمرأة، وصون لحرمتها، وحفظ لحقوقها، وتوفير رعايتها، واحترام إنسانيتها، وتبجيل دورها؛ أمّاً، وزوجةً، وابنةً، وأختاً، وخالةً، وعمّة.. -يتيح لها أن تتبوأ قمة الرقي الحضاري والسمو الإنساني، بينما تستهدف الأفكار الوضعية «وخاصة المتاجرة بحرية المرأة» استغلال المرأة، وإهانة كرامتها، وتدمير مستقبلها، وهضم حقوقها، وسحق آدميتها، وابتذال أنوثتها، وتحطيم استقرارها النفسي، والوقوف بوجه تطلعاتها المشروعة في بناء بيت تخيّم عليه المودّة، وتسوده المحبة، ويملؤه الدفء والحنان والطمأنينة والوئام والانسجام مع الذات والآخر.

إن البشرية التي تدلف اليوم في النصف الثاني من العقد الأول للقرن الحادي والعشرين، هاهي تعاني من هذه المفارقة الصارخة، فبعد كل هذه العقود الطويلة من الزمن في الغرب على وجه التحديد، ورغم كل التبجحات حول حقوق المرأة وتحررها، تعود القهقرى، الى عصور الغاب وما قبل التاريخ، مع ما تسجله مؤشرات الخط البياني للتطور التكنولوجي، من صعود مثير للدهشة

---

١ – للمزيد من الاطلاع على مظاهر الانحطاط الحضاري الذي يعاني منه الغرب، براجع كتاب «حضارة الأزمة؛ ماذا قبل الانهيار؟» لكاتب السطور، بيروت، ٢٠٠٣م.

والاستغراب، فليست المرأة هناك سوى سلعة مباحة تشبع نزوات الآبقين الذين يحوطونها بالكلام المعسول والود الكذوب، طالما كانت تتمتع بالجمال والفتنة، وتجيد القيام بالإغراء والإغواء.. لتلفظ كالنواة حالما فقدت ذلك. وهذه قوائم طوابير النساء الطويلة، في المجتمع الغربي، اللاتي يصطلين بنيران الجفوة، وتحاصرهن وحشة الوحدة، ويعانين من قسوة الاغتراب ولذعاته التي لا ترحم، وتهددهن مخاطر الاكتئاب، والاحباط، والعجز، والانسحاق أمام قفزات التطور التكنولوجي الهائل والذي لا يشفق على أحد!

وحتى لا يتهمنا الآخرون بأننا نطلق الأحكام جزافاً، فهذه شاهدة من أهلها تتحدث عمّا آلت إليه الأمور. إنها الشاعرة الإنجليزية الشهيرة أديث ستويل (١٨٨٧ - ١٩٦٤)، والتي عاصرت كفاح المرأة الغربية حتى رأتها تحتل أرقى المناصب وأكرمها، كان لها رأي آخر لم تتردد في أن تجاهر به علانية قبل موتها ببضع سنوات، قالت: «لقد انتصرت المرأة في كل المعارك التي خاضتها، ولكنني لا أظن أنها قد سعدت كثيراً بهذا النصر، لأنها لم تعد امرأة .. لأن المرأة الحديثة قد فقدت أنوثتها!!». وقد سئلت قبل موتها بأعوام، ما رأيك في عالم اليوم، فقالت: «إنه عالم مجنون .. أليس غريباً أن تتغير الدنيا على هذا النحو في أقل من نصف قرن، ولكن هذا هو الفارق بين العربة التي تجرها الخيول، وبين الطائرة النفاثة. أنا شخصياً مازلت أحن الى صوت حوافر الخيل وهي تضرب أرض الشارع. هل هي دعوة الى العودة الى حياة الماضي؟ لا وإنما هي دعوة الى العودة الى فضائل الماضي وإلى مثله العليا. دعوة للمرأة الزوجة، وللمرأة العاملة، وربة البيت بأن تذكر دائماً وقبل كل شيء أنها امرأة، وأنها أنثى»[1].

---

١ – للمزيد راجع مقال: «صيحة تطلقها شاعرة إلى بنات جنسها» لمنير نصيف، مجلة العربي «الكويت»، العدد ١٤٤، تشرين الثاني، ١٩٧٠، ص ٧٨.

أما المرأة المسلمة في أوربا الشرقية - وخاصة في البلقان - فقد كانت معاناتها من لون آخر، إبّان اندلاع الأزمة البوسنية عام ١٩٩٤، تمثلت بعمليات الاغتصاب واسعة النطاق من قبل أوباش الصرب والكروات، والقتل العام على الهوية، ومجازر سربريستا عام ١٩٩٦ أبرز فصولها دموية وبشاعة وبربرية. لتظل مأساة المرأة المسلمة هناك وصمة عار، لا في جبين أوربا وحسب بل والإنسانية جمعاء، بسبب تفرّج المجتمع الدولي على تلك المذابح التي اقتُرفت ضد مسلمي البوسنة والهرسك، فيما كان الغرب شاهد زور إن لم يكن مساهماً في تلك الجريمة التي يندى لها الجبين![1]

إذا ما عدنا الى المشرق الإسلامي، بكل ما يعتوره من تحديات خطيرة، وما ينطوي عليه من تخلّف في مجالات التطور التقني.. فإن ثمّة ظاهرة صحية نُحسد عليها، إلاّ وهي تماسك الأسرة، وبقاء المرأة باعتبارها هي المحضن الدافئ، والحصن الحصين لأخلاقية المجتمع، وصلاحه، وهذا ما عناه شاعر النيل الكبير حافظ إبراهيم:

والأمّ مدرســـةٌ إذا أعــــددتها   أعـددت شـعباً طيّب الأعـراق

فهي بانية العقول، وصانعة الأفكار، وراعية الأسرة، ومربية الأجيال.. وبذا تكون مهمة المسؤولية التي على عاتقها أخطر منها على الرجل، لا سيما وأنها تتمتع بغريزة العاطفة الجياشة التي تفيض حبّاً وحناناً وإيْثاراً وتضحية.. وإيماناً. ورحم الله الشاعر إذ يقول وهو يلهج بالعرفان لأمه أولاً وأبيه ثانياً:

---

١ - وجرت على أرض الرافدين، بعد سقوط الصنم عام ٢٠٠٣م، إجراءات مماثلة ضد المرأة العراقية، قامت بها عصابات صدام وبمعاونة التكفيريين، إذ تم اختطاف حوالي ألفي امرأة في الفترة ما بين ٢٠٠٣/٤/٩ - ٢٠٠٦/٣/٩م، بيع بعضهن لسماسرة دوليين، لاستغلالهن جسدياً، وقتل البعض الآخر بطريقة سادية، بعد اغتصابهن!

لا عـذّب الله أمـي إنهـا رضـعت حـب الوصـي وغذتنـيه باللـبنِ
وكـان لـي والـد يهـوى أبـا حسـنٍ فصرتُ من ذا وذي أهوى أبا حسن

ولسنا نعتسف الحكم إذا قلنا أن التيار التغريبي ارتكب خطأً فادحاً بل خطيئة لا تغتفر، حينما اختزل كل معركته حول «تحرير» المرأة بمسألة «السفور والحجاب»، فعلّق كل أوضاع المرأة على شماعة الحجاب، فيما حصر كل العلاج الناجع للمعضلة بالسفور!! وأسفر الصبح لكل ذي عينين، لتنبلج الحقيقة فيتضح مدى عقم وتهافت بل تفاهة هذا التوجه، إن لم نقل عمالته للغرب فضلاً عن تبعيته.

ولسنا هنا بصدد الخوض في تفصيلات وقائع هذه المعركة البائسة «فهذا ما سنفرد لها حديثاً خاصاً في كتاب قيد الإعداد»، ولكن ذلك لا يعفينا من الإشارات السريعة الى بعض المقاطع العرضية لخلفياتها وواجهاتها:

• في المجال التعليمي يمكننا العثور على نقطة بداية عملية الاتجاه الغربي في مصر إبّان حملة نابليون على تلك البلاد عام ١٧٩٨م، حيث عزم نابليون على إبقاء مصر مستعمرة فرنسية الى الأبد، ونقل ما أسماه بالثقافة الفرنسية «السامية» الى أهل الشرق[١].

• وكنتيجة حتمية لسياسة محمد علي باشا المنبهر بالغرب، شهدت مصر في عهده وما بعده تقاطر المبشرين الأوربيين وشروعهم بنشاط واسع، لإيجاد مؤسسات تعليمية، وكان هدفهم الرئيس نشر الاستعمار الثقافي الغربي، وإضعاف الإسلام، وتوفير مقدمات عدوان المستعمرين، وكانوا يلعبون دور طلائع الاستعمار بعملهم هذا، وكان الفرنسيون الكاثوليك أول فئة من المبشرين أنشأت

---

١ – د. علي محمد النقوي «الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي»، ترجمة عبد الكريم محمود، طهران، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م، ص١٧٥.

مؤسسات تعليمية في مصر، ثم تبعهم في ذلك رجال الكنيسة الإنجليز والألمان والأمريكيون أيضاً، وكان للأقليات دورها في نشر النظام التعليمي الغربي. ففي عام ١٨٤٠م أنشأ كل من اليهود والأرمن واليونانيين الساكنين في مصر مؤسسات تعليمية عديدة.

• بعد احتلال الانجليز مصر، تولّى المستعمرون عملية التعليم بشكل مباشر، واتبعوا سياسة القضاء على النظام التعليمي الديني ونشر النظام التعليمي الغربي الحديث من أجل تحقيق مصالحهم.. وكان يشرف على النظام التعليمي في مصر كلها رجل اسمه دوكلاس دونلوب، كان يعمل مستشاراً للورد كرومر «الحاكم الإنجليزي».. وكان واضحاً أن كل النظام التعليمي الحديث الذي طبقة الانجليز في مصر ومستعمراتهم الأخرى وسيلة لاستمرار تسلطهم الاستعماري.

• تحت خيمة الاحتلال البريطاني - وبدفع مباشر منه - شهدت الساحة المصرية بروز الصحافة النسائية التي ازدهرت هناك عند منعطف القرن العشرين.

فبين عام ١٨٩٢ - حين نشرت لبنانية هي هند نوفل مجلة «الفتاة» التي كانت أولى المجلات النسائية بالعربية - وعام ١٩١٣، ظهر ما لا يقل عن ١٥ مجلة نسائية راح أغلبها يجمع بين مخاطبة القارئات بصفتهن زوجات وأمهات، وبين دعوتهن الى الإسهام في «نهضة النساء»، عن طريق الإصرار على نيل حقوقهن في التعليم والمهن، كذلك امتلأت صفحات «الأهرام»، التي كانت اليومية الأبرز في مصر، بمساجلات حادّة بين رجال هاجموا «هذه الموجة الجديدة من الفوضى المؤذية» ونساء تصدين لهم بتواقيع مغفلة. إلاّ أن الغلبة العددية الكاسحة للنساء غير المسلمات، في ميدان الصحافة الجديدة هذه، كانت أكثر الحقائق إثارة للانتباه فيما يخص بدايات الكتابة النسائية حينذاك[١].

---

١ - المرأة العربية وذكورية الأصالة؛ م . س : ٣٠.

لقد اتسم أغلب مواضيع تلك المجلات بالجرأة النادرة، الذي يصل حد الوقاحة والانفلات أحياناً، وتبرز أسماء عديدة لمحررات المجلات إياها، أمثال؛ ماري عجمي (صاحبة مجلة العروس)، جوليا طعمة دمشقية (المرأة الجديدة)، اسكندرة افرينو (أنيس الجليس).. إضافة الى الكاتبات اللاتي اشتهرن، كروز اليوسف، مي زيادة، أوليفيا عويضة (التي توقع باسم الكاتبة الزهرة)..إلخ.

على أن بعضهن لم يكن لها موضع قدم في الكتابة، وإنما يُكتب نيابة عنها ومما يذكر هنا أن مجلة أنيس الجليس، التي تصدرها اسكندرة افرينو، كان يحررها أمين حداد وشقيقه، ولم يعرف لصاحبتها مقالات ممهورة بتوقيها أو أسلوب أو منهج كتابي، ويغلب أنها لم تكن تعرف العربية تماماً، وتعليمها فرنسي[1].

ولا نعدم صحفاً نسائية يصدرها رجال تنكروا وراء أسماء نسائية مستعارة، كما هو الحال مع «سليم سركيس» الذي أصدر في أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٦م، مجلة باسم (مرآة الحسناء) في مصر، متنكراً في إصدراها باسم (مريم مزهر) ثم عاد فكشف هذه الحقيقة في مجلة سركيس (آذار / مارس ١٩٠٧م)[2].

كما لانعدم حينذاك بعض الرجال ممن كانوا يكتبون باسم المرأة، إضافة الى سليم سركيس، أمثال؛ نظمي لوقا الذي كان ينشر مقالات في الأهرام بإمضاء (حكمت كامل). وقد استمرت هذه الظاهرة ووضحت في المرحلة التالية، فإن كثيراً من الكاتبات المشهورات اللاتي لمعت أسماؤهن.. لا يكتبن وإنما يُكتب بأسمائهن.

---

١ – أنور الجندي «معالم الأدب العربي المعاصر»، بيروت، ١٩٦٤، ص ١١٢.

٢ – م . ن : ١١٣.

ومن الكتب المزورة المنسوبة الى المرأة، ذلك الكتاب الضخم الذي نشر عام ١٩٢٨م باسم [السفور والحجاب لنظيرة زين الدين]، فقد تبين من بعد أن هذا الكتاب من تأليف مجموعة من المبشرين المستشرقين، وأنه قصد به أن يصدر باسم فتاة مسلمة، لينال أهمية واسعة وصدى كبيراً. وقد دخل فعلاً هذا على كتّاب مصر أمثال: عباس العقاد، وعلي عبد الرازق.. واحتفلت به دوائر كتّاب التغريب، وجريدة الأهرام في مصر، فمدحوا كاتبته ورفعوها الى ذروة المرأة الكاتبة، وإن هاجم العقاد آراء الكاتبة. وقد كشف هذه الحقيقة «مصطفى الغلاييني» الكاتب العربي اللبناني، الذي عاصر هذه المعركة وشاهدها بنفسه[١].

وفي غمرة إفلاس اليسار وانحساره، ليس من المستغرب أن تعمد «دار المدى» اليسارية الى إصدار هذا الكتاب، أواخر تسعينيات القرن العشرين، وبحلّة قشيبة ومراجعة وزيرة علمانية سورية، وذلك وفقاً للمقولة المأثورة: «إذا أفلس التاجر فإنه يلجأ الى التفتيش في دفاتره العتيقة»!!

على أن تأجيج معركة السفور والحجاب لم تنحصر في نطاق مختبرات الاستشراق ودهاليز الارساليات التبشيرية وأوساط النصارى المحليين المدعومة من قبل سلطات الاحتلال، بل تجاوز ذلك الى طابور الأتباع الفكريين للغرب، إذ بدأت إحدى أهم حلقاتها المفصلية بإصدار قاسم أمين [١٨٦٣ ـ ١٩٠٨] كتابيه المعروفين؛ «تحرير المرأة» (١٨٩٩م)، و«المرأة الجديدة» (١٩٠١م) واللذين تعدّهما الأوساط العلمانية بياني النسوية العربية المبكرة[٢]، نظراً للهجوم الشديد الذي شنّه قاسم أمين فيهما على الحجاب، والطلاق، وتعدد الزوجات.. داعياً،

---

١ ـ م . ن : ١٢.

٢ ـ «المرأة العربية وذكورية الأصالة»؛ م . س : ٢٢. وكلمة (بياني) يراد بها الإشارة الى أهمية الكتابين بالنسبة الى التيار العلماني، ومقارنتهما بكتاب البيان الشيوعي لكارل ماركس وانجلز الذي تعده الحركة الشيوعية بمثابة إنجيلها العتيد!

إلى تحرر المرأة من «رق» الرجل، وإلى ممارسة المرأة - كالرجل - جميع الأعمال المدنية!

وقبل أن تخمد جذوة المعركة التي أضرمها قاسم أمين، استأنفها ثانية كاتب مرموق هو الدكتور طه حسين [١٨٨٩ - ١٩٧٣م]، حين ساهم مساهمة فعّالة في تحرير مجلة السفور التي أصدرها عبد الحميد حمدي في مايس «مايو» ١٩١٥م، إذ كتب فيها أولى مقالاته من مونبيليه «بفرنسا» في آب «أغسطس» ١٩١٥م. وقد ضمّت هذه المجلة عدداً ضخماً من الكتاب الذين لمعوا بعد الحرب العالمية الأولى، وتصدروا الحياة الفكرية في مصر، وفي مقدمتهم؛ علي عبد الرازق، ومنصور فهمي، ومحمد حسين هيكل، وأحمد حسن الزيات، وأحمد زكي، ومحمود تيمور.

لقد كان طه حسين يدافع عن سفور المرأة و«تحريرها» من الحجاب، وهي فكرة مستوردة أخذها من تفتحه على الثقافة الغربية. ومن آرائه المثيرة للاستغراب، في هذا المجال، ظنّه أن الحجاب إنما اصطنع ليكون عقوبة على المرأة![١]

ويطول بنا المقام لو استعرضنا كل حلقات ملف التآمر على المرأة المسلمة، وهذا ما يحتاج الى بحث معمّق طويل، بيد أننا نكتفي بالإشارات السريعة التالية:

أولاً: إن معركة السفور والحجاب المختلقة ظلت تتواصل، بين مد وجزر، وتثار من قبل الأجهزة والأوساط المعنيّة بإثارتها، كلّما لزمت الحاجة ذلك!

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن العديد من الأنظمة الحاكمة «المرتبطة بعجلة الأجنبي» بقيت ترعى وتدعم - في العلن حيناً والسر أحياناً - مظاهر التهتك الأخلاقي والانحلال الأسري، وبطبيعة الحال تظل المرأة المسلمة مشروع

---

١ - مجلة الهلال، عدد فبراير ١٩٦٦م، ص ١٥٣.

استهداف، في أية خطوة من هذا القبيل، فيما أسفر النظامان العلمانيات الرسميان في (تركيا وتونس) عن وجهيهما الكالحين، حين انبريا وبكل شراسة وبربرية الى محاربة الحجاب بذرائع شتى واهية، وحالا دون دخول الفتيات المحجبات الى أروقة الجامعات، أسوة بما يجري في فرنسا وغيرها من الدول الغربية، التي تتبجح ليل نهار - وبلا أدنى حياء - بالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان!!

ثانياً: بمرور الوقت، ظهر في أرجاء الوطن العربي والإسلامي جيل من الكاتبات العلمانيات، اللاتي خضن في أمهات القضايا التي تخص المرأة والأسرة والمجتمع، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر (ومنذ منتصف القرن الماضي): أمينة السعيد، سهير القلماوي، ليلى بعلبكي، غادة السمان، مي غصوب، فاطمة المرنيسي..إلخ، والقائمة تطول وعزفنا عن المضي في استقصاء الباقيات. ولتتبوأ ذروة الموجة الكاتبة نوال السعداوي المثيرة للجدل الذي لم يهدأ حتى هذه الساعة!

ثالثاً: طفت على الساحة الأدبية، خاصة خلال عقد ستينات القرن العشرين، موجة الأدب المكشوف، والتي كان من فرسانها إحسان عبد القدوس (ابن الصحافية روز اليوسف)، ومن هم على شاكلته، إذ أشاعوا الفن القصصي الذي يطرح أدب الجنس الرخيص. وسار على خطى عبد القدوس كاتبات، وربما سبقنه في هذا المضمار، كما هو الحال مع الأديبة اللبنانية ليلى بعلبكي!

رابعاً: بالإضافة الى ما تقدم، كانت هناك منابر إعلامية تقوم بجهود محمومة لإشاعة الفن الرخيص المبتذل، كالمجلات المسمّاة بالفنية، من خلال استمرارها في عرض الصور غير المحتشمة لبعض الفنانات، وأما الحديث عن جنايات السينما (المصرية تحديداً) فهو ما يحتاج الى قراءة مطولة ليس بوسعنا التوقف عندها الآن.

خامساً: في الوقت الذي كانت فيه وسائل الدعاية كافة تفتح أبوابها، وعلى

مصراعيها، أمام كل المساهمين في الترويج لمظاهر الابتذال، بينما توصد هذه الأبواب أو تضيّق الخناق، بأقصى ما يكون بوجه كل التوجهات المناهضة لذلك.

وتصل المأساة الى مدياتها البعيدة حين نجد بعض الأنظمة الحاكمة تذهب الى أكثر من ذلك، حين تقوم بمراقبة الكاتبات الإسلاميات وتضييق الخناق عليهن، حتى لوحقت بعضهن أمنياً، وتعرض البعض الآخر منهن الى السجن، كما فعل النظام الناصري مع المربية الكبيرة زينب الغزالي (شقيقة المفكر الإسلامي الكبير محمد الغزالي) ورفيقة درب المفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، ولا ننسى ما أقدم عليه نظام السادات حين زجّ بالعديد من المفكرات المصريات بالسجن أيام المحنة التي سبقت اغتياله عام ١٩٨١م، ونذكر بالتحديد الكاتبة والصحافية اللامعة صافيناز كاظم.

أما نظام صدام في العراق، فلم تقتصر أساليب أجهزته القمعية على ما تقدّم من أساليب المراقبة والملاحقة والسجن.. وإنما ارتكب جرائم لا تغتفر ضد المرأة المسلمة، التي تجلت وحشيتها بإعدامه رائدة العمل النسوي الإسلامي الشهيدة بنت الهدى في نيسان عام ١٩٨٠م، بمعية شقيقها المفكر الإسلامي الفذ والمرجع الديني الكبير الشهيد السيد محمد باقر الصدر، «رضوان الله عليهما». وقد ضمّت قائمة شهيدات الحركة الإسلامية في العراق من الأسماء ما يفوق التصوّر، ويهز الضمائر الحية، حتى لتبدو وكأنها عصيّة على الإحصاء!![1].

وعود على بدء، فإن معركة السفور والحجاب في العراق، متعددة الأوجه، وكثيرة الفصول والمواقع. مع أنها ليست أصيلة المنشأ، إذ هي في أحسن أحوالها صدى لما كان يجري في مصر! وإن بلغت ترداداتها العراق متأخرة مدة ربع قرن تقريباً، فقد ظهرت الى واقع الحياة الاجتماعية - السياسية تحت راية الانتداب البريطاني.

---

١ - للمزيد من الاطلاع على الموضوع، يُراجع كتاب «مذكرات سجينة»، فاطمة العراقي و علي العراقي، قم ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

صحيح أن قضية المرأة ومحاولة رفع الظلامة الاجتماعية عنها أثيرت في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، حين نشرت جريدة المؤيد المصرية في السابع من آب (أغسطس) عام ١٩١٠م مقالاً تحت عنوان «المرأة والدفاع عنها - صوت إصلاحي في العراق» للشاعر جميل صدقي الزهاوي [١٨٦٣- ١٩٣٦] حاول فيه أن يقتفي أثر قاسم أمين، حتى أسرف في مسّه الدين، وخلط بين التقاليد والتشريع .. غير أن الصحيح كذلك أن الشرارة الأولى لمعركة السفور والحجاب قد اندلعت في الرابع والعشرين من شباط سنة ١٩٢٢م، عندما دعا الصحافي البارز ثابت عبد النور (موصلي مسيحي أعلن إسلامه) الى إقامة مهرجان أدبي ذلك العام، أطلق عليه اسم (سوق عكاظ) إحياءً لذكرى هذا السوق المعروف في الجاهلية، كانت إحدى فقرات منهاج المهرجان تتضمن قيام امرأة مقام الخنساء، فتركب الجمل وتدخل السوق وتنشد كما كانت تفعل الخنساء، ووقع الاختيار على الطفلة يومئذ صبيحة الشيخ دواد (حفيدة الشيخ داود أحد رجال الفقه ومن مشايخ الدين وثقاته المعروفين في بغداد).

أثناء ذلك، اندلعت أزمة كان من المقدر لها أن تستفحل لولا تدخل الملك فيصل الأول شخصياً، ولم يكن ذلك ليعني أنها انتهت، فقد اشتعل أوارها على صعيد آخر، حين مرّت أيام تناول الشعراء والأدباء قضية السفور والحجاب، وكان للزهاوي الشاعر وقفة جريئة شجعت الكثيرين من الشباب على الدعوة للسفور[١]، وكانت قصيدته التي نشرها في ديوانه المطبوع في القاهرة عام ١٩٢٤ م، قد أثارت زوبعة انقسم حولها المجتمع العراقي ما بين منتد ومؤيد. ومما جاء فيها:

مزّقي يا ابنة العراق الحجابا   واسفري فالحياة تبغي انقلابا

---

١ – للوقوف على تفاصيل الحادثة، يُراجع كتاب (هكذا عرفتهم)، جعفر الخليلي، ج٥ : ٢٣٦.

مـــزقيه واحـــرقيه بـــلا ريــــ ـــث فقـد كـان حارسـاً كـذابا

مـــزّقيه وبعـــد ذلـــك أيضـــاً مـــزّقيه حتـــى يكـــون هـــبابا

وانـــــزعيه بقـــــوّة وطئـــــيه لـــيس يلقـــى معـــرّة وارتـــيابا[1]

ويذكر تلميذه «أحمد حامد الصراف» أنه أرسل إليه خطاباً عام ١٩٢٦م، بعد صدور ديوانه بعامين، ووقّع الخطاب باسم «نعيمة عبد القادر عبد الله»، وفيه يقول على لسان إحدى الفتيات أن الحيوان حتى الكلاب، وحتى القردة تطلع عليها الشمس وتنعم بالحرية، فإلى مَ تظل الفتيات يا قاسم أمين العراق محجبات في غياهب السجون؟ فتأثر الزهاوي تأثراً بالغاً، وكان يقرأ الخطاب لكل من قابله قائلاً: البنات يستنجدن بي، وبعد أيام قلائل طلع على الناس بقصيدته الثائرة التي يطلب فيها الى النساء أن يمزقن الحجاب، مادام الرجال يأبون أن يقتنعوا بمضاره:

اسـفري فالحجـاب يـا ابنة فهر هـو داء فـي الاجـتماع وخـيمُ

كـل شـيء الـى الـتجدد مـاضٍ فلمـــاذا يقـــرّ هـــذا القـــديمُ

انـــزعيه ومـــزقيه فقـــد أنكـــره العصـــر ناهضـــاً والحلـــومُ

لـم يقـل بالحجـاب فـي شـكله هـذا نبـي ولا ارتضـاه حكيم[2]

وبينما كانت معركة السفور والحجاب قائمة على قدم وساق، وأخبارها ملء الأندية والمحافل، وأحاديثها تدور في المقاهي، إذا بناد جديد يظهر باسم «نادي النهضة النسائية»، يفتح أبوابه في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٤م، بحفلة فخمة تساهم فيها «الليدي دوبس» زوجة المندوب السامي حينذاك، و«المس بيل» سكرتيرة

---

١ – ديوان الزهاوي : ٣١١.

٢ – ناصر الحاني «محاضرات عن جميل الزهاوي»، نقلاً عن كتاب «الزهاوي»، د. ماهر حسن فهمي، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١١٩.

دار الاعتماد، وغيرهما من سيدات وأوانس العائلات العراقية، وسرعان ما تألفت لهذا النادي هيئة إدارية برئاسة «أسماء الزهاوي» [شقيقة جميل صدقي الزهاوي] وسكرتارية «ماري عبد المسيح وزير»، وليس هناك من حاجة الى التعليق حول مدى تبني الاحتلال البريطاني (وعلى أعلى المستويات) للسفوريين الذين اعتبروه فتحاً جديداً[1].

غير أن هذا (الفتح) سرعان ما تراجع وتحول النادي الى محل لشرب الشاي، ولم تجرؤ إحداهن على الظهور سافرة إلاّ في فترة متأخرة نسبياً. فكانت أول امرأة عراقية تقدم على نزع الحجاب هي ماجدة الحيدري، سنة ١٩٣٣م. أما صبيحة الشيخ داود فكانت أول فتاة عراقية تدخل كلية الحقوق سنة ١٩٣٤م، وسرعان ما أخذت ظاهرة التبرج بالانتشار في الوسط النسوي، وتتسع بتصاعد إقبال المرأة على الدراسة والانخراط في الحياة العامة، بتحريض ودعم وتوجيه التيار التغريبي، واستبشرت بذلك كثيراً أوساط التحلل، التي كانت ترى في الالتزام حائلاً دون رواج بضاعتها، فباتت تطبّل وتزمّر لهذا التوجه الجديد، ولطالما شوهدت الغانيات، في بغداد خاصة، وهن يجوبنّ شوارع العاصمة بسياراتهن مع الحواشي والأخدان. فيما كان الأدب الهابط يساهم بدوره في تأجيج هذه المعركة وعلى أوسع نطاق خاصة حين جعل من المذياع سلاحاً فعالاً لبث تلك الأفكار، ومن ذلك الأغنية الشعبية ذائعة الصيت: «يا أم العبايه ذبي عباتج..»، وظل المستمعون يرددونها لفترة طويلة.

في تلك الأثناء، كان عدد لا يستهان به من المثقفين قد أداروا ظهورهم لهموم أبناء العراق، وراحوا ينظمون القصائد العارية، ويتحدثون عن المراهقين والمراهقات، ويشغلون أنفسهم بأدب سارتر وأحاديث الوجودية والوجوديين!

---

١ – راجع كتاب حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث لخيري أمين العمري، ص ٩١ – ١٤٣.

وهذا أحد نماذجهم الصارخة وهو حسين مردان [١٩٢٧ - ١٩٧٢م] يصدر ديوانه الأول تحت عنوان «قصائد عارية» عام ١٩٤٩م.. وممّا ورد فيه:

قد رضعتُ الفجور من ثدي أمي وترعرعتُ في ظلام الرذيلة

فتعلمتُ كلّ شيء ولكنْ لم أزل جاهلاً معنى الفضيلة![1]

بعد قيام حركة ١٤ تموز ١٩٥٨م، كان الشارع العراقي على موعد مع مظاهر سلوكية شاذة، غريبة تماماً عن عاداته وتقاليده وقيمه، ومن بينها انتشار ميليشيات الحزب الشيوعي العراقي المعروفة بـ«المقاومة الشعبية»، في الشوارع والساحات العامة، وهي تضم خليطاً من الفتية والفتيات بعمر الزهور، لا يتورعون عن القيام بسلوكيات مخلّة بالآداب، من قبيل ترديدهم أهزوجة لا تزال الذاكرة العراقية تختزنها: «ما كو مهر بس هالشهر موتوا يا رجعية!»، ويقترن أداؤهم هذا بحركات غير لائقة أخلاقياً واجتماعياً بل تخدش الحياء المعهود!

وتمر الأيام.. وظاهرة السفور تزحف كالوباء في أوصال المجتمع العراقي، وتقتحم حتى بعض الأوساط الدينية المحافظة، فنجد الكثيرات من بنات الأسر الكريمة وهن ينزعن العباءة حالما يطأن عتبات المدارس أو الجامعات أو الدوائر!، على أن ذلك لم يقتصر على الطالبات، بل شملت العدوى المدرسات أيضاً، ونادراً ما نجد إحداهن وقد بقيت محتفظة باللباس الشرعي. ومن المفارقات المثيرة هنا، أن أستاذة جامعية قديرة وشاعرة مرموقة كانت تحرص - أواخر أيامها خاصة - على التشبّه بشعراء الصوفية، حتى أن بعض الظرفاء من تلاميذها كان يطلق عليها اسم «خامسة العدوية»، في إشارة واضحة الى المتصوفة

---

١ - نخبة من المؤلفين «هلال ناجي أديباً»، بيروت ١٩٦٥، ص ١٨٦. ما تجدر الإشارة إليه أن هذا الشاعر الذي مات مخموراً قد كتب إهداء ديوانه الأول الى نفسه فيقول: «لم أحب شيئاً مثلما أحببت نفسي، فإلى المارد الجبّار الملتف بثياب الضباب .. الى الشاعر الثائر والمفكر الحر، الى حسين مردان»!!.

الشهيرة «رابعة العدوية»، إلاّ أن هذه النزعة الصوفية لم تمنعها من ارتداء آخر موضة للأزياء الباريسية الراقية.. وغير المحتشمة أحياناً!

وهكذا نجد أن المشروع التغريبي قد ضرب بأطنابه في كل مناحي الحياة، وخاصة الوسط الجامعي، حتى بلغ الأمر بالبعض من الطالبات المحافظات على أداء الفرائض الى التنصل عن الزي الذي يفرضه ذلك الالتزم!!

ومن المفارقات التي لازلت أذكرها جيداً، حادثة طريفة حصلت أثناء دراستي الجامعية، وتحديداً في ربيع عام ١٩٧١م، «وقد كانت الجامعة تخلو من أية محجبة تذكر، وعلى امتداد أربع سنوات كاملة»، حين تناهى الى مسامع البعض من الطلبة الملتزمين - بعد الانتهاء من أداء صلاة الظهر في مصلّى الكلية - أن إحدى الزميلات تروم أداء الصلاة، ولكن الحياء يحول دون مجيئها الى المصلّى، لكونها الأنثى الوحيدة بين جميع الطلاب الذكور!

حينها جاشت الأريحية في نفوس الغيارى، وهبّوا بشهامة مثيرة لإسعاف طلب تلك الزميلة .. فتوجه البعض على الفور الى مكتب عميد الكلية لاستحصال الموافقة على إحدى غرف الكلية كمصلى للبنات .. وحين حصلت، أسرع البعض الآخر الى تنظيف الغرفة من الغبار، وتم فرشها بما تيسّر من الحصير المتواضع، وتحدّد موضع اتجاه القبلة .. إلخ.

وانتظرنا بفارغ الصبر مجيء الزميلة تلك، على أمل أن تفتح الطريق لأخريات، وطال الانتظار والترقّب لنرتطم جميعاً بصدمة عدم مجيئها الى المصلّى الذي ظل أياماً خالياً! قبل أن تلغى فكرة قيام مصلى خاص بالبنات!

وتشاء الأقدار أن يعود كاتب السطور الى الحرم الجامعي، وبعد تخرجه بست سنوات، ليواصل دراساته العليا في الجامعة المستنصرية ببغداد، وكانت أولى المشاهدات التي أثلجت صدره تتمثل بانتشار ظاهرة الحجاب بين صفوف الطالبات .. وسبحان الله مغيّر الأحوال!

ويومها تجلت الحقيقة الناصعة لأصالة المرأة المسلمة في العراق، وبان مدى خيبة الأمل التي حاقت بالتيار التغريبي ومشروعه المزعوم، الذي حاول بعناد أن يغرس بذوره، إن لم أقل سمومه في تربة هي غير تربته، فضلاً عن أنها ليست مواتية أبداً لغرسه الذي لم يثمر سوى العلقم!

من هنا نعرف أن التيار التغريبي الذي دأب وبجهود حثيثة على جر المرأة المسلمة الى المستنقع الآسن، مزيّناً لها المساحيق الخداعة، وبأساليب مغرية، إنما يقفز على حقائق الأشياء، ويكابر أيّما مكابرة حين عمل جاهداً على طمس الحقيقة، وتشويه الرؤية الإسلامية للمرأة، وعلى مر العصور، بإظهاره المجتمع النسوي وكأنه قطعان من الجواري، ومخابئ حريم جاهلة قابعة وراء قضبان العبودية والتخلف والاستغلال من قبل الرجل الذي لا يعير لها اهتماماً يُذكر!!

إن هذا الفهم الخاطئ لمكانة المرأة في الإسلام، إنّما يعكس إحدى حالتين أو كليهما معاً؛ الجهل المطبق بحقائق الإسلام وشرائعه، أو التحامل المغرض على الإسلام لتشويه صورته الناصعة. تلك الصورة التي نستشفّها من الآيات المباركات:

- ﴿..إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..﴾[١].

- ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾[٢].

- ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾[٣].

---

١ – الحجرات : ١٣.

٢ – الأعراف : ١٨٩.

٣ – النحل : ٧٢.

- ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[1].

- ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾[2].

- ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾[3].

- ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾[4].

وفي ثنايا السنّة المطهرة الكثير من الأحاديث الشريفة التي تشير الى مكانة المرأة في الإسلام ومساواتها للرجل على المستوى الإنساني:

- «رفقاً بالقوارير».

- «خياركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي».

- مازال جبريل يوصيني بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها».

- «الله الله في النساء فإنهن عوان عندكم وفي أيديكم أخذتموهن بعهد الله».

- «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

في هذه النصوص، وفي نصوص أخرى غيرها وضع الإسلام اللبنة الأولى في بناء حرية المرأة، ثم منحها كافة الحقوق الشخصية، وساوى بينها وبين الرجل، وقدمها في الذكر في بعض الأحيان. قال جل شأنه: ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾[5].

---

١ — الروم : ٢١.

٢ — البقرة : ٢٢٨.

٣ — النساء : ١٩.

٤ — التوبة : ٧١.

٥ — الشورى: ٤٩.

وقد عرف الرسول الكريم نفسية المرأة، لذا كان يكثر من مؤانستها والرفق بها، وإلانة القول لها، وكان يخرج زوجاته معه في أسفاره وإذا ما أرادت إحداهن ركوب الراحلة بسط لها ركبته لتدوس عليها وتصعد الى هودجها. وقبيل زمن الرسول عقدت أوربا مجمع ماكون لتجيب على السؤال التالي: «هل المرأة إنسان؟» وتقرر في نهاية هذا المؤتمر أن المرأة فعلاً إنسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل. وجاء الرسول الكريم فقال في حديثه الشريف: «النساء شقائق الرجال»، وأن «الجنة تحت أقدام الأمهات». وكانت البلاد الإسلامية في عهد الرسول وما بعده هي البلاد الوحيدة في العالم التي تتساوى فيها المرأة في الرجل من حيث المكانة الاجتماعية. لقد أقر الإسلام للمرأة شخصيتها الحقوقية المتكاملة، وبرّ بها، ومن الوفاء له أن تنشد المرأة المسلمة المساواة في تعاليمه السمحة، وبذلك تتبوأ مكانة حقوقية واجتماعية يحسدها اليوم كثير من النساء.

قال العالم الألماني (دريسمان): «إن إعطاء محمد المرأة حريتها هو وحده السبب في نهوض العرب وقيام مدنيتهم، ولهذا لمّا عاد أتباعه فسلبوا المرأة هذه الحرية اضمحلت مدنيتهم»[1].

وهذه صفحات التاريخ الإسلامي تزدحم بالحروف المضيئة عن المرأة المسلمة، وهي تتحدث عن أميرات الجنة؛ (آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وفاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، سلام الله عليهن أجمعين)، وسميّة أم عمار بن ياسر وهي أول من استشهد في الإسلام .. ودونك الحديث عن بلقيس ملكة سبأ، وهاجر وهي تحث الخطى في سعيها بين الصفا والمروة لتروي ظمأ وليدها إسماعيل، وسارة التي صكّت وجهها حينما بشرها مبعوثو السماء بمولود.. وهي العقيم.

---

١ – بشيء من التصرف عن مقال «للمرأة في الإسلام شخصية حقوقية كاملة»، مجيدة شنن أرسلان، مجلة العربي، ع ٧٨، مايو ١٩٦٥م، ص ٥٩ – ٦١.

ثم ألم تقف المرأة المسلمة، منذ اللحظة الأولى لنزول الوحي، الى جانب الرسالة، حين آمنت خديجة الكبرى (ع) وكانت أول من آمن بعد الرسول (ص)..؟! أولم تكن أموال خديجة (ع) إحدى الدعامات الثلاث التي قام عليها الإسلام: إسناد أبي طالب، ومال خديجة، وسيف علي..؟

أوليست الزهراء البتول أم أبيها؟ وبضعته التي بين جنبيه؟ وماذا عسى المرء أن يقول عن عقيلة بني هاشم بطلة كربلاء زينب الكبرى؟ وماذا عساه يقول عن بقية الزينبيات اللائي ملأن التاريخ فخراً وجهاداً وتضحية ومواقف مشرفة أمام الطغاة..؟

وعلى امتداد التاريخ لم نعدم نماذج رائعة لمسلمات خالدات خضن في شتى مناحي المعرفة ولهن الكثير من المواقف البطولية، والصفات المحمودة، والفضائل الجليلة. وليست شجرة الدر التي ألحقت الهزيمة النكراء بالحملة الصليبية التي كان يقودها لويس التاسع إلاّ مفردة في سجل الخالدات.. وما أكثرهن![1].

وما من حادثة تدل على وفاء المرأة المسلمة وتمسكها بعقيدتها، كحادثة عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية (زوجة المختار الثقفي)، كان مصعب بن الزبير قد قتل زوجها، وأراد مصعب أن يتهم المختار الثقفي في دينه ليتحلل من قتله، فجاء بزوجته عمرة وطلب منها أن تتبرأ منه ليتخذها شاهدة عليه. ولكن عمرة كانت ذات عقيدة ووفاء، فأبت أن تتبرأ من زوجها. فأمر مصعب أن توضع

---

١ – حول الشخصيات النسوية البارزة تُراجع المصادر التالية: أمهات النبي، بنات النبي، زوجات النبي، بطلة كربلاء، للدكتورة بنت الشاطئ، وأعلام النساء لعلي محمد علي دخيل، وبلاغات النساء لابن طيفور، والدر المنثور لطبقات ربّات الخدور لزينب فوّاز، أعلام النساء لعمر رضا كحالة، بين يدي الرسول الأعظم (ص) القسم الثاني، لمحمد بحر العلوم، وغيرها الكثير.

عمرة في حفرة ووقف السياف على رأسها شاهراً سيفه، وبجانبه وقف مصعب يحضها على أن تتبرأ من زوجها. تارة كان يهددها بالقتل وتارة يغريها بالمال والجاه، وهي تقول غير آبهة لوعوده، ولا مبالية بالشر الذي يحيط بها:

كيف أتبرأ من رجل يقول ربي الله؟ كان صائم نهاره، قائم ليله، قد بذل دمه لله ولرسوله. شهادة أُرزقها ثم أتركها، اللهم اشهد، أني متبعة لنبيك، وابن بنته، وأهل بيته، وشيعته.

فأمر مصعب السياف أن يضربها بالسيف، فضربها ثلاث ضربات حتى ماتت باقية على العقيدة والوفاء[1] .

وفي العصر الحديث لا يسعنا إلاّ أن نذكر بعض النماذج الخيّرة من النساء اللاتي برعن في أكثر من مضمار؛ الدكتورة بنت الشاطئ، الشهيدة بنت الهدى، الحاجّة زينت الغزالي، الكاتبة صافيناز كاظم، مفسرة القرآن والفقيهة العلوية أمين نصرت، الشهيدة بنان الطنطاوي، جميلة مريم، مليكة صالح بك، الشاعرة نازك الملائكة، ونأسف لضيق المجال عن الحديث حول كل أزهار هذه الباقة العطرة.

المرأة المسلمة اليوم، وهي تدلف الى القرن الحادي والعشرين، قد تخطت أسوار كل العقبات والتحديات، التي نثرها أعداؤها في طريقها الى السمو والرفعة، حيث باءت مخططاتهم بالفشل الذريع فعادت بعد اغتراب عن الذات - امتد على مدى عقود - الى دينها وهويتها وكرامتها.

ويجدر بنا ونحن في نهاية المطاف، المرور على ذكر الفنانات التائبات، بعد خروجهن من شرنقة الظلام الى نور الهداية والإيمان، ما يعني أن الوعي

---

١ - نقلاً عن مقال المرأة والعقيدة، ألفة الأدلبي، مجلة العربي ، ع ٦٤، ص ١٠١.

الإسلامي قد تمكن من التوغل في شتى الأوساط، حتى تلك التي يُعتقد أنها أبعد ما تكون عن التأثر به، ﴿ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[1].

ورغم كل ما تحقق من إنجاز نوعي، على الصعيد الرسالي، فما يزال أمام المرأة المسلمة الشيء الكثير. وعليها أن تبذل قصارى جهدها، للتسلّح بالوعي والمعرفة والحكمة، وهي تخوض آخر فصول معركتها الضارية والحاسمة مع قوى الشر والظلام، ولإكمال المسيرة حتى شوطها الأخير، ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف

الرابع والعشرون من صفر المظفر ١٤٢٧هـ

الموافق للخامس والعشرين من آذار ٢٠٠٦م

---

١ – التوبة : ٣٢.

٢ – الأنفال : ٨.


مخططات .. ومهمات

المرأة المسلمة
مخططات التغريب ومحطات الوعي

تعرّض المسلمون، خلال تاريخهم الحضاري، الى العديد من التحديات الخارجية الخطيرة. وقد تركت بعض تلك التحدّيات بصماتها على مجمل التحولات السياسية، والاجتماعية، والفكرية، في الوطن الاسلامي الكبير.

ومن أبرز تلك التحديات كانت الهجمة الصليبية الأولى، التي دامت حروبها من «١٠٩٦ - ١٢٩١م»، ومن ثم كانت الهجمة المغولية التي انطلقت من أواسط منغوليا الى المشرق الإسلامي، وتمكنت من تحطيم الخلافة العباسية وإسقاط عاصمتها بغداد «٦٥٦هـ - ١٢٥٨م»، وهكذا أخضعت هذه الهجمة للمرة الأولى منذ عهد النبوّة، قلب العالم الإسلامي لحكم غير إسلامي.

أما الهجمة الثالثة فهي تأثير الغرب الحديث .. ويبدو أنها كانت أقسى وأشد خطراً من الأولى. فقد استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يؤثر في التتار المنتصرين، ويجذبهم الى ساحته، فتقع المعجزة الإسلامية يدخل التتار في دين الله أفواجاً، ويسجل التاريخ - مرة أخرى - اعتناق الغالبين دين المغلوبين![1]

---

١ - د. يوسف القرضاوي: «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا»، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ٢١.

وما خلا الزحف الغربي، فإن بقية الحوادث والتحديات التي تعرض لها وطننا الإسلامي لم تكن ذات مغزى حضاري، لم تكن غزواً حضارياً بل كانت موجات من البرابرة تكتسح ما تلقاه في طريقها، وكانت عاجزة كل العجز عن التفاعل مع التراب .. وتعميق الجذور في الأرض .. فقد كان طابع حياتها الترحال، وهي بذلك لم تكن تحمل أي معنى من معاني التحدي، خلافاً للتحدي الغربي الحديث القائم حتى اليوم. هذا التحدي الذي كان الإسلام قادراً بلاشك على ردّه، في حينه، لولا العزلة العثمانية .. وكان العالم العربي منه قادراً على ردّه يوم صاح به جمال الدين الأفغاني، قبل قرن كامل، داعياً إيّاه الى النهضة، لولا عملية الصرف المتعمّد، أو الإلهاء التي قام بها الغرب، عن طريق الغزو الثقافي - التبشير والاستشراق - الذي أوجد في بلادنا «تيار التغريب» الذي انصرف عن قضية النهضة الى الانشغال بمشكلات وهمية[1].

المشكلات الوهميّة

ومن أبرز تلك المشكلات الوهمية تأتي شعارات التغريب كالعلمانية، والقومية، وتحرير المرأة. وبخصوص القضية الأخيرة دعا أنصار الغزو الفكري التغريبي الى طي صفحات حضارتنا الإسلامية جميعها، لتبدأ قضية «تحرير المرأة» من حيث انتهى فكر الحضارة الغربية وتطبيقها، بدعوى أن مذهب الغرب هذا، ونموذجه في هذا «التحرير» هو من «المشترك الإنساني العام» وليس من «الخصوصية الحضارية» التي تتمايز فيها الحضارات[2].

ما تجدر الاشارة إليه، أن شعار «تحرير المرأة» كان قد رُفع بقصد اجتذاب المرأة المسلمة واستخدامها حرباً على دينها. وأول من أوصى به أحد مؤتمرات

---

١ - توفيق الطيّب: «الحل الاسلامي ما بعد النكبتين»، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص: ٦.

٢ - د. محمد عمارة: «الغزو الفكري: وهم أم حقيقة؟»، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ١٩٤.

التبشير، وكان الهدف يومئذ تنصير المرأة المسلمة .. ثم تبعهم المستشرقون، وتبعهم من تلقّوا العلم والمعرفة على أيديهم .. وهم في شرقنا الإسلامي كثير[1] ..

ولكن ماذا يقصدون بـ«التحرير»، وهل المرأة المسلمة في حاجة الى «تحرير»؟

إن بعض الجواب نجده في هذا التباين بين الإسلام والغرب حول الموضوع، فالحضارة الإسلامية أنجزت الجوهر الحقيقي لتحرير المرأة المسلمة، وكان هذا التحرير عميق الجذور، وشاملاً لمختلف الميادين .. إن فلسفة «التحرير الإسلامي» للمرأة قد راعت تمايز التكوين الطبيعي في إطار المساواة الإنسانية تحقيقاً لتكامل الذكر والأنثى، ابتغاءً لسعادتهما جميعاً!

أما فلسفة «التحرير الغربي» للمرأة، فإنها اعتمدت «النديّة» فجعلت معركة الأنثى ضد الذكر .. وظنت أن تحررها كان في «استرجالها» فقادتها الى حال القط الذي قلّد أسداً، حتى حرم من ميزات القط دون أن يكتسب ميزات الأسود، متناسية أن فلسفة التكامل تقتضي التنوّع بين المتكاملين[2].

وهكذا أُريد للمرأة المسلمة أن تكون مسخاً كالمرأة الغربية التي أطلق لها العنان، فهي حرّة في ابتذال الجسد، وعرض مفاتنه على الجميع، وحرة في إشاعة الجنس وتعميم اللذة، طالما تم ذلك بالرضا لا بالاغتصاب![3].

الهدف المقصود

ونظرة فاحصة لمسارب المخطط التغريبي وآثاره المدمرة، في ديار الاسلام،

---

١ — د. علي محمد جريشة و محمد شريف الزيبق: «أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي»، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٨٥

٢ — الغزو الفكري وهم أم حقيقة؟، م . س، ص ١٨١ وما بعدها.

٣ — م . ن : ٢٠٠.

تجبرنا على الاعتراف بأن موضوع المرأة كان من أظهر الموضوعات التي انهزم فيها المجتمع الإسلامي أمام الغزو الغربي. فلقد فقدت المرأة المسلمة بسرعة مذهلة شخصيتها الأصيلة، وتقاليدها العريقة. وأصبحت ذيلاً للمرأة الغربية في كل شيء، أو قل إنها صارت دمية يحركها العابثون بالقيم من مصممي الأزياء، وتجار المساحيق، وأصحاب الصحف الداعرة وغيرهم من المخربين.

يقول «جان بول رو» في كتابه؛ «الإسلام في الغرب» في فصل تغريب الإسلام: «إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات ويقلب رأساً على عقب المجتمع الإسلامي لا يبدو في جلاء أفضل مما يبدو في تحرر المرأة»[١].

والسؤال المطروح: كيف حصلت هذه الهزيمة؟ ولماذا استُهدِفَت المرأة، بكل هذا القدر من الجهود المبذولة لمسخها، وتدميرها؟

هنا، ينبغي الاشارة الى نقطة مهمة، وهي: ليس بمقدور مقال محدد الصفحات أن يعطي الموضوع حقه. فهو في حاجة الى بحث معمّق، ورصد دقيق، ومواكبة واعية لفترة تتجاوز القرن ونصف القرن، وتحديداً منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن.

ولمّا كان هذا الأمر متعذراً، ونحن في هذه العجالة، فلا بأس من الاشارة السريعة الى بعض معالم المخطط التغريبي الخاص بالمرأة السلمة.

وبديهي أن تكون المرأة المسلمة - نصف المجتمع ومربية النشء - هدفاً واضحاً لمخططات الغزو الفكري، ومنذ وقت مبكر، رغم أن المرأة كانت في بداية الانطلاقة القومية للتغريب، تحظى بالعديد من العوامل المساعدة على إبقائها بعيداً عن كيد الكائدين، غير أن التداعي الخطير الذي كان قد أصاب بنية المجتمع المسلم كله قد سهّل، والى حد كبير، مهمة التخريب الحضاري، اندسّ

---

١ - الحلول المستوردة؛ م. س: ٧١ - ٧١.

أعداء الإسلام، من تلك الثغرات، الى عقر ديار المسلمين، بل والى مخادع الحريم!

وليس بخاف أن المآل المؤسف الذي آلت إليه المرأة المسلمة من تمرد على فطرتها .. لا يمكن أن نعزوه الى سبب واحد فقط، إذ تضافرت عوامل عديدة على ذلك، وفق مخطط خبيث، ساهم في تمريره انحطاط المسلمين أنفسهم، حينما ابتعدوا عن إسلامهم، عنوان مجدهم، ورمز عزتهم..

ومن أهم ركائز هذا المخطط:

• **أولاً: الاستشراق**

باختصار شديد، يمكن تعريف الاستشراق بأنه فهم الغرب العنصري المتحيّز للشرق، وهو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق، كما يقول إدوارد سعيد[1].

إضافة الى الدراسات المعرفية التي قام بها المستشرقون، والتي يطغى عليها جانب التشويه والتدليس .. فإنهم لم يكتفوا بذلك، بل قامت أعداد كبيرة منهم، خلال القرون الأخيرة، برحلات الى المنطقة الاسلامية، وكتبوا عن هذه الرحلات ما يحلوا لهم عن الشرق بعيون غربيّة. وقلّما يخلو أدب الرحلات من دسّ وافتراء، خاصة فيما يتعلق بقيم الناس وعقائدهم وعاداتهم. وكان للمرأة القدح المعلّى في هذا التشويه. حتى أنهم أفلحوا في تصوير المرأة المسلمة وكأنها تمثل شريحة «الحريم» فقط، بل إن هذه التسمية كادت أن تعمم على المرأة المسلمة، ولا تُذكر إلاّ بهذا النعت المغرض أساساً!

أما «الحريم»، فهي كلمة تركية من مصدر عربي، تعني الممنوع وفيه معنى للقداسة. وفي العصر العثماني، كانت هذه الكلمة تشير الى مدلولين: الممنوع والمقدس، فأسرة الحاكم هي مركز الدائرة في نظام الحريم، وتسيطر عليه امرأة،

---

١ — يراجع كتابه القيّم: «الاستشراق»، ط٢ بيروت، ١٩٨٤.

زوجة السيد، أو أمه، أو رئيسة الجواري، مقابل ذلك كان «البيك» أو «الباشا» رمزاً للسيادة، ولا يعرف ماذا يدور داخل الحريم. ونساء الحريم لم يعرفن الأمومة، فأولادهن وسيلة لتوطيد مركزهن..»[١] دون أن ينسى المستشرقون تشويه صورة المرأة المسلمة عبر تصويرها بأنها وسيلة رخيصة لإشباع ملذات الرجل المسلم .. الذي صُوِّر هو الآخر وكأنه زير نساء!!

وهذا الرحّالة البريطاني تشارلز أم. داوتي، يروّج في كتابه: «رحلات في الصحراء العربية : Travels arabia Desert» الذي أصدره عام ١٨٨٨م، لكثير من المغالطات التي تتعلق بالمجتمعات الإسلامية، وخاصة بدور المرأة المسلمة المنحط في المجتمع، إذ يزعم أن المرأة المسلمة التي شاهدها - كما يدّعي - سواءً كانت في الصحراء أم في المدينة، إنمّا هي في ربقة الأسر، تعيش تحت رحمة أزواج مستبدين، كما أنها محجّبة ولا يسمح لها أن تكشف عن وجهها للغرباء»، ويضيف داوتي إن المرأة لا تستخدم إلا لغرض جنسي، وما إن تذوي حتى تُنبذ، وما خلاصها إلاّ بالانجاب لكي تضمن مكانها ومركزها في العائلة..» وكانت هذه الصورة رائجة جداً شعبياً، وقد تسربت الى الثقافة البريطانية عن طريق كتب داوتي التي تُقرأ على نطاق واسع[٢] .

وفي أحسن الأحوال نجد أن الصورة التي انطبعت في الذهنية الغربية عن المسلمين، هي تلك الصورة الرومانسية التي اقترنت بحكايات ألف ليلة وليلة، التي غزت المجتمعات الغربية منذ أوائل القرن الثامن عشر. وهذه الليالي هي عبارة عن حكايات يعتقد أن أصلها هندي أو فارسي. وتحتوي المجموعة على

---

١ - د. منير كرامة «الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث» (مراجعة كتاب)، مجلة الفكر العربي، ع ٣٩ - ٤٠، س ٦، حزيران - تشرين الأول ١٩٨٥.

٢ - للمزيد يراجع كتاب «صورة العرب في الصحافة البريطانية»، د. حلمي خضر ساري، بيروت، ١٩٨٨، (مركز دراسات الوحدة العربية).

ما ينوف على مئتي حكاية نسجت كلها في قصة رئيسية واحدة وهي: أن الملك شهريار يكتشف في أن زوجته تخونه فيقتلها، ثم يقتل كل عروس يتزوجها ليلة الدخول بها. وأدى هذا الوضع الأليم بشهرزاد، ابنة الوزير. أن تقدمّ نفسها «فدية» لبنات المحمديين (أي المسلمين) خدمة لقضية خلاصهن. إنها تزجي ساعات يقظة الملك برواية قصة تقطعها في نقطة توتر حرجة، وعندها يُبقي الملك على حياتها، لكي تكمل القصة. ثم تعيد هذه الحيلة فتربط حكاية بحكاية، أو تشبك الواحدة بالأخرى حتى نهاية الليلة الأولى بعد الألف، حين تطلب شهرزاد الإبقاء على حياتها فيجيب الملك طلبها ويجعلها ملكة.

ما تجدر الإشارة إليه، هو: لم يحقق أي كتاب - في الغرب - باستثناء الانجيل، ما حققه كتاب ألف ليلة وليلة، من شعبية وسعة انتشار ورواج. وخير دليل على جاذبية الكتاب الهائلة ما ذكره أم . جي . علي من أن صحيفة لندن نيوز التي كانت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع بدأت في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٧٢٣م بنشر مسلسل ألف ليلة وليلة «استغرق ثلاث سنين وبلغ عدد حلقاتها أربعمئة وخمساً وأربعين حلقة». والواقع أن حكايات هذا الكتاب كان لها أثر دائم وعميق على مشاعر الجمهور، لأنها قدمت لهم المشرق في صورة رومانسية وغريبة مستطرفة»[(١)].

وفي ضوء ذلك، انخرط العديد من المستشرقين في إثارة المشاكل الوهمية في ديار المسلمين، وقد لعبوا فيها دوراً خطيراً كما حصل في مسألة السفور والحجاب، التي استمات فيها هؤلاء دفاعاً عن السفور، حتى ولو بطريقة غير مباشرة، كما حصل في بدايات هذا القرن حينما ظهرَ الى الأسواق كتاب بعنوان «السفور والحجاب» يحمل اسم امرأة مسلمة تدعى «نظيرة زين الدين» ليتبين

---

١ – م . ن : ٣٥.

فيما بعد، أن هذه الكاتبة المسلمة ما هي إلا اسم مختلق، فيما المؤلف الحقيقي للكتاب هو مجموعة من المستشرقين، كما مرّ علينا سابقاً.

وهكذا يتضح لنا أن المستشرقين، سواء منهم العلماء أو الرحالة أو الكتاب، قد تمكنوا من تكوين صور وأفكار مقبولة عموماً عن الشرق المسلم: إنه قاس، متخلف، شهواني، ومستبد[١].

• ثانياً: التبشير

أولت حركة التبشير الى النصرانية المرأة المسلمة اهتماماً خاصاً، بغية اخراجها من دينها. وقد أدرك المبشرون، منذ وقت مبكر، الأهمية الخاصة للمرأة المسلمة، فأولوها العناية العظيمة. ووجهوا اهتمامهم للتأثير عليها، في العديد من المجالات، وخاصة في مجالي التعليم والتطبيب.

فعلى الصعيد الأول، لا يخفى أن للتعليم النسائي أهمية خاصة في بناء المجتمع، وهذه الأهمية لم تغب طبعاً عن أعين المبشرين. ولما جاء المبشرون الى المشرق الاسلامي كان العلم بين الرجال قليل الانتشار، أما بين النساء فكان أقل انتشاراً. وأدرك المبشرون أن هذه حال لا يمكن أن تدوم، وأن المرأة ذات أثر في التربية أكثر من الرجل فأولوها اهتماماً عظيماً. حتى قال چسب: «إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني. لقد شعرت دائماً أن مستقبل سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها. لقد بدأت مدرستنا «للبنات»، ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها، وها هي قد أثارت اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية».

ونظراً لأهمية هذه المسألة، نجد أن المبشرين لم يتأخروا عن فتح مدارس

---

١ – م. ن: ٢٤.

البنات. إن أول مدرسة للبنات في الامبراطورية العثمانية فتحها المبشرون في بيروت عام ١٨٣٠م. ولقد فتح المبشرون مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسورية كلها وفي الهند والأفغان.

وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الداخلية للبنات أشد. قالوا: إن التبشير يكون أتم حبكاً في مدارس البنات الداخلية، لما يكون فيها من الأحوال المواتية والفرص السانحة. إن المدرسة الداخلية تفضل المدرسة الخارجية لأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق ولأنها تنزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية. ويفرح المبشرون إذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة، لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيوتهن أعظم. وتتكلم المبشرة اناميليغان فتقول: «في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات. وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت نفوذ مسيحي، وليس ثمة طريق الى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة».

من أجل ذلك طلب المبشرون الأمريكيون منذ عام ١٨٧٠م مبلغ ثلاثين ألف دولار لمدرسة دينية للبنات في بيروت، وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة في الحياة البيتية، وأن تلك المدرسة ستساعد على تنصير سورية في المستقبل[١].

أما على صعيد التطبيب، فلم ينس المبشرون مقام المرأة في الأسرة فوجّهوا اهتمامهم الى التأثير عليها، وجعلوا يبشرون في مستشفيات النساء وفي المستوصفات، وكذلك أرسلوا الطبيبات المبشرات الى البيوت والقرى للاتصال مباشرة بالنساء واستخدام نفوذ المرأة في الوصول الى أهدافهم التي يزعمون أنها نبيلة، ولكنها لا تنكشف دائماً إلاّ عن سعي لبسط نفوذ سياسي استعماري.

ولقد استغل المبشرون كل شيء في سبيل التنصير (أو محاولة التنصير) حتى

---

١ — د. عمر فرّوخ و د. مصطفى خالدي «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»، بيروت، ط ٥، ١٩٧٣، ص ٨٦

الممرضات. يرى المبشرون أن الممرضة لا تعمل على تخفيف الألم عن المرضى فقط بل تحمل إليهم أيضاً رسالة المسيح، ولذلك حرص المبشرون على أنشاء مدارس للتمريض في إيران خاصة[1].

• **ثالثاً: إدارة الاحتلال**

صحيح أن أجهزة المستعمر الكافر حاولت، ومنذ البداية، وحتى قبل أن تتمكن من إحكام سيطرتها العسكرية، نشر الفساد الاجتماعي، بكل ما أوتيت من مكر ودهاء، فمثلاً بعد فتنة عام ١٨٦٠م في لبنان، أرسلت فرنسا جيشاً لتحتل جبل لبنان دفاعاً عن الموارنة. ولقد كان الاحتلال الفرنسي لعنة في سوريا، فقد فتح الافرنسيون يومذاك في لبنان خمسين حانة وعدداً كبيراً من بيوت الدعارة[2].

وأما في مصر، فقد تزامن مع طلائع الجيش الفرنسي، أيام حملة نابليون على مصر (١٧٩٨) ظهور التحديات الناشئة عن تغلغل التغريب على أصعدة الفكرة والسياسة والاقتصاد والاجتماع، مما أدّى الى زعزعة تماسك البناء الاجتماعي، وشكّل بداية لتغييرات اجتماعية عميقة، ورغم مشاركة المرأة المصرية في القتال الى جانب الرجل، أثناء الحملة الفرنسية على الاسكندرية، إلاّ أنها - في النهاية - تأثرت بتقاليدهم، فعرفت القاهرة الاختلاط العلني بين الرجل والمرأة، كما عرفت المسرح والتمثيل[3].

وفي العراق، تحولت مقاهي بغداد، من ظاهرة قراءة قصص عنترة العبسي وأبي زيد الهلالي وحمزة البهلوان وغيرها، مما كان متعارفاً عليه قبل الاحتلال البريطاني، الى شيوع ظاهرة الرقص في تلك المقاهي، وقد بذلت سلطة الاحتلال

---

١ – م . ن : ٦٤، وكذلك «القوافل: رحلات الارسالية الأمريكية في مدن الخليج والجزيرة العربية ١٩٠١ – ١٩٢٦» خالد البسّام، البحرين، ١٩٩٣.

٢ – م . ن : ١٩٩.

٣ – الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية، م . س : ٣٥٧.

في العراق أموالاً طائلة لتشجيع هذه الظاهرة، ولم تكد الحرب تنتهي حتى بدأت المراقص تتضخم مع التضخم النقدي. واتضح ذلك في بغداد والبصرة بشكل خاص[1].

وليس بمستغرب أبداً أن تصدر القنصلية البريطانية في البصرة مجلة نسائية بعنوان: «مجلة فتاة الرافدين» وكانت هي المجلة النسائية الوحيدة من نوعها في الشرق الأوسط مصورة. وترأس تحريرها مسز م. مكفرسن[2].

اكتمال المخطط

ولا يحتاج المرء الى بذل المزيد من الجهد، لكي يكتشف ملامح المخطط التغريبي. فمهمة الاستشراق، حول المرأة المسلمة، كانت تقصّي نقاط القوة والضعف واكتشافها، لطمس الأولى وتكريس الثانية، وإضافة نقاط أخرى من وحي الرذيلة المتفشية في الغرب، وتأتي مهمة التبشير المكملة لإخراج هذه المرأة المسلوبة الإرادة من دينها وقيمها .. لتكون لقمة سائغة لمخططات دوائر الاحتلال، ولتزج بها في أتون الانحلال.

كل هذا تم تحت خدعة كبيرة اسمها «تحرير المرأة». في حين أثبتت الوقائع أن هذا ‹التحرير› الذي يزعمونه يعني: أن تتمرد المرأة المسلمة على فطرتها بوصفها أنثى خلقها الله لتكون زوجة وأمّاً، وأن تدع مملكتها المسؤولة عنها لتخرج الى الشوارع والأسواق والملاهي والمصانع وغيرها، لتزاحم الرجال بالمناكب، وتتسلح بكل ألوان الزينة والاغراء، لتجذب الرجال وتباهي النساء الأخريات. التحرير هنا يعني: إزالة الحواجز بين المرأة والرجل ليستمتع كلّ منهما بالآخر في عبث.

---

١ – د. علي الوردي «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي» بغداد، ١٩٦٥، ص ٣٣١.

٢ – زاهدة إبراهيم «كشّاف الجرائد والمجلات العراقية» بغداد، ١٩٧٦، ص ٢٩٦.

كما يعني تحرير المرأة في ديار الإسلام أن تدخل الى العلاقات الأسرية - التي نظمها الإسلام بأحكام الشرع - الأفكار والتقاليد النصرانية التي تحرّم الطلاق وتعدد الزوجات .. هاتان الركيزتان اللتان يقوم عليهما تحرير المرأة المزعوم هما:

١- إدخال الأفكار والتقاليد النصرانية الى حياة الأسرة المسلمة.

٢- إخراج المرأة المسلمة من بيتها ووظيفتها لتفتن الشباب، وتنشر الميوعة والفساد والانحلال، أو لتكون أُلعوبة بأيدي الخبثاء من الرجال[١].

ولكن هل هذا كل ما يقصده المخطط التغريبي؟

قطعاً ليس هذا فحسب، فهناك الى جانب هذه الجهود الضخمة بُذلت جهود حثيثة من قبل المتغربين، أولئك الذين ارتضوا أن يكونوا معابر الغرب وأدواته واللاهثين خلف سراب حضارته العرجاء..

وعلى الرغم من ضخامة تلك الجهود، فمن الخطأ أن تعلّق على شماعة الاستعمار كل ما حصل، إذ لم يكن بالإمكان لأية قوة أن تفرض مضامين مفاهيمها ما لم تكن هناك أرضيّة مناسبة لتقبّل تلك المفاهيم، وهذا ما أطلق عليه المفكر الإسلامي مالك بن نبي «القابلية للاستعمار». وفي هذا الاتجاه طفق بعض المسلمين ينادي باتباع الغرب فيما وصل إليه من حضارة صناعية وفكر طبيعي .. وإذا ما توصلنا الى إقرار هذه الحقيقة، وتأملنا بعمق مجريات الأمور وتحولات الفكر والسياسة في منطقتنا الإسلامية .. فإننا سنقف على حقيقة ما جرى، وسنعرف كيف كان الدور المنظّم المدروس المنفّذ بدقة لتحطيم الشرق الاسلامي من قواعده، بتقويض دعائم الدين، وحل عرى الأخلاق، والاطاحة بالتقاليد، وتخريج «دعاة» من بين المسلمين أنفسهم ينادون بتحطيم الدين

---

١ - الحلول المستوردة، م . س : ٧٢.

والأخلاق والتقاليد، ودفعهم الى المناصب الكبيرة ومراكز التوجيه، لكي تستتر وراءهم الصليبية والصهيونية، وينخدع المسلمون بأقوالهم، على أنهم مسلمون .. مجدّدون![1].

المشروع التغريبي

كانت «قضية المرأة» في مقدمة القضايا التي انصبّت عليها جهود أولئك «المجددين»، ويلاحظ على أغلب التيارات التي تسعى الى تحديث المرأة أو الى تحديث المجتمع بصفة عامة، في المجتمعات العربية الاسلامية أنها تسعى الى قراءة واقع المرأة، من خلال نماذج مستمدّة من النمط الحضاري الأوربي، ثم تضفي سمة «العلموية» على هذه القراءة وعلى هذه النماذج، وهذا ليس من العلمية في شيء لأنه من غير العلمي أن نقرأ الأنماط المجتمعية الحضارية المختلفة - ومن ضمنها المرأة - من خلال منظور التجربة الأوروبية وعبر نظرة الغرب الى نفسه والى العالم.

إن النظرية الغربية عن المرأة في مدارسها المختلفة وليدة التجربة الأوروبية في مراحلها المختلفة: منذ صراع روّاد الفكر والسياسة في أوربا مع الكنيسة الى استقلال الفكر في جميع مجالاته عن الدين، ثم في الاضرابات المختلفة التي عرفتها المجتمعات وهي تسعى الى التقدّم المادي، الى غير ذلك من المراحل المعروفة لدينا بهذا القدر أو ذاك.

الغرب أشاع نظريته عن المرأة باعتبارها مقياساً للتقدم والتخلف، على أساس اعتبار نموذجه مقياساً للتقدم، يقيس عليه النماذج الأُخر، سواء في آسيا أو أمريكا أو أفريقيا، التي ستعتبر مختلفة بالضرورة ما دامت وحدة القياس هي

---

١ - محمد قطب «معركة التقاليد»، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٨٤.

النموذج الأوربي، وهذا لا يرتبط بالمرأة فقط، بل يشمل سائر مكونات الشخصية من القيم والأخلاق والعادات[1].

وقد استطاع الاتجاه الغربي النفوذ الى المجتمعات الاسلامية، عبر طلائع الاستعمار العديدة (العسكرية، الثقافية، الاقتصادية، السياسية) وليستمر التواصل عن طريق معابر الغرب وأدواته المحلية. حتى وقع الوطن الاسلامي في الكمّاشة، ودفع الثمن باهظاً.

وليس غريباً أن يشق المخطط التغريبي طريقه الى كل مناحي الحياة، فينفذ الى البيت والمدرسةوالجامعة والدوائر الحكومية والشارع!. وقد اعتمد المشروع التغريبي، بخصوص قضية المرأة، على أربع ركائز، تضافرت جميعها بتنسيق دقيق، وتوزيع أدوار محبك، وهذه الركائز هي:

• **الطابور الخامس**

بسبب مداخلات عديدة، لسنا بصددها، أضحى بعض نصارى الشرق الاسلامي من أشد المتحمسين لانتشار الاتجاه الغربي والتغرب في هذه المنطقة، خاصة وأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم تابعين للغرب دينياً وثقافياً، وقد اعتبر هؤلاء نفوذ الغرب ومجيء الغربيين الى هذه المنطقة في مصلحتهم، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون إثر هذا النفوذ - فضلاً عن الفوائد المادية - على ملجأ يأوون إليه من ضغوط المسلمين العرب والأتراك. وقد ذكر الدكتور حميد عنايت أن الذي فتح طريق الشام أمام الدول الغربية هو وجود المسيحيين العرب الذين وضعوا أنفسهم تحت حماية الدول الغربية، منذ أواخر القرن الثامن عشر، فاعتبرتهم الدول الاستعمارية طابورها الخامس في قلب العالم الإسلامي

---

١ - تُراجع المقالة القيّمة: «نحو تأصيل وعي جديد للمسألة النسوية»، مجلة الانسان (باريس). ع ٩، س٢. رمضان ١٤١٢هـ - مارس / آذار ١٩٩٢، ص ٧٤.

وساندتهم، فكانوا كلما تعرضوا - حقيقة أم كذباً - لظلم المسلمين، طلبوا العون من الدول الغربية، وأعطوها مسوّغاً للتدخل في أمور الشام الداخلية. ففي عام (١٢٧٧هـ - ١٨٦٠م) حيث اشتعلت الحرب الأهلية بين المسيحيين والمسلمين في لبنان، جاءت القوى الغربية المستعمرة بجيوشها الى هذا البلد وبقي الجيش الفرنسي سنة كاملة هناك.

ولكن المسيحيين أدركوا شيئاً فشيئاً أن أسلوب الاعتماد على الأوربيين هذا قد أدى الى غضب معظم المسلمين وحقدهم وامتعاضهم، ولا يعد حلاً بعيد المدى لمشكلتهم فاتبعوا أسلوباً آخر، وبدلاً من استدعاء الجيوش الغربية جاءوا بالاتجاه الغربي الثقافي الى الميدان، وأثاروا المشاعر القومية العربية، ذلك لأن التغرّب يؤدي الى إضعاف عقيدة المسلمين وإقبالهم على أوربا، وبذلك يحصل المسيحيون على موقع أفضل لمعرفتهم بأساليب الأوروبيين أكثر من غيرهم.

وقد أدّى شيوع الاتجاه الغربي في مصر - في الوقت نفسه - الى تعجيل هذه العملية في مناطق الشام مباشرة، وكان للكتب المنشورة في مصر قراء كثيرون في سوريا والأردن ولبنان وفلسطين[١].

وقد لعب النصارى وأبناء الأقليات الدينية الأخرى دوراً بارزاً في إثارة قضية المرأة، وذلك كمفردة من مفردات المشروع التغريبي الذي كانوا يدعون إليه، وهم من طلائعه، خاصة وأنهم يشكلون أغلب دعاة «التنوير» من أمثال: بطرس البستاني، ناصيف اليازجي، إبراهيم اليازجي، نوفل نوفل، سليم نوفل، ميخائيل شحاده، سمعان كلهون، جرجيس فياض، اسلان دمشقية، جيمز صنوع، شبلي شميل، جرجي زيدان، وفي إيران أمثال ملكم خان، ويفرم خان..

---

١ - د. علي محمد النقوي: «الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي»، ترجمة عبد الكريم محمود. منظمة الاعلام الاسلامي، طهران، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٥٠ - ٥١.

• **الحكّام**

ارتبطت «قضية المرأة» منذ البداية، ارتباطاً وثيقاً بالغزو الاستعماري وتغريب المنطقة. وكان الحديث عن «الحريم» و«الاستعباد» الشرقي «أي الاسلامي» للمرأة جزءاً ملازماً من كتب الرحلات التي ألفها الغربيون، بعد تجوالهم في بلاد المسلمين، في القرنين الثامن عشر وأوائل التاسع عشر. واكتسب الأمر في أواخر القرن التاسع عشر بعداً أخلاقياً و«عملياً» فبدأ الكتّاب يلقون الأضواء على ما سمّوه «عبودية المرأة» في ظل الاسلام والمجتمعات الاسلامية.

وأدّى نشر هذه الكتابات الى نوعين من رد الفعل، لدى المثقفين المسلمين، في تلك المرحلة .. أولهما: اعتذاري يحاول تصحيح أخطاء السادة الغربيين وينتهي الى قبول مواقفهم الأساسية، وثانيهما علماني وتغريبي لا يرضى بالاسلام حتى بعد «اصلاحه» وتطهيره. وبرزت من هذه المواقف الخطوط العامة للبرامج العلمانية عبر الجرائد والمجلات والكتب في عدد من الدول الاسلامية، خلال هذا القرن، وهي البرامج التي اكتسبت سمعتها الشريرة، حين استخرجها الحكام الاستبداديون، مثل أتاتورك في تركيا، ورضا خان في إيران، وأمان الله خان في أفغانستان، من الكتب والمجلات وفرضوها بالقوة على الواقع. لقد أقام هؤلاء سابقةً درج عليها الحكّام المستبدّون الآخرون الذين فُرضوا على العالم الاسلامي، في السنوات اللاحقة. وكان هذا البرنامج بسيطاً للغاية، في خطوطه الاستراتيجية العامة، فانطلاقاً من منظور رأسمالي علماني قائم على الفكر الأوروبي المسيحي المعاصر. ندّدوا بكل ما في النظرية والممارسة الاسلامية فيما يتعلق بالمرأة، واعتبروه تخلفاً وجهلاً وانعداماً للحضارة. وكان المخرج في رأيهم من هذا «الظلم» الفاحش الذي أوقعه الاسلام في حق نصف البشرية هو نبذه كدين أو على الأقل «اصلاحه» بالقوة أو بالتخريب التدريجي، لكي يتسق مع النظرة الغربية التقدمية. وهذا البرنامج العام هو المسؤول عن الكثير من الحوادث

والحركات عبر العالم الاسلامي، خلال النصف الأول من القرن العشرين، مع اختلاف التفاصيل الجزئية في مختلف أجزاء العالم الاسلامي، وفق ظروفها السياسية[1].

ويطول الحديث عن دور أتاتورك في إشاعة السفور ومعاداة الحجاب، وقد أخذت منه هذه المسألة اهتماماً كبيراً، حتى أنه وضعها في الدرجة الثالثة، من قائمة أولوياته، وذلك بعد إلغاء الخلافة، وإعلان الجمهورية!!

ومن أقواله لشعبه في هذا الصدد: «يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية، وعلينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية، لا نسمح لمن يجهلنا في الشعوب الأخرى بالضحك علينا وعلى موضاتنا القديمة البالية، نريد أن نسير مع التيار والزمن»[2].

حاول بعض الحكام المعاصرين لأتاتورك تقليده في إلغاء الحجاب، وكان في مقدمة هؤلاء رضا خان شاه إيران، وأمان الله خان ملك أفغانستان، وفيما تمكن أتاتورك من فرض السفور على نطاق واسع، واجه المشروع عقبات كبيرة في إيران، بسبب موقف الأمة وعلمائها، أما في أفغانستان فقد خُلع الملك أمان الله خان من عرشه لأنه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة.

• العملاء الفكريون

وممّن ساهم في الترويج للسفور، تحت غطاء «تحرير المرأة» طبقة من العملاء الفكريين الذين انبهروا بحضارة الغرب وحاولوا أتباعها الى حد التقليد الأعمى. والغريب أن هؤلاء قد أطلقوا على أنفسهم اسم ‹المتنورين› أو ‹المثقفين›

---

١ – مقال «الحركة النسائية أداة لضرب الاسلام»، ص ١٠، صحيفة الهلال الدولي: ١٩٩٠/٤/١.

٢ – نقلاً عن كتاب: «الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية»، أبو الحسن الندوي، ط ٢، القاهرة، ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م، ص ٥٦.

ورفعوا راية الاتجاه الغربي بأيديهم، إلاّ أن معظم هؤلاء - كما كشف فيما بعد - كانوا عملاء أجراء للمستعمرين، وأعضاء في الماسونية وبقية المنظمات الامبريالية، وخدماً للمستعمر ودوائره، وكان هؤلاء من أكبر القنوات البشرية لانتشار الاتجاه الغربي والتغرّب في بلدان العالم الثالث.

وكانت التبعية العمياء من أبرز خصائص هؤلاء، فقد مدحوا تقدّم الغرب في مجالي المعنويات والماديات معاً، ورأوا حل كافة معضلات الشرق كامناً في التقليد الأعمى أو اقتباس طرق الغرب وأساليبه في كافة المجالات، وسعوا بقوة الى صب الأنظمة الثقافية والاجتماعية والسياسية للبلدان الاسلامية في قوالب غربيّة، وكانوا يعارضون الدين والتقاليد المحلية بشدة، ويسخطون من سيطرة الأفكار الدينية على أذهان المسلمين، ويسعون من أجل زعزعة دعائم الدين، ويسخرون من جميع مقدسات المجتمع الاسلامي .. وكان معظم روّاد الاتجاه الغربي والثقافي في تركيا وإيران والعالم العربي أصحاب علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالاستعمار [1].

فعلى سبيل المثال نجد العلماني المصري منصور فهمي يبدأ حياته العلمية عام ١٩١٤ بوضع أطروحة دكتوراه في باريس بإشراف عالم الاجتماع اليهودي «ليفي بريل» (١٨٥٧ - ١٩٣٩) بعنوان «حالة المرأة في التقاليد الاسلامية وتطوراتها» فأثار معارضة اسلامية شديدة بسبب بعض إشاراته الى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، كانت أطروحته تلك تعتبر فاتحة اتجاه أُطلق عليه من بعد «تيار التغريب» وسار فيه كثيرون من بينهم طه حسين، ومحمود

---

١ - د. محمد علي النقوي؛ م . س، ص ١٤٩ - ١٥٠.

عزمي، وسلامة موسى، وعلي عبد الرازق، واسماعيل أدهم، وعبد العزيز فهمي[1] .

• قاسم أمين : لقد كانت «قضية المرأة» من أكثر القضايا إثارة في ذلك الوقت، وقد أتت القنبلة الأولى من «قاسم أمين» (١٨٦٣ - ١٩٠٨م) بكتابيه: «تحرير المرأة»، و«المرأة الجديدة»، اللذين صدرا في عامي ١٨٩٩ و ١٩٠١[2] .

أما الكتاب الأول فقد ذهب فيه المؤلف إلى أن الدعوة الى السفور ليس فيها خروج عن الدين .. وقد تناول في كتابه أربع مسائل، وهي: الحجاب، واشتغال المرأة بالشؤون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل الى ما يطابق مذهب الغربيين، زعماً أن ذلك هو مذهب الاسلام.

ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح في الكتاب الثاني «المرأة الجديدة» فالتزم فيه المؤلف مناهج البحث الأوروبية الحديثة التي ترفض كل المسلّمات والعقائد السابقة سواء منها ما جاء من طريق الدين، وما جاء من غير طريقه، ولاتقبل إلاّ ما يقوم عليه دليل التجربة، وهو ما يسمونه «الأسلوب العلمي»[3] .

وبغض النظر عن الكتابين كمادة شرعية، حيث عالجا قضية الحجاب والسفور والاختلاط ونحو ذلك، من وجهة نظر علمانية، فإن ما يعنينا هو اللحظة التي صدر فيها الكتابان، وهي الفترة التي كانت فيها دعوة السيد جمال الدين الأفغاني تحرّك مشاعر الطليعة المسلمة المثقفة في ذلك الحين، وتنزع بها الى

---

١ - يُراجع كتاب: «تحولات الفكر والسياسة في المشرق العربي»، د. محمد جابر الأنصاري، الكويت، (سلسلة عالم المعرفة - ٣٥)، ١٩٨٠م، ص ٦٢.

٢ - صحيفة الهلال الدولي: ١٩٨٨/٧/١٦.

٣ - «الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية»، م . س، ص ١٠٨.

مواجهة جذرية مع الاستعمار الأجنبي، كما كانت هناك حالة قلق واسع وإعادة نظر في العمل «الجهادي» في أعقاب انتكاسة ثورة أحمد عرابي عام ١٨٨٢، وبدأ تيار جديد ينحو مبلوراً وعياً سياسياً إسلامياً أكثر ضبطاً وجدّية، تولّد عنه - فيما بعد - تيار مصطفى كامل. وبكلمة، لقد كان التحدي الكبير الذي تجابهه الأمة أخطر وأعمق من أن تستغرقه خلافيات حول «حجاب المسلمة» بحيث تنتقل بالمجابهة الاسلامية ضد الخطر الأجنبي، الى نوع من الإرباك «المفتعل» والاضطراب غير المسوّغ في الداخل.

لقد أحدثت دعوة قاسم أمين دويّاً هائلاً، واستقطب فعالية الطليعة المثقفة بعيداً عن الجوانب الأكثر خطورة وإلحاحا في رقعة الأزمة[1].

• ضياء كوك ألب : يحتل ضياء كوك ألب (١٨٧٥ - ١٩٢٤م) مكانة خطيرة بين المؤسسين الفكريين لتركيا الجديدة، إنه قدم الأساس الفكري والفكرة الجديدة التي تأسست عليها الدولة الجديدة والمجتمع الجديد من الناحية الفكرية والأساسية. وقد دعا بكل قوة وصراحة الى سلخ تركيا من ماضيها القريب، وتكوينها تكويناً قومياً خالصاً، وإيثار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الأتراك - على زعمه - في تكوينها وحراستها[2]..

وفي هذا السياق، تأتي دعوة ضياء كوك ألب مشابهة - الى حد التطابق تقريباً - مع أفكار علمانية رفعها روّاد التغريب في المنطقة، مما يعني أن أولئك جميعاً كانوا ينهلون من مصدر واحد. فكان يرى وجوب طرح القومية التركية في مقابل الاسلام، والاقتباس التام للحضارة الغربية من أجل كسر قيود الظلم والجهل، وكان يدّعي - شأنه شأن طه حسين - أن شعبه تابع لأوربا لا للعالم

---

١ - الهلال الدولي: م . س.

٢ - «الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية»، م . س. ص ٤٤ - ٤١.

الاسلامي، ولذا يجب على تركيا قطع كل ارتباطاتها الثقافية والفكرية والاجتماعية بالشرق، والارتباط بدلاً من ذلك بالغرب وقد عُدّ كبير منظّري الأتراك المتغربين في تلك المرحلة(١).

وراح ضياء كوك ألب يتطاول على الشريعة تحت لافتة الدعوة الى «تحرير المرأة» ونيل حقوقها وها هو يقول في إحدى قصائده:

«ها هي المرأة، أمي، شقيقتي، ابنتي
فهي التي توقظ في أعماق نفسي أشد مشاعري قدسية
ها هي حبيبتي، شمسي، قمري، ونجمي
كيف يمكن للشريعة المقدسة أن تعتبر هذه المخلوقات محتقرة؟
لاشك أن الفقهاء قد أخطأوا في تفسير القرآن؟
فأساس الوطن والدولة هو العائلة
فإن حياة الوطن تظل ناقصة
وينبغي لبناء العائلة أن تعم العدالة
لهذا فالمساوة ضرورية في ثلاثة أشياء: الطلاق والانفصال والإرث.
فطالما أن المرأة تعادل نصف الرجل في الإرث وتعادل ربعه في الزواج، فلا يمكن للعائلة أو للبلا د أن ترتقي».

ولم يكتف ضياء كوك ألب باحتجاجاته الشعرية، بل سعى بصفته عالم اجتماع أن يجد المبادئ التي تعيد تفسير الشريعة(٢) وفق أسلوب سفسطائي يذهب فيه الى منح الشعب التركي الحق في نبذ الكثير من أحكام الاسلام التي

---

١ — الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي: م . س، ص ٦٣.

٢ — حول الجهود التغريبية التي باركها ودعمها المستعمر وأجندته، راجع «الاتجاهات الحديثة في الاسلام» للمستشرق
(هـ . أ . ر . جيب»، ترجمة هاشم الحسيني، بيروت ١٩٦٦م. وكذلك المصدر السابق.

يراها غير نافعة (هكذا...). وكان يقول: «نحن أتراك من حيث القومية ومسلمون من حيث الدين - أي المراسم العبادية - وأوروبيون من حيث الحضارة. ولا ينبغي أن نقتبس من الاسلام سوى بعض المعتقدات الدينية والرسوم والعادات المرتبطة فقط بعلاقة الانسان بالله، أما سائر تعاليم الاسلام الحقوقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فهي بالية ويجب رفضها ورميها في منسيات التاريخ، واقتباس الأنظمة الغربية اقتباساً تاماً بدلاً منها"[1]..

وهكذا نجد أن الدعوة الى السفور جاءت في غمرة الخضوع للحضارة الغربية، والاحتلال الأجنبي، وبهذا فهي ليست دعوة مشبوهة وحسب وإنما مدانة ومرتبطة أساساً بأجهزة المستعمر المحتل لأغراض لم تعد خافية على أحد، كل ذلك لتحطيم أسس المقاومة للأجنبي وحضارته ومخططاته..

لقد تضافرت ركائز المشروع - كما أشرنا - لتنفيذه بتنسيق دقيق، وتوزيع أدوار محبك ولا غرابة إذا ما شاعت الفاحشة، وانتشر وباء الزنا سراً وعلانية، وصار في ديار المسلمين مراقص وكباريهات قائمة لتسهيل العبث والفجور، وعملت المؤسسات المشبوهة عملها في التهوين من فضيلة العفاف، وفي التحريض على التحلل من عرى الأخلاق، وفي تيسير كل السبل للشهوات والغرائز الحيوانية، واستخدمت كل الوسائل من الصورة والخبر، والأغنية، والقصة والتمثيلية، والزي المغري، والسهرات المختلطة ..إلخ.

وتكاتفت الصحافة والسينما والمسرح والإذاعة والكتاب، بل المدرسة والجامعة، وكل المؤسسات التوجيهية والإعلامية، والتثقيفية والترفيهية، على السير في هذا الاتجاه؛ إغراء الرجال بالمجون والفجور، وإغراء المرأة بأن تتمرد على فطرتها الأنثوية وتتشبه بالجنس الآخر وتنافسه، وأن تلبس ما يجذب إليها

---

١ - الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي، م . س : ٦٤.

أنظار الرجال، لا ما يغطي مفاتن الجسد ويستر العورات عن أعين الأجانب. والعجب أن يتم كل هذا الفساد العريض تحت عنوان براق مضلل هو «الحرية الشخصية» بمفهومها الغربي الذي لم تعرفه هذه الأمة[1].

• **المرأة المخدوعة**

وغني عن البيان أن نقول: ما كان بمقدور المشروع التغريبي - والذي كان موضوع المرأة من أبرز معالمه - أن يشق طريقه بسرعة مذهلة لو لم يكن هناك استعداد لتقبل مفردات المشروع، بسبب فقدان المناعة الذاتية لدى المجتمع، الذي سمح لنفسه أن يلهث خلف المظاهر البراقة الخادعة، لحضارة الغرب.

والمرأة المسلمة التي سمحت لنفسها بالانسياق خلف المرأة الغربية وأخذت تقلدها في كل شيء، تتحمل هي بدورها قسطاً وافراً من الهزيمة التي لحقت بالجميع، وفي المقدمة المرأة المسلمة نفسها.

وقد لعبت بعض النسوة في ديارنا دوراً خطيراً ربما لا يقل خطورة عما قام به الآخرون، إن لم يكن أخطر من ذلك، في إباحة السفور وما ترتب عليه من مفاسد اجتماعية خطيرة. وتبرز من بين النساء اللاتي خضن في موضوع «تحرير المرأة» أسماء عديدة من أشهرها: الأميرة نازلي فاضل، ملك حفني ناصف، «المعروفة باسم باحثة البادية»، هدى شعراوي، مي زيادة، روز اليوسف في مصر، وماريانا مراش في حلب، وثريا الحافظ، وماري عجمي، وكوليت خوري في دمشق، وصبيحة الشيخ داود في العراق.

وإذا ما عدنا الى القرن التاسع عشر وجدنا نموذجين صارخين في عالم المرأة المسلمة التي صبأت عن دينها وقيمها. النموذج الأول؛ يتمثل بإحدى أقطاب البهائية والمعروفة بـ«قرّة العين» [١٨١٤ - ١٨٥٢م] والتي أسفرت عن

---

١ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، م . س : ٧١.

وجهها، وارتقت المنبر، وخطبت وجادلت، فكان ذلك أول حادث من نوعه في المنطقة، وربما في تاريخ الشرق كله طيلة عدة قرون.

وخلال مؤتمر «بدشت» (مكان بين مازندران وخراسان) الذي عقده أقطاب البابيين عام ١٨٤٨م، كانت قرة العين على رأس القائلين بوجوب نسخ الشريعة، وكان رأيها أن الباب أعظم مقاماً من جميع الأنبياء الذين سبقوه، وأن له الحق في نسخ الأحكام الاسلامية القديمة، والاتيان بأحكام جديدة.

وحينما احتدم الجدل بين فريق مؤيد وآخر معارض، قررت «قرة العين» أن تقوم بعمل تحسم به الجدال الذي استفحل بين القوم. ففي أحد أيام المؤتمر وكانوا مجتمعين في خيمة بهاء الله فاجأتهم قرة العين وهي تدخل عليهم سافرة الوجه ومتزينة، وكان هذا على خلاف عادتها، إذ كانت قبلئذ متمسكة بالحجاب الشديد على طريقة النساء في زمانها، وكأنها أرادت بعملها هذا أن تنسخ حكماً من أحكام الشريعة هو تحريم التبرج الذي نزل في القرآن[1].

أما النموذج الثاني فيتمثل بالأميرة سالمة بنت سعيد بن سلطان البوسعيد، سلطان عمان وزنجبار (١٨٠٤ - ١٨٥٦م)، فقد غادرت هذه الأميرة وطنها خفية وهي على مشارف العشرين، وهجرت دينها ووطنها وقومها؛ لتعيش الشطر الأكبر من حياتها في ألمانيا، حدث كل ذلك عام ١٨٦٦م، بمساعدة القنصل البريطاني في زنجبار وزوجته اللذين أعاناها على هروبها في باخرة حربية بريطانية، لتنقلها في إحدى الليالي الى ميناء عدن، وهناك تحل الأميرة المسلمة ضيفة على عائلة أسبانية، فأخذت تتلقى تعاليم الدين المسيحي، وحينما لحق بها عشيقها الألماني تمّ تعميدها باسم «إميلي روث» في الكنيسة الإنجليزية في عدن، وتبعته في الحال مراسم الزواج طبقاً للشعائر الإنجليكانية، ثم سافرت مع زوجها الى وطنه هامبورغ.

---

١ - أنظر «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق»، د. علي الوردي، ج ٢، ص ١٥٢ - ١٩٠.

ورغم أن الحنين الى حياتها الأولى كان يراودها ويلح عليها، بما في ذلك إعجابها العميق بدينها الأول، وتفضيلها المستمر لحياتها القديمة، وتقاليدها العربية، بيد أنها ظلت تعبر عن نفسها في مذكراتها بأنها نصف مسيحية نصف مسلمة[1].

ولئن قوبل تصرف «قرّة العين» بالاستغراب والامتعاض من قبل حتى البابيين - على مروقهم وكفرهم - وأيضاً قوبل خروج الأميرة العربية من دينها وتنصرها بالشجب والادانة، من لدن مواطنيها وبقية المسلمين .. فإن المشرق الإسلامي قد أضحى ساحة مفتوحة للتبرج والخروج على القيم والتقاليد، بعد حوالي نصف قرن من الحادثتين المذكورتين!

وبهذا الصدد يقول الدكتور محمد محمد حسين، وهو يعقب على المرحلة التي أعقبت صدور كتابي قاسم أمين: «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة»، وما قام به أنصار السفور والاختلاط: «.. وجزع المحافظون لما صحب هذه الحركة من ميل الى التبرج، ومن نزوع الى التحرر والانطلاق، وأنكروا ما رأوا من تغير حال المرأة، ومن جرأتها على التقاليد وتمردها على سلطة الأب والزوج، وراحوا يتابعون في ذهول تطور الزي، وتقلص الثوب فوق جسدها في سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون من حدود»[2].

وهنا نشاطر الكاتبة المبدعة صافيناز كاظم في تساؤلاتها: كيف تسرب السفور - تلك الحالة الطارئة - الى معاقل الحجاب وقلاع المرأة المسلمة؟

كيف تحولت قضية «تحرير» المرأة المسلمة الى حملة سفور؟ وكيف

---

١ - يراجع كتابها «مذكرات أميرة عربية»، عرّفت به مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع ٣١، س ٨ رمضان ١٤٠٢هـ - تموز ١٩٨٢م، ص ٢١٩ - ٢٣٢.

٢ - راجع كتابه: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، ج ٢، ص ٢٣٥.

أخذت كلمة تحرير مدلول سفور رغم أن التحرير يأخذ في الاسلام مدلول الحجاب، فكانت المحجبة هي «الحرة» والسافرة هي «الأمَة»؟ وهل كانت المعركة التي انتصر فيها السفور على الحجاب في بلاد الاسلام .. هل كانت معركة شريفة حقاً انتصر فيها السفور، لأنه التطور الحضاري المرتقب - كما زعموا ويزعمون - ولأنه الرغبة الفعلية للمرأة واختيارها الحر من أجل خلاصها؟[1]

في نظرة متفحصة لمجريات الأمور في ديار الاسلام خلال القرنين الأخيرين، تتضح لنا الحقائق بشكل جلي، فالثابت تاريخياً أن حركة السفور تطابقت زمنياً في بؤر الاسلام القوية الثلاث: مصر، تركيا، إيران. فلقد ألقت هدى شعراوي وسيزا نبراوي حجابهما وداستاه بأقدامهما فور عودتهما من مؤتمر النساء الدولي الذي عقد بروما صيف ١٩٢٣، وفي تركيا قام أتاتورك عام ١٩٢٥م بإجبار تركيا بأكملها - وليس المرأة فقط - على هجر الاسلام كليّة. حتى الحرف الذي تكتب به اللغة التركية متشابهاً مع لغة القرآن، أما نزع حجاب المرأة التركية فقد تم بالارهاب والاهانة في الطرقات حين كان البوليس يقوم بنزع حجاب المرأة التركية بالقوة.

وعندما نصب الانجليز الكولونيل «رضا خان» شاه إيران عام ١٩٢٦ مؤسساً للأسرة البهلوية قام هو الآخر من فوره فأمر البوليس بالتعرّض لكل امرأة محجبة ونزع حجابها غصباً، وحظر على الفتيات والمعلمات لبس الحجاب ودخول مدارسهن به، ومنع أياً من ضباط الجيش من الظهور في الأماكن العامة أو في الشوارع برفقة امرأة محجبة، مهما كانت صلتها وقرابتها به.

هذه الرياح العاصفة التي هبّت هكذا في منتصف العشرينات من القرن

---

١ - مقال «في مسألة السفور والحجاب»، مجلة الطليعة الاسلامية (لندن)، ع ١، س ١، ربيع الأول ١٤٠٣هـ - كانون الثاني ١٩٨٣م، ص ٢٧.

الماضي؛ لتقلع المرأة المسلمة من اختيارها العقائدي الحر بالتزام الحجاب الشرعي - متدبرة هذه الآية الكريمة: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا﴾[١]، هذه الرياح العاصفة القامعة الارهابية هل كانت صدفة في المنطقة؟ وهل كان تركيزها على حجاب المرأةالمسلمة مسألة عفوية قصد به الحجاب فعلاً وخلاص المرأة أصلاً؟ أم كانت تسهدف في ضميرها ما هو أخطر وأبعد من الحجاب؟[٢]

بديهي، لسنا هنا بصدد الخوض في التفصيلات، ولكن هذا الأمر لا يعفينا من التأكيد أن المخطط الغربي كان حرباً سافرة ضد الاسلام، ولاشك في أن أولئك «التقدميين» من المسلمين المزعومين كانوا أشد خطراً على الاسلام من الأعداء المكشوفين، إذ أن هجماتهم موجهة الى أسس الاسلام الجذرية، كما تقول الكاتبة الأمريكية المهتدية «مريم جميلة»[٣].

الخيوط .. والخطوط

اليوم، وبعد كل هذه السنين الطويلة من تنفيذ المخطط بإمكاننا أن نبصر بجلاء تام هذه الحقيقة البسيطة. وبمنهج التحليل الدرامي الذي يراجع الخيوط والخطوط والشخصيات والكلمات والعرض المسرحي ورؤى المخرج المطروحة، سوف ننتقل الى ذلك المشهد البعيد الذي حدث عام ١٨٤٨م، حينما نزعت «قرّة العين» حجابها .. وتزينت وخرجت من خيمتها سافرة بزينتها الكاملة

---

١ - الأحزاب : ٣٦.

٢ - في مسألة السفور والحجاب، م . س .

٣ - ما تجدر الاشارة إليه أن مريم جملية كانت يهودية قبل إسلامها مطلع الستينات، وقد غيّرت اسمها السابق «مارجريت ⇦

مارکس»، وأصبحت كاتبة معروفة تدافع عن الاسلام وقيمه .. الهلال الدولي: ١٩٩١/٦/١٦.

أمام الرجال قائلة كلمتها الفاجرة: «المرأة مثل الزهرة خُلقت للضم والشم، ولا ينبغي أن يعد أو يُحد شاموها بالكم والكيف، فالزهرة تجنى وتقطف، وللأحباب تُهدى وتتحف..»[1].

بعد هذه الخطوة البهائية التي كانت رمزاً لنسخ الشريعة الاسلامية والغائها قامت هدى شعراوي وسيزا نبراوي صيف ١٩٢٣ بخطوة مشابهة محققتين - بوعي منهما أو بلا وعي - قرار «قرة العين» بالغاء الشريعة الاسلامية .. حيث تحولتا الى منفذتين للتعاليم الخارجة على الاسلام، بدأت الخطوة بنزع النقاب، ثم تعرية الشعر والنحر ..إلخ.

عند هذه الصورة التي نضعها أمام أنظارنا لنتأملها سوّياً، أتوقف هنيهة من البداية لأفترض حسن النية والجهل عند كل هؤلاء الذين - واللاتي - أضلوا أنفسهم، وأضلوا المرأة المسلمة، منذ مطلع القرن الماضي حتى الآن، لكن افتراضي هذا لا يمنع حق اجتهاد المحللين الباحثين عن علاقة ما محتملة جداً، سرية أو علنية بين الحركة البهائية ومسيرتها السرطانية الخفية الدؤوبة - التي لا نشعر بها إلاّ بعد ظهور الأورام وتفشي الموت في الدم واللحم والعظم - وقيادات ودعاة سفور المرأة المسلمة على مساحة ديار الاسلام[2].

معالجة على الطريقة الغربية

وليس بوسع المرء أن ينظر ببراءة الى كل التحولات التي حصلت في الوطن الاسلامي فأفكار «المتنورين» من علمانيين «ولم يكن قاسم أمين إلا واحداً منهم»، والهجمات الشهيرة والمستمرة على الحجاب والفصل بين الجنسين، والمعارك لإدخال قانون الأحوال الشخصية من الطراز الغربي المسيحي لتنظيم شؤون العائلة

---

١ – في مسألة السفور والحجاب، م . س .

٢ – م . ن .

المسلمة، والحرب من أجل «حقوق المرأة» في المجالات السياسية والاجتماعية، والخلاف المستمر حول موقف الاسلام من الإرث والمرأة والشهادة وتعدد الزوجات، ونشوة الدعاية الاعلامية الرسمية كلما أحرزت المرأة (انتصاراً) ما، والحملات المستمرة على كل القيم والتقاليد الاسلامية، ووصفها بأنها تنتمي الى العصور الوسطى .. هذه وغيرها من التطورات هي نتيجة البرنامج العلماني التغريبي الضخم الذي جرى تنفيذه في بلاد الاسلام[١].

ولا نقلل من دور ما يسمى بـ(الحركة النسائية) في تنفيذ هذا البرنامج، حتى نستطيع القول بملء الفم إن أجهزة التغريب جعلت من الحركة النسائية أداة مهمة وخطيرة لضرب الاسلام.

وعن هذه الحقيقة يقول أحد شهود العيان لهذه المهزلة، فيذكر بعض السيدات المتحمسات في هذه الدعوة، وتقدمهن في هذا المضمار: «وتزعمت الحركة النسوية (في مصر) هدى شعراوي، حرم علي باشا شعراوي، وتجرأت هذه المتزعمة على مالم تتجرّأ عليه امرأة مسلمة من قبل، فسافرت الى باريس والى أمريكا لدراسة شؤون المرأة، وأخذت تلقي بالتصريحات والأحاديث لمندوبي الصحف»[٢] مستفيدة من دعم ركائز المخطط الصليبي لها، وكذلك من الوجاهة والثراء الذي كانت تتمتع به، خاصة وأن زوجها قد خلّف لها ثروة ضخمة، أخذت تبذلها في هذا الاتجاه[٣].

وقد أصدرت هدى شعراوي مجلة «المصرية» لتبشر بها أفكارها، لتضاف هذه المجلة الى سبع مجلات نسائية صدرت في المدّة من (١٨٩٦ - ١٩١٥م)

---

١ - الهلال الدولي: ١٩٩٠/٤/١، ص ١٠.

٢ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: م . س .

٣ - خير الدين الزركلي «قاموس الأعلام»، ج ٨ ط ٧، بيروت، ١٩٨٦، ص ٧٩.

وإحدى هذه المجلات كانت تحمل اسم «السفور»، وصدرت عام ١٩١٣[١]، فيما كان مجموعة من المبشرين والمستشرقين يعكفون على إصدار كتاب بعنوان «السفور والحجاب» باسم مستعار يحمل اسماً مستعاراً لامرأة مسلمة «نظيرة زين الدين»!!

ويذهب جيل هدى شعراوي ومثيلاتها، ممن ارتضين أن يكنّ أداة فاعلة لضرب الاسلام، ويأتي جيل يتباهى برائدات «النهضة» النسوية. وهاهي إحدى تلميذات العلمانية تفتخر قائلة: «لقد قادتنا هدى شعراوي وغيرها» لتقود أمينة السعيد جمهرة من النساء المصريات الى مجلس الأمة المصري، لمساندة مشروع حكومي، صادر من وزارة العدل لإلغاء بيت الطاعة، وذلك عام ١٩٦٦[٢].

وعلى هذا المنوال تكتب زبيدة بيطاري الجزائرية كتاباً بالفرنسية بعنوان «ألا ابكين يا أخواتي المسلمات» وأيضاً ما تكتبه «ليلى البعلبكي» اللبنانية وأضرابهما من أمثال نوال السعداوي، وغادة السمان .. حيث يبرز الاتجاه اللاإسلامي تحت ما يسمى بتحرير المرأة المسلمة فيما يطلبنه من: شرعية زواج المسلمة بغير المسلم، وإباحة التجربة الجنسية قبل الزواج .. ومساواة الطفل الشرعي بالطفل غير الشرعي[٣] ..

ولكن ماذا حصدت المرأة المسلمة من كل هذه المعركة التي انقشع غبارها؟ لا نريد أن نستبق الرأي الآخر .. فهذه أمينة السعيد - إحدى أبرز تلميذات مدرسة هدى شعراوي - تقول بالنص عن جيل حواء المعاصر: «الآن جاء جيل الشقاء والردة الذي يريد الزوج الغني، الذي يوفر كل شيء .. جيل لا يريد العمل. أسميه جيل الشقاء والردة، لأنه شقي حقيقة .. أشعر بتراجع في القيم

---

١ - مجلة العربي «الكويت»، ع ٢٨٧، اكتوبر ١٩٨٢، ص ١٤٧ وما بعدها.

٢ - مجلة العربي: ع ٣٨١، أغسطس ١٩٩٠، ص ٩٧ وما بعدها.

٣ - د. محمد البهي: «الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر»، ط ٣، بيروت، ١٩٧٣، ص ٧٩.

العامة. وبخاصة تلك المتعلقة بقيمة العمل والعلم، فقد استبدلت هذه القيم العظيمة بقيم المال والاستهلاك، فأصبحنا في نكبة حقيقية»[1].

ولا ندري ماذا كانت تأمل أمينة السعيد من وراء اللهاث خلف سراب المشروع التغريبي غير هذه الكارثة الحقيقية التي تتحدث عنها..؟!

وهنا، هل نستطيع القول بأن المشروع «النهضوي» الذي أنشأه قاسم أمين أو تصوره لنهضة المرأة المسلمة قد فشل؟ وهل يمكن القول - من ثم - بأن المجتمع المسلم أصبح مؤهلاً لاستقبال مشروع نهضوي جديد للمرأة، يضعها في مدارات الرشاد والحق والنور؟

أظن أن الواقع الحي والحس المشهود في ديار المسلمين اليوم، لايدع لنا مهلة للتفكير في الاجابة عن هذا التساؤل، ذلك أن الاحتجاجات النسائية العنيفة التي تشهدها مختلف ديار الاسلام اليوم، ورفضها الحاد لكافة المظاهر الغربية، في القيم والسلوكيات والمفاهيم والآراء وغيرها، تؤكد أن المشروع الذي شخصته قضية قاسم أمين قد انهار تماماً، وأصبح عاجزاً عن الاجابة عن أسئلة النهضة. أو أنه أعطى إجابات خاطئة، ومزورة، عقدت مشكلةالنهضة بدلاً من حلّها أو تيسير المخارج إليها. وإن ظاهرة واحدة مثل ظاهرة الحجاب التي شاعت في أوساط النساء المسلمات اليوم لكافية - كرمز - للدلالة على سقوط المشروع الذي تبناه قاسم أمين، وفشله على محك الواقع والتجربة[2].

وفي الختام لا يسع بنات هذا الجيل .. جيل الصحوة الاسلامية الميمونة إلا الاشادة بتلك الجهود العظيمة التي بذلتها رائدات العمل النسوي الاسلامي، ونخص بالذكر «الحاجة زينب الغزالي .. والشهيدة العلوية بنت الهدى»؛ لما

---

١ – مجلة العربي، ع ٣٨١، م. س.

٢ – يراجع المقال القيم «قضية قاسم أمين» الهلال الدولي، ١٩٩٠/١٢/١، ص ٥.

أسدتاه من خدمة كبيرة وجليلة، في بث الوعي الرسالي بين صفوف المسلمات .. ولا يعني هذا أن نغمط جهود العديد من المؤمنات الأخريات.

وإذا كان لابد من كلمة تقال في مجال العمل النسوي المعاصر، فهي الدعوة الملحة لصياغة نظرية المشروع النسوي وفقاً لرؤية إسلامية معتدلة، مستمدة من الواقع ومتطلبات العصر وبالاعتماد على النصوص الاسلامية الصحيحة .. وذلك تأصيلاً لوعي نسوي جديد[1] يواكب المستوى الحضاري والانساني لتتبوأ المرأة المسلمة مكانتها التي دعا لها الاسلام.

---

١ - هناك محاولة جادة في هذا الاتجاه، للاستاذ محمد المريني في مقاله القيّم «نحو تأصيل وعي جديد للمسألة النسوية»، مجلة الانسان، ع ٧، س ٢، رمضان ١٤١٢هـ - آذار ١٩٩٢م، ص ٧٤.

مهمات غامضة ومريبة لنساء غربيات في المشرق الإسلامي

لم يمر وقت طويل على ظهور ترجمة كتاب (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية مطلع القرن الثامن عشر، حتى أخذ العديد من الرحالة والكتّاب والشعراء والرسامين والمصورين والمغامرين والعملاء الأوربيين يتوافدون على الشرق، وتحديداً على المشرق الإسلامي.

بعض هؤلاء جاء إلى تلك المنطقة بهدف الاطلاع والاستكشاف، بدافع من حب المغامرة والاستطلاع مثل (كزفييه دوهال) الذي عبر نهر الفرات على متن ألواح خشبية، و(بيتر موشر) الذي طاف بلاد العراق وفارس باحثا عن أعشاب طبية .. ولكن الكثيرين جاءوا بهدف التبشير، والتمهيد لحملات الغزو.. ولم تخل حملات الأوربيين من الأغراض السياسية حتى أن بعض الوزارات ساهمت وموّلت حملات بعض الرحالة؛ فالعصر في تلك الحقبة كان عصر الرأسمالية، والبحث عن أسواق لتصريف سلع دول أوربا الصناعية، إضافة إلى البحث عن مصادر للمواد الأولية[1].

---

١ – يراجع مقال ((أدب الرحلات))، مجلة الاستشراق (بغداد)، ع ٢، شباط ١٩٨٧، ص ٩٨.

لم يتوقف التدفق الغربي الى الشرق في القرون الماضية خاصة في القرن التاسع عشر؛ لاستكشاف هذا الشرق القريب - البعيد في آن، قريب في المسافة (إذا قورن بالهند والسند). وبعيد في عاداته وأعرافه وأنماط حياته وطبيعته. لقد نُشر الكثير عن هؤلاء الرحّالة (رجالٌ ونساءً) ممن جابوا مناطق مختلفة، خلال مراحل مختلفة، وكتبوا مشاهداتهم وانطباعاتهم، وقد مات بعضهم في المنطقة[١].

مهمات غامضة ومريبة لنساء غربيات

وليس بوسعنا الخوض في ذكر جميع من طرق أبواب الشرق، ونكتفي - هنا - بإيراد بعض النماذج لنساء أوربيات ممن قمن بزيارات غامضة ومريبة للمشرق الإسلامي ومن أبرزهن :الليدي ماري ووتلي مونتيغو (زوجة سفير بريطانيا في اسطنبول) التي زارت عاصمة دولة آل عثمان عام ١٧١٧م وأقامت فيها، لتدون مشاهداتها عن العادات والحياة هناك.

أما جين ديغبي (١٨٠٧- ١٨٨١م) فقد بدأت حياتها في نورفولك (بريطانيا) وانتهت في دمشق إذ نشأت ابنة لعائلة أرستقراطية إنكليزية وتوفيت زوجة لشيخ قبيلة عربية[٢].

ويقترن الحديث عن (ايزابيل ابيرهارت) الروسية الأصل المولودة عام ١٨٧٧ م في ضواحي جنيف على ضفاف البحيرة، في منطقة باردة، بالغرابة إلى حد الأسطورة، إذ كانت ترتدي ملابس الرجال، وتجوب صحارى الجزائر وتهبط وديانها الوعرة، حتى توفيت في ظروف غامضة على رمال الصحراء الحارقة في شمال أفريقيا عام ١٩٠٤م[٣].

---

١ - ((أوربيون في الشرق - ١)) صحيفة الحياة (لندن)، ١٣/ ٤/ ١٩٩٢.

٢ - م . ن، الحلقة العاشرة ١٣/٥/١٩٩٢.

٣ - م . ن، ٤/٤/١٩٩٢.

وأما «الليدي آن بلنت» البريطانية، فقد اشتهرت بمغامرتها في زيارة نجد عام ١٨٧٩م، بمعية زوجها الذي ينحدر من أسرة أنجبت أكثر من مهتم بشؤون الشرق الإسلامي[١].

وتظل «غرترودبيل» أشهر الجاسوسات البريطانيات اللواتي قمن برحلات واسعة في إيران وسوريا والجزائر وبلاد العرب في الفترة الممتدة بين «١٨٩٢- ١٩١٣» وعيّنتها حكومتها خلال الحرب العالمية الأولى، مترجمة وخبيرة في إدارة المخابرات السرية في مصر سنة ١٩١٥م. وفي البصرة ١٩١٦م وفي بغداد ١٩١٧، وبرز نشاطها في العراق خاصة بعد الحرب، وكانت تنعت بملكة العراق غير المتوجة.

واشتهرت بلقب «الخاتون» حتى كاد يغلب على اسمها وكانت لولب السياسة البريطانية العراقية[٢].

وبعد ثلاث سنوات من وفاة «غرترودبيل» وتحديداً عام ١٩٢٩م وصلت «فرياستارك» البريطانية الأصل، الفرنسية النشأة لتستقر في بغداد. بعد جولات في الشام وغيرها.. وحال وصولها بغداد أخذت تكتب المقالات في جريدة «بغداد تايمز» ولتقوم بمغامرتها في زيارة المشهد الكاظمي عام ١٩٣١م، بعدما دخلت الحضرة المطهرة محجبة، كما تتحجب المسلمات ولتنشر انطباعاتها في كتاب «صور بغدادية»[٣].

وإضافة إلى ما تقدم، ما يزال الحديث مستمراً عن «الليدي هستر ستانهوب» أولى الرحالات اللواتي اشتهرت بهن بريطانيا، وأكثرهن إثارة للجدل. فمن هي

---

١ – للمزيد يراجع كتاب «المستشرقون»، نجيب العقيقي، ج٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ص ٤٩٨.

٢ – الزركلي «قاموس الأعلام»، دار العلم للملايين، ط ٧، بيروت، ١٩٨٦، ج٢، ص ١١٥.

٣ – للمزيد تراجع «موسوعة العتبات المقدسة»، جعفر الخليلي وآخرون، ط ٢،١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، بيروت، ج ٩، ص ٣٠٢، وصحيفة الحياة ١٩٩٢/٦/١.

ستانهوب هذه؟ وما هي حكايتها؟ ثم.. وماذا عن مهمتها الغامضة في المشرق الإسلامي؟!

الولادة.. والنشأة

ولدت ليدي هستر ستانهوب في لندن، عام ١٧٧٦م في أسرة أرستقراطية، فهي الابنة الكبرى لـ«ايرل ستانهوب»،وحفيدة لورد تشاتم، وابنة أخت وليم بت رئيس وزراء بريطانيا المشهور.

اتسمت طفولتها ونشأتها بالصعوبة والغرابة بفعل نزوات والدها، خاصة بعد وفاة أمها فحاولت الهرب إلى فرنسا، وهي في العاشرة من عمرها، ثم لجأت إلى خالها الوزير وليم بت مما أتاح لها الاتصال بكبار رجال السياسة والجيش وهي لم تزل ابنة أربعة عشر ربيعاً[١].

وقد عُرفت هستر في شبابها الباكر في وسط لندن الأرستقراطي بحيويتها الدافقة وجمالها واندفاعها، وعندما استقرت سنة ١٨٠٣ في شارع Downing street رقم ١٠ «مقر خالها رئيس الوزراء الذي لم يكن متزوجا» لتكون مشرفة عليه؛ ملأت البيت الهادئ الكئيب بالبهجة والحفلات التي لا تنقطع.. ونسي رئيس الوزراء الحزين بقربها حزنه .. وقد كافأتها الدولة على هذا بأن خصصت لها بعد وفاته مرتباً سنوياً، قدره ١٢٠٠ جنية إسترليني، يدفع لها مدى حياتها.

وبعد أربع سنوات من وفاة خالها وليم بت، قررت سنة ١٨١٠م أن تقوم برحلة الى الشرق العربي، ولكنها كانت رحلة طويلة لم تعد منها الى وطنها أبداً؛ فقد أقامت في الشرق إلى أن وافتها المنية على سفوح لبنان فقيرة وحيدة سنة ١٨٣٩[٢].

---

١ – يراجع عرض الكتاب الخاص عن «ساحرة الصحراء الليدي ستانهوب في الشرق» صحيفة الحياة، ١٩٩٣/٩/٨.

٢ – د. محمود السمرة «ليدي هستر ستانهوب» مجلة العربي، زواية كتاب الشهر، ع ٩، فبراير ١٩٦٧، ص١٣١– ١٣٥.

وبسبب هذه المغامرة التي أقدمت عليها تحولت إلى شبه أسطورة وانتشرت قصصها في جميع أنحاء الشرق[1]، فيما بدت سيرة حياتها مثل مغامرة طويلة وساحرة حتى أطلق عليها البعض لقب «ساحرة الصحراء»[2].

وحول هذه النقطة يقول كاتب معاصر :«لا نغالي إذا قلنا إن ليدي هستر ستانهوب هي أكثر امرأة عرفها التاريخ الحديث شذوذاً، على كثرة ما أنجبت الطبقة الأرستقراطية البريطانية من شاذات وشاذين في القرن التاسع عشر، وليدي هستر ستانهوب هي من هذه الطبقة في الذروة .. وخلال سنوات عمرها التي نافت على الستين كان ما عرف عنها من شذوذ كفيلاً بأن يحيلها إلى أسطورة؛ لأن مثل هذه الحياة يصعب تصورها في الواقع»[3].

صوب الشرق

في شهر شباط من العام ١٨١٠م غادرت ليدي ستانهوب إنكلترا، على متن فرقاطة تدعى «جيسون»، بحثاً عن موقع متميز لها، بعد أن فقدت حلمها بمستقبل سياسي في بلادها .. وكان يرافقها في رحلتها عدد من الأصدقاء والخدم وطبيبها الخاص الدكتور تشارلز مريون، الذي بقي في خدمتها حتى أواخر أيامها.

في البداية قصدت جبل طارق .. بيد أنها لم تستقر طويلا هناك .. فسرعان ما غادرت مع الكابتن ويتبي إلى مالطة فاسطنبول، وبعد ذلك قصدت أثينا، قبل أن تتوجه إلى سورية.

وفي هذه الجولة استطاعت ليدي ستانهوب إنشاء علاقات متينة مع معظم

---

١ – «ليدي ستانهوب أولى الرحالات الأوربيات»، صحيفة الحياة، ١٩٩٢/٤/٢٢.

٢ – صدرت مؤخراً الترجمة العربية للكتاب وهو من تأليف بول هنري وقام بتعريبه ازدهار منفرج ومحمد وليد الجلاد، دار الملاح، دمشق ١٩٩٣.

٣ – ليدي هستر ستانهوب، م . س .

الضباط والقناصل ورجال السياسة في اسطنبول .. وتمتلئ فصول هذه المرحلة بمحاولات رجال السياسة التقرب منها، مما يظهر أهمية الفترة التي قضتها مع خالها، وكذلك الدور الذي لعبته أصولها العائلية النبيلة[١] .. وبالتالي يلقي بعض الأضواء الكاشفة حول طبيعة المهمة الخاصة التي كانت تقوم بها وراء رحلتها، ومن ثم أقامتها في المنطقة حتى النهاية.

ففي حياة هستر ستانهوب الكثير من الأحداث، التي تدل على أنها كانت في مهمة سياسية، تستطلع فيها أحوال البلاد التي كانت بريطانيا تطمع في سلخها من أملاك الدولة العثمانية، والسيطرة عليها، لأن حملة نابليون على مصر علمتها أن طريق الهند لن يكون في أمان ما لم تسيطر على الأرض الواقعة على ضفتي خليج السويس، أي مصر وبلاد الشام، وهذا ما فعلته فيما بعد[٢].

ولا نحسب أن البرهنة على ذلك تحتاج الى مزيد من العناء، فالأدلة والأرقام شواهد شاخصة نقتطف فيما يلي نتفاً منها:

• **هي والحكام والوجهاء**

حال وصولها عاصمة السلطنة العثمانية (اسطنبول) انتشر الخبر: سيدة بريطانية مهمة تقيم في المدينة، وطبيب حاذق يرافقها؛ فتوافدت العائلات التركية لزيارتها سعياً وراء الخدمات الطبية[٣]، وكانت هذه الطريقة أقرب السبل وأخطرها - في آن واحد - لاختراق عالم السياسة ودهاليزه المعقدة، بما في ذلك الوصول إلى خفايا قصور سلاطين آل عثمان، وبيوت وزرائهم وكبار ضباطهم وساستهم .. وباشواتهم.

---

١ - صحيفة الحياة ١٩٩٣/٩/٨.

٢ - ليدي هستر ستانهوب، م . س: ١٣٢.

٣ - صحيفة الحياة ١٩٩٢/٤/٢٢.

وقد اجتازت بهدوء .. شوارع اسطنبول، ذات مرة، في تشرين الأول (أكتوبر) من العام ١٨١٠م. وهي على جوادها متوجهة لمشاهدة موكب السلطان محمود، المتجه إلى المسجد .. واستمرت هذه السيدة بادهاش رجال الدولة بتصرفاتها وعلاقاتها وزياراتها إلى الأسطول التركي، مكونة شبكة من الصداقات على أعلى مستوى[١].

وفي خريف سنة ١٨١١م غادرت الاستانة متوجهة صوب الإسكندرية التي دخلت ميناءها في شباط (فبراير) ١٨١٢م. على متن الفرقاطة (سالسيت) وأثناء وجودها هناك زارت حاكم المدينة الذي سُر كثيراً بالزيارة[٢].

وفي شهر أيار (مايو) من سنة ١٨١٢م. استقبل محمد علي بقصر القلعة هذه الفتاة الإنجليزية الفارعة الطول، الزرقاء العينين، وقد دخلت عليه بلباس نبيل تركي .. وقد بالغ محمد علي في استقبالها، لأنها ابنه أخت وليم بت، وحفيدة لورد تشاتم، ثم زاد في إكرامها لإعجابه بشخصيتها، حتى أنه أقام عرضاً عسكرياً خاصاً لتشهده، في هذا الحفل قدمت هي نفسها عرضاً دل على براعتها في ركوب الخيل، وبلغ من إعجاب محمد علي بها أن أهداها حصانين من خيرة خيوله الأصيلة.

ومن القاهرة كتبت إلى أحد أصدقائها تقول: (لقد كان محمد علي حفياً بي. ولم يكن يستقبلني إلاّ واقفاً. وقد سمح لي أن أزوره متى أردت ولم يرفض لي طلباً طيلة إقامتي في ضيافته حتى أنه سمح لي أن أزور أرامل المماليك الذين قتلهم، عندما طلبت منه ذلك)[٣].

---

١ - م . ن، ١٩٩٣/٩/٨.

٢ - م . ن .

٣ - ليدي هستر ستانهوب، م . س .

وبعد شهر من إقامتها في القاهرة، غادرت هي وحاشيتها إلى دمياط، ومن هناك استأجروا قارباً لنقلهم إلى يافا، وفي يافا كان في استقبالهم حاكم المدينة والمعتمد البريطاني. وبعد استراحة قصيرة غادرت إلى القدس عن طريق رام الله على رأس قافلة من أحد عشر جملاً محملة بالأمتعة، وسبعة من الخدم ومملوكين، وعدد من الجنود لمرافقتها وحراستها. وفي الطريق إلى القدس قابلت الشيخ أبو غوش الذي احتفى بها وبالغ في الاحتفاء.. وإمعانا في الإكرام، أصر الشيخ أبو غوش على أن يرافقها مع عدد من عشيرته، إلى القدس[١].

ولكن السؤال الغريب .. لماذا غادرت ستانهوب مصر إلى فلسطين، رغم كل تلك الحفاوة من قبل والي مصر الكبير، محمد علي باشا..؟! بول هنري - مؤلف كتاب ساحرة الصحراء - يذهب إلى أن توجهها صوب فلسطين كان ضمن جولتها للبحث عن الشهرة .. ولكن واقع الزيارة كان أعمق بكثير، فهي قد وصلت القدس وتعرفت على كل الحكام في طريقها، ثم قصدت عكا للقاء أحمد باشا. وهناك نزلت عند كاتافاغونو العميل الأوربي الأول في الشام .. وجالت ستانهوب في مناطق فلسطين كافة[٢] إذ عادت إلى يافا ومنها سافرت إلى عكا، ثم إلى الناصرة. لتعود إلى عكا ومنها إلى صور فصيدا. وفي صيدا وجدت رسالة من الأمير بشير شهابي تدعوها لزيارته في بيت الدين[٣]. واستقبلها الأمير بشير ملبيا كل طلباتها. والواقع إن وجهتها النهائية، كانت دمشق «عاصمة الصحراء» حسب تعبير ستانهوب نفسها، وعلى رغم التحذيرات الموجهة إليها من صعوبة دخول دمشق بالزي الأوربي، فأنها دخلت المدينة في الأول من أيلول

---

١ - م . ن .

٢ - صحيفة الحياة : ١٩٩٣/٩/٨.

٣ - ليدي هستر ستانهوب، م . س : ١٣٢.

(سبتمبر) سنة ١٨١٢م على رأس ثمانية عشر فارساً. ودشنت سياستها الشرقية بأن راحت تطري الأتراك لتجعل منهم حلفاء[١].

ومن هناك من دمشق بدأت اتصالاتها ببدو الصحراء، وعقدت معهم صداقات، وكان المال يسيل بين أصابعها كالماء .. وقامت برحلة إلى تدمر أبدت فيها كثيراً من ضروب الشجاعة، واتصلت بشيوخ القبائل في بادية الشام ولم تبخل عليهم بالمال، فكانت بعملها هذا أول امرأة أوربية في بادية الشام. وطأت قدماها أرض مدينة زنوبيا التاريخية[٢] .. وسرعان ما تدخلت في الخلافات بين القبائل .. مما مكّنها من التجول بحرية في البادية السورية، في وقت كان البدو يسيطرون على المنطقة ويزرعون فيها الرعب[٣] .. ومن هنا يصح القول إن شأنها كان خطيراً عند حكام البلاد كالأمير بشير وإبراهيم باشا المصري - كما يذكر صاحب المنجد[٤] كما أن شأنها لا يقل خطورة عند غير الحكام أيضاً.

هي.. وذوي المهمات الغامضة

وإلى جانب ما تقدم كانت لستانهوب علاقات مريبة مع ذوي المهمات الغامضة - يومئذ - والتي افتضح أمرها فيما بعد ومن ذلك: أنها - وبينما كانت في الناصرة - فوجئت بدخول شاب غربي السمات، عربي الملبس، قدم نفسه لها على أنه الشيخ إبراهيم، وأخذ يحادثها بإنجليزية سليمة، ولم يكن الشاب سوى

---

١ - صحيفة الحياة، ١٩٩٣/٩/٨.

٢ - ليدي هستر ستانهوب، م . س : ١٣٢ - ١٣٣.

٣ - الحياة :م . س .

٤ - المنجد في الأعلام، ط ١٢، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٣٥٠.

الرحالة بيركهارت، مكتشف البتراء وأثار أبي سمبل[1] وأحد أبرز جواسيس الغرب الذين تظاهروا بالإسلام[2].

وأثناء توقف هستر في حيفا، حدث أمر غريب: فقد دخل على خيمتها إنسان رث الثياب، وقدم نفسه لها بأنه كان أحد ضباط سير سدني سميث (قائد القوة الإنجليزية التي كانت تحاصر عكا أثناء احتلال نابليون لها) ولكنه تخلف عن الأسطول وانقطع لدراسة النجوم وقراءة المستقبل في جبل الكرمل!! وقد بقي الضابط مع ستانهوب وفي بيتها إلى يوم وفاتها..

كذلك شهد بيت (الست) (كما كانوا يسمونها) لقاءين تاريخيين مع أديبين من أشهر أدباء أوربا، وهما الشاعر الفرنسي المشهور لامارتين، والكاتب الإنجليزي كنجليك[3]..

والغريب أنها في الوقت الذي كانت تحرص فيه على استقبال الرحالة والمستشرقين، وتقيم العلاقات المريبة مع اليهود ورؤساء الطوائف .. لم تستقبل أحداً من نصارى دمشق، إلاّ الذين كانت لهم علاقة بالرحالة الأوربيين[4] .. كما وأنها دأبت على عدم استقبال زوارها من الأوربيين، إلاّ ليلاً وفي غرفة باهتة النور، مما أثار الخلاف بينها وبين الأمير بشير الشهابي، الذي كان يشك في تصرفاتها وصلاتها، ولكن رسولاً من السفير البريطاني في اسطنبول وصل إلى الأمير بشير فوَضع حداً لهذا النزاع!![5]

---

١ — ليدي هستر ستانهوب، م . س .

٢ — للمزيد راجع: الأعلام للزكلي ٨ : ٢٦٤، موسوعة العتبات المقدسة ٢ : ٢٦٣ ، ٣ : ٢٤٢، المستشرقون للعقيقي، آداب شيخو ١ : ١١، تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١ : ٧٥، صحيفة الحياة ٢٧/ ٤/ ١٩٩٢.

٣ — ليدي هستر ستانهوب، م . س : ١٣٣— ١٣٤.

٤ — صحيفة الحياة : ١٩٩٣/٩/٨.

٥ — ليدي هستر ستانهوب، م . س.

وبعدما استقر بها المقام في مار الياس، بدأت فترة جديدة من حياتها انقطعت فيها عن الرحلات، لأنها أقامت لها عيوناً في كل مكان من بلاد الشام، يكفونها مؤونة الانتقال، وكان بيتها دوماً غاصاً بالعديد من الوافدين عليها من شتى أطراف البلاد الشامية، ينقلون إليها الأخبار، ويقبضون منها المال[١]، وهكذا كانت على علم بكل ما يجري في البلاد من خلال الجواسيس الذين كانوا يعملون لحسابها في المدن الرئيسية، وفي قصور الباشاوات والأمراء[٢].

ما تجدر الإشارة إليه أن ستانهوب نفسها سبق أن مارست مهمة التجسس، فخلال إقامتها في الصحراء كانت تراقب ما يجري، وفي رسالة إلى أحد المقربين في بريطانيا تقول: «الفرنسيون يرسلون عملاءهم إلى الصحراء، في كل الاتجاهات، وبمصاريف باهظة، لماذا لانفعل نحن أيضاً الشيء نفسه؟»[٣]. وحتى تظاهرها بالجنون بعد إصابتها بالطاعون، وشفائها منه وصدور تصرفات شاذة دالة على الجنون، لم تكن في رأي من كتبوا عنها سوى ستار لجأت إليه لتخفي حقيقتها، وعن ذلك يقول لامارتين في كتابه ‹ذكريات من الشرق›: «ليست ليدي هستر مجنونة؛ فعيناها الذكيتان اللماعتان ليستا عيني امرأة بها مسّ، وحديثها رغم تشعبه وغرابة الموضوعات التي تطرقها، حديث امرأة تسيطر على قواها العقلية، وفي رأيي أن ما يصدر عنها من تصرفات أو أقوال شاذة، إنما هي تصرفات وأقوال مدروسة لغاية في نفسها..»[٤].

وإلا كيف يتسنى لمجنونة أن تمارس تأثيرها على السلطات في الشام، حتى بلغ نفوذها حدّ منح الحماية للمسافرين الأوربيين يتجولون في المناطق حيث

---

١ — م. ن.

٢ — صحيفة الحياة: ١٩٩٢/٤/٢٢.

٣ — م. ن.

٤ — ليدي هستر ستانهوب، م. س: ١٣٥.

كان لها نفوذ[1] فيما كان يحتمي ببيتها الخارجون عن السلطة فلا يستطيع أحد الوصول إليهم! وعندما احتل إبراهيم باشا بلاد الشام، كان الفارّون منه يلجأون إليها فتحميهم ولا يقدر أحد أن ينال منهم![2]

إذن لابد أنها كانت بصدد مهمة خطيرة من مهمات الاستعمار البريطاني، والذي كانت ستانهوب إحدى طلائعه ومن أبرز رواده في المشرق الإسلامي خلال القرن التاسع عشر؛ ولهذا حمل خدمها جثمانها ملفوفاً بالعلم البريطاني، فيما شارك القناصل الأوربيون في دفنها بمدينة جوته، بقرب حبيبها الفرنسي كما أرادت[3]، لتأتي الأيام الحبلى بالتآمر البريطاني - الفرنسي على الإسلام وديار الإسلام، ويكفي أن نشير إلى أن ما بدأه أولئك المغامرون الأوربيون - قبل أكثر من قرن - ما يزال مستمراً في بلادنا إلى اليوم، بأسماء جديدة، وللأهداف القديمة نفسها، كما يعترف كاتب علماني معاصر[4] ولا ينبئك مثل خبير..

---

١ – صحيفة الحياة، م . س .

٢ – ليدي هستر ستانهوب، م . س .

٣ – م . ن .

٤ – رياض نجيب الريس «جواسيس العرب»، لندن، ١٩٨٧، ص ١٠.

أفكار .. وقضايا



من حديث المرأة في القرآن الكريم

في غمرة الانطلاقة الجديدة من وعي المرأة المسلمة، نسمع بين الحين والآخر، صيحات مشبوهة تصم هذه العودة الميمونة للإسلام بشتى النعوت والتهم، من قبيل إنها عملية تغييب لدور المرأة الايجابي، وعودة بها إلى مرحلة الحريم والتهميش والحجر والانغلاق ومن ثم قهرها كأداة للإنجاب، ووسيلة للمتعة. كل ذلك ضمن عبودية جديدة في ظل نظام طبقي من القيود، والتبعية لعالم الذكور.. الخ.

ولسنا بصدد تسليط الضوء على الدوائر التي تشيع هذه الافتراءات، أو الدواعي الكامنة وراءها، وسيأخذ الحديث منحى آخر بغية الوقوف على حقيقة الأمر، في محاولة لقراءة موقع المرأة في المسيرة الإلهية، والدور الذي كان مقدراً لها أن تلعبه، وهو ما نراه أبلغ رد وأجدى وسيلة.

موقع المرأة في المشروع الحضاري

منذ بدء الخليقة أعلن الله سبحانه وتعالى أمام ملائكته: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[1]، وكان ذلك الخليفة هو الإنسان الذي تحمل أعباء تلك الأمانة التي سبق وأن عرضت على السموات والأرض والجبال ﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[2].

وكلمة إنسان تعني المرأة والرجل، دون التفريق بينهما، فهي كما الرجل

---

١ – البقرة : ٣٠.

٢ – الأحزاب: ٧٢.

غاية المشروع، وأحد مصادر طاقته الحركية، كما أن المرأة كأخيها الرجل مستخلفة في الأرض، تقع عليها أعباء تطبيق المشروع، وتحقيق أهدافه: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾[1] و ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾[2].

وإضافة إلى وحدة النوع ووحدة الأصل، أثبت القرآن، وحدة القيمة عند الله بالنسبة لعمل الطرفين، الرجل و المرأة: ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾[3].

يلاحظ المتدبر للقران الكريم، أن ثمة موقعين للمرأة في المشروع المشار إليه، الموقع العام، والموقع الخاص.

أما الموقع العام، فلا نجد في القرآن تخصيصاً للمرأة فيه، باستثناء التركيز على تساوي عمل المرأة في هذا الموقع. وسر (تجاهل) القرآن للمرأة في موقعها العام - وهو الأمر الذي كان يضايق بعض النساء المسلمات في المجتمع الإسلامي لعدم إدراك سره - هو أن القرآن الكريم كان يتحدث عن دور (الإنسان) في هذا الموقع العام، الأمر الذي ينفي الحاجة مبدئياً إلى تخصيص الحديث بالمرأة لأن الحديث عن الدور العام للإنسان يشمل - بداهة - الرجل والمرأة ومع ذلك، فقد كان القرآن يخرج عن هذه القاعدة ويبرز مساهمة المرأة في هذا الموقع العام..

يبقى الدور الخاص للمرأة، وينبثق هذا الدور من إحدى مقتضيات التخطيط الرباني لمسيرة التكامل البشري، وأعني بها مسألة إدامة النسل، ذلك أن هذه

---

١ – الحجرات: ١٣.

٢ – النساء: ١.

٣ – غافر: ٤٠.

المسيرة - كانت في علم الله - ستأخذ وقتاً طويلاً، حتى تصل إلى درجات كمالها القصوى، وهذا يعني أن على الإنسانية أن تأخذ وقتها الكافي، وهذا لا يعني إطالة عمر كل إنسان على حدة، مئات بل ربما آلاف السنين بل يعني إدامة عمر البشرية نفسها، وذلك عن طريق تعدد أجيالها، بحيث تكون أجيال البشرية المتلاحقة (حلقات) في عمر الإنسانية، ومن هنا - بالضبط - نشأت الحاجة إلى التوالد والتناسل بين الرجل والمرأة... ومن هنا نشأت نواة المجتمع البشري[1].

مواكبة حركة الرسالات

وعلى هذا الأساس جعل المشروع الإلهي للمرأة دور المشاركة الكاملة، بالإرادة الحرة، للرجل على أساس قاعدة التكامل والمساواة في القيمة الإنسانية، وتقسيم العمل الحضاري، من أجل أهداف هذا المشروع وغاياته.

فمشاركة المرأة الكاملة للرجل في المشروع الحضاري، تعود إلى فجر التاريخ البشري، إلى المرحلة الأولى منه، وهي مرحلة الحضانة، حيث كانت (حواء) هي الشريك الكامل والوحيد للرجل (آدم) في المشروع الرباني، حيث ظهرت المرأة إلى جانب الرجل منذ اللحظات الأولى لظهوره هو على سطح هذا الكوكب، وكانت المرأة تتلقى الإرشادات الإلهية، على قدم المساواة مع الرجل: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة﴾[2].

وظلت المرأة تواكب حركة الرسالات الإلهية، كما تواكب حركة التاريخ البشري، لأنها جزء منها، وهكذا يعرض علينا القرآن قصة أم موسى وأخته، و

---

١ - محمد عبد الجبار: ((موقع المرأة ودورها في المشروع الحضاري الإسلامي))، مجلة المنطلق (بيروت)، ع ٦٠، ربيع الثاني ١٤١٠هـ - تشرين الثاني، ١٩٨٩، ص ١٩ وما بعدها.

٢ - البقرة: ٣٥.

مريم بنت عمران، وابنتي شعيب، وزوجتي إبراهيم، وبنات لوط وامرأته، وزوجة فرعون ، وغيرهن من النساء اللواتي ورد ذكرهن في القرآن الكريم، ما يكفي لإعطاء الفكرة بأن المرأة ليست خارج المشروع أبداً[1] .

هذه الحقيقة تتضح لمن يتصفّح كتاب الله الكريم، ويتدبر آياته. وإذا ما عمدنا الى لغة الاحصاء فسنجد أن حوّاء تحتل حيّزاً مهماً في المشروع الإلهي، وإليك أهم المفردات الخاصة بدنيا المرأة الواردة في القرآن الكريم:

المفردة	عدد المرات	المفردة	عدد المرات	المفردة	عدد المرات
ابنة	١	الزواج والتزويج	٨١	الموؤدة	١
إبنتيّ	١	الصابرات	١	مسافحات	١
بنات	١٧	الصائمات	١	محصنات	٨
أجورهن	٦	صاحبة	٤	أحصنت	٢
إناث	٦	الصادقات	١	تحصّناً	١
أنثى	١٨	صدّيقة	١	مسلمات	٢
أنثيين	٦	المتصدقات	١	مشركة	٢
إماء	١	الصالحات	١	مشركات	٣
أمَة	١	الزانية	٣	منافقات	٥
امرأة	٢٤	فتاة	٢	نساء	٥٧
امرأتان	٢	فتياتكم	٢	نسوة	٢
حافظات	٢	قانتات	١	نشوز	٢
خاشعات	١	مؤمنة	٦		
الذاكرات	١	المؤمنات	٢٢		

١ – موقع المرأة ودورها ..، م . س، ص ٤٠.

الشجرة المنوعة.. والخطيئة

هكذا نفهم شراكة المرأة للرجل في كل خطواته وآماله وآلامه، إنجازاته وإخفاقاته، حسناته، وسيئاته، ومن الخطأ أن نحمل - أحياناً - أحد طرفي المعادلة وزراً مشتركاً دون الآخر، وهذا ما يتجلى في قصة الشجرة الممنوعة التي أكل منها أبوانا - آدم وحواء - فكانت سبباً في طردهما من الجنة؛ إذ شاعت الفكرة القائلة بأن ذلك ما كان له أن يتم لولا (خطيئة) حواء، وهي فكرة مغلوطة فحواء لا تتحمل وحدها جريرة تلك الخطيئة، وإنما كانت مشتركة - كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك صراحة - وقد وردت قصة الشجرة الممنوعة، في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وهي:

- ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾[1].

- ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُري عنهما من سوآتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾[2].

- ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى • فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى..﴾[3].

وليس في هذه الآيات إشارة إلى ابتداء حواء بالإغراء، أو بالكيد - على ما

---

١ - البقرة: ٣٥ - ٣٦.

٢ - الأعراف: ١٩ - ٢٠.

٣ - طه: ١٢٠ - ١٢١.

جاء في سورة يوسف - ولكن بعض المفسرين ذكر ذلك في شرح الآيات معتمداً على أقوال حفاظ التوراة من بني إسرائيل الذين دخلوا في الإسلام[1].

وهذا لا يعني أننا نريد تبرئة ساحة أمنا الأولى حواء، فالذي يبدو من ظاهر الآيات أن الطرفين كانا ضالعين في الخطيئة الأولى..وقد أشار إلى ذلك العلامة محمد حسين فضل الله بقوله: إن الله أباح لآدم وحواء أن يسكنا الجنة، ويستمتعا بكل ما فيها من لذائذ من دون حرج، ولا تحديد، فلهما أن يأكلا من كل أشجار الجنة حيث يشاءان ولكنه منعهما عن شجرة واحدة، كشرط لبقائهما في الجنة فيما يوحيه جو الآيات.

كانت أول تجربة لهما في الوجود..وانسجامهما مع التجربة في بساطة وعفوية، وكان الشيطان لهما بالمرصاد .. وسقطا أمام أول تجربة. ونجح إبليس في التحدي الأول للإنسان؛ فأهبطه من عليائه وأسقطه من مكانته .. لئلا يبقى الساقط الوحيد في عملية التمرد على الله. ولم يترك الله سبحانه لإبليس أن يجني ثمرة انتصاره، فأوحى لآدم بالطريقة المثلى التي يستطيع بها أن يتراجع عن خطأه، لتكون أساساً ثابتاً في علاقته بالله في الأحوال التي يشعر معها بالحاجة إلى اللقاء به، وعاد كما كان إنساناً يسبح في أجواء عفو الله ورحمته ورضوانه .. ليمارس دوره الجديد في الخلافة عن الله من موقع علاقة المخلوق التائب، بخالقه الرحيم الغفور[2].

وتتضح عملية المشاركة في تلك الخطيئة، من خلال المدلولات اللفظية التالية : «فأزلهما الشيطان»، « فأخرجهما مما كانا فيه»، «قلنا اهبطوا منها جميعاً»، «ربنا ظلمنا أنفسنا» وهذا يعني أن الخطيئة لم تكن حصة «آدم» وحده أو «حواء» وحدها، وإنما هي خطيئتهما معاً التي أعلنا توبتهما وندمهما بسببها.

---

١ – عباس محمود العقاد: «المرأة في القرآن»، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٢٧.

٢ – محمد حسين فضل الله «من وحي القرآن»، بيروت ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ج ١، ص ١٨١ – ١٨٣.

كافرات.. ومؤمنات

ولئن فجع آدم بجريرة ولده قابيل حينما قتل أخاه فإن الأب الثاني للبشرية «نوحا» قد ابتلي بابنه وزوجته في آن، وذلك في قصة الطوفان المشهورة: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين • قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[1].

والذي ينشده القرآن من وراء ذلك توجيه الإنسان إلى أن أعماله الصالحة هي المعول عليها في نيل السعادة في الآخرة، وأنه ليس من شفاعة للكافرين. وهذا ما أكده القرآن أيضاً:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[2].

ففي هلاك امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفرهما وانحرافهما عن جادة الحق؛ عظة قرآنية بليغة هي : أن القرابة مهما اشتدت لا يمكن أن تغني الإنسان شيئاً؛ إذا كان سيئ العمل[3].

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين • ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾[4].

---

١ – هود : ٤٥ – ٤٦.

٢ – التحريم : ١٠.

٣ – عفيف عبد الفتاح طباره «مع الأنبياء في القرآن الكريم»، بيروت، ط ١٧، ١٩٨٩. ص ٨١

٤ – التحريم : ١١ – ١٢.

والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، إنها كانت خيانة في الدعوة، وليست خيانة الفاحشة. امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه، وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنه مع ضيوفه!

والمأثور كذلك عن امرأة فرعون، إنها كانت مؤمنة في قصره، ولعلها كانت آسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى.. ولا يعنينا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فرعون. فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص، والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة.. وما يراد إبرازه هنا، أن ما يقال لأزواج النبي صلى الله عليه وآله، وأزواج المؤمنين كذلك: إن عليهن أنفسهن بعد كل شيء، فهن مسؤولات عن ذواتهن ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين!

وهاهي ذي امرأة نوح، وكذلك امرأة لوط: ﴿كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾.. «فخانتاهما».. ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ .. ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾.. فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر .. وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء!

وهاهي ذي امرأة فرعون، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه.. في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة من ربها أن يبني، لها بيتا في الجنة.. وتبرأت من صلتها بفرعون، فسألت ربها النجاة منه.. وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء.. وهي الصق الناس به: ﴿ ونجني من القوم الظالمين﴾..

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء عن عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره، فقد كانت امرأة أعظم ملوك الأرض يومئذ.. في قصر فرعون.. أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي.. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان.. ولم تعرض عن هذا فحسب، بل اعتبرته شراً ودنساً، وبلاء تستعيذ بالله منه، لتنفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه!

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية.. وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشد شعوراً وحساسية بوطأة هموم المجتمع وتصوراته.. ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع.. وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي، في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء - وحدها - في خضم هذا الكفر الطاغي.

وهي نموذج عال، في التجرد لله من كل هذه المؤثرات، وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، كل هذه الهواتف، ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد، الذي تردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى .. ﴿ومريم ابنة عمران﴾.. إنها كانت مثلاً للتجرد لله، منذ نشأتها التي قصها الله في مكان أخر، ويذكر هنا تطهرها: ﴿التي أحصنت فرجها﴾.. فيبرئها مما رمتها به تهم اليهود الفاجرة! ﴿فنفخنا من روحنا﴾ ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام. كما هو مفصل في ﴿سورة مريم﴾.

وإفراد امرأة فرعون بالذكر - هنا - مع مريم ابنة عمران؛ يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر، بسبب ملابسات حياتها التي أشرنا إليها. والاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله مثلاً لأزواج النبي - صلى الله عليه وآله - بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه هذه الآيات .. ويضربهما للمؤمنات من بعد كل جيل[1] ..

ويطول بنا المقام.. لو تطرقنا إلى الحديث إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿ع﴾ و زوجتيه هاجر، وسارة.. ونبي الله يوسف ﴿ع﴾ وزليخا.. ونبي الله سليمان ﴿ع﴾ وبلقيس.. وقارون ونهايته على يد إحدى بغايا بني إسرائيل..الخ.

---

١ - سيد قطب «في ظلال القرآن»، دار الشروق، ط ١٠، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ج ٦، ص ٣٦٢١.

المرأة في الأمم المتمدنة

كان وضع المرأة قبل الإسلام لا يعدو كونها سلعة، وتتفق في هذه الحال الأمم المتمدنة وغير المتمدنة، مع فارق نسبي لا يغير من جوهر الأمر شيئاً. فقد كانت حياة النساء في الأمم والقبائل الوحشية بالنسبة إلى حياة الرجال، كحياة الحيوانات الأهلية من الأنعام وغيرها بالنسبة إلى حياة الإنسان... فليس للمرأة من حقوق الحياة إلاّ ما رآه الرجل المالك لها.. كذلك كانت حياة الإنسان عند الرجال في هذه الأمم والقبائل حياة تبعية، وكانت النساء عندهم مخلوقات «لأجل الرجل». وكان الرجل يبتاع المرأة ممن يشاء وله أن يهبها لغيره، وكان له أن يقرضها لمن يستقرضها وكان له أن يقتلها، ويرتزق بلحمها كالبهيمة، وخاصة أيام المجاعة أوفي المآدب[1].

أما بالنسبة للأمم المتمدنة، فقد كانت المرأة عندهم تفتقد الاستقلال والحرية، سواء في أرادتها أو في أعمالها، وكانت تحت الولاية والقيمومة، ولا تنجز شيئاً بنفسها، ولم يكن لها الحق في الشؤون الاجتماعية، من حكومة، أو قضاء، أو غيرهما[2].

وهذه الحضارة الإغريقية تعتبر المرأة أكبر منشأ للأزمة والانهيار، وتشبهها بالشجرة المسمومة.. أما الحضارة الصينية، فتصف المرأة بالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة والمال، وكان بإمكان الرجل دائماً، ومتى شاء، أن يسلب شخصية زوجته ويبيعها كالجارية، وعندما تترمل المرأة تصبح جزءً من الثروة المتعلقة بعائلة زوجها، ولم يكن لها أي حق في التزوج مرة ثانية، ومع هذا كله كانت كالرقيق ليس لها حق التصرف بنفسها. وكان للزوج حق بدفنها وهي حية! وحتى سنة ١٩٣٧ كان يوجد في الصين حوالي ثلاثة ملايين جارية!

---

١ – محمد حسين الطباطبائي «تفسير الميزان»، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م، ج ٢، ص ٢٦١ وما بعدها.

٢ – م. ن.

أما الحضارة الهندية، فتذهب إلى أن المرأة ليست إلاّ تجسيد للأرواح الخبيثة الشريرة، التي ولدت على هيئة امرأة. وفي نظر البوذيين، أن جميع النساء كالمصيدة، وضعن لإغواء الرجال وفتنتهم، وأن هذه القوة تجسدت بأخطر الأشكال في أصل المرأة، بحيث يغوين الرجال، وهذا الإغواء هو الذي يعمي أفكار العالم[1].

وفي نصوص الديانات الكبرى

والغريب أن هذه النظرة الدونية للمرأة، لم تكن مقتصرة على الحضارات الجاهلية فحسب، وإنما انسحبت إلى النصوص الدينية المحرفة، كما حصل للتوراة والإنجيل، فطبقا للنصوص العبرية، في الكتب الدينية اليهودية، نلاحظ أن المرأة أصبحت ملعونة لعناً أبدياً من قبل الآلهة، لأنهم يقولون: «لقد بدأ الذنب من طرف المرأة، وأن المرأة هي التي توجب موتنا» (كما لو تمثلت شخصية عزرائيل في جسد المرأة). واعتماداً على هذه العقيدة؛ نرى أن اليهود يعتبرون المرأة مسؤولة عما يفعله الرجل من أعمال لا أخلاقية! ومن هنا نرى أن مقام المرأة في المجتمع اليهودي، قد تنزل تنزلاً بحيث لا يعتبرون لها أي اعتبار وشأن، كما يعتقدون أيضا أن المرأة كالحيوان في البيت، وكذلك عندما تبتلى المرأة بمرض من الأمراض النسائية، يجب عليها أن تقعد في البيت كالمسجونة لا يسمح لها بلمس أي صحن، أو أي وعاء لكي لا يتنجس!

النصارى يعتمدون - بدورهم - اعتماداً كاملاً على أصل الذنب، ويعتبرون المرأة هي المسؤولة عن الذنب والجريمة. وقد جاء في الكتاب المقدس: «فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت»[2].

---

١ - صادق الكميلي «شخصية المرأة في الإسلام»، بيروت، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م، ص ٢٧ وما بعدها.

٢ - م. ن: ٣٦ - ٣٧.

وتذهب النظرة المسيحية، إلى أن التي ارتكبت الجريمة في بادئ الأمر هي حواء وسببت سقوط آدم وانهياره، وعلى هذا فإنها - بزعمهم - هي المسؤولة عن ذنوب البشر، واضطر الإله إلى أن يبعث «ولده» الفريد باسم عيسى المسيح حتى يُصلب ويغسل ذنوب البشرية بدمه.

و يتضح لكل متتبع مدى المهانة التي كانت تلحق بالمرأة. إنها مذنوبة، بل وليست من الجنس البشري. وهذا ترتولين المقدس يوجه خطابه للنساء قائلاً: «هل تعلمن بأن كل واحدة منكن حواء بالذات!؟.. يستمر لحد اليوم توبيخ الله لكن ولجنسكن عامة، وعلى هذا يجب أن يبقى في نسلكن الشرر والحقد، أنتن أيتها النساء مدخل للشيطان، أنتن اللواتي قطفتن من ثمار تلك الشجرة الممنوعة، أنتن اللواتي حطمتن القانون الرباني، أنتن اللواتي خدعتن آدم قبل أن يبدأ الشيطان حملاته! أنتن اللواتي أضعتن سيماء الله بسهولة كاملة من طبيعة البشر! إن شقاء الموت يرجع لعملكن القبيح، وحتى موت ابن الله يرجع لعملكن الشنيع».

وفيما كان سدنة الكنيسة المسيحية يحترزون عن المرأة احترازاً كاملاً، وينعتونها بأنها الشيطان.. كانت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية تنكر وجود أي روح في جسد المرأة. وقد صرح أحد القساوسة الكبار ذات مرة، في مجلس ماكون (Macon) بأن: ««المرأة لا تتعلق ولا ترتبط بالنوع البشري»».

المرأة كانت تعتبر عنصراً قذراً، وهذا العمل أدى بالكنيسة إلى إصدار قرار ممنوعية الزواج الذي هو من القوانين الاجتماعية المهمة[1].

المرأة في جاهلية العرب

كيف كان التعامل مع المرأة في ظل الجاهلية الأولى؟ إن القرآن الكريم سلط الأضواء الكاشفة في أكثر من موطن، على نمطية التعامل مع المرأة.. مما

---

١ — م . ن ، وكذلك تفسير الميزان، ٢ : ٢٦٣.

يكشف أن الجاهلية العربية، كما هي سائر الجاهليات من حولهم، تتعامل المرأة معاملة سيئة.. لا يُعترف لها بحقوقها الإنسانية، فتنزل بها عن منزلة الرجل نزولاً شنيعاً، يجعلها أشبه بالسلعة منها بالإنسان، ذلك في الوقت الذي تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية، وتطلقها فتنة للنفوس، وإثارة للغرائز، ومادة للتشهي والغزل العاري المكشوف، فجاء الإسلام ليرفع عنها كل هذا الحيف، ويردها إلى مكانها الطبيعي في كيان الأسرة، والى دورها الجدي في نظام الجماعة البشرية المكان المتفق مع المبدأ العام الذي قرره قوله تعالى: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾[1] ثم ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية في الحياة الزوجية، من المستوى الحيواني الهابط، إلى المستوى الإنساني الرفيع، ويظللها بالاحترام والمودة والتعاطف والتجمّل، وليوثق الروابط والوشائج، فلا تنقطع عند الصدمة الأولى، وعند الانفعال الأول ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً • وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً • ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾[2].

كان بعضهم في الجاهلية العربية - قبل أن ينتشل الإسلام العرب من هذه الوهدة ويرفعهم إلى مستواه الكريم - إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامراته، وإن شاءوا عضلوها وأمسكوها في البيت، دون تزويج، حتى تفتدي نفسها بشيء.

وكان بعضهم إذا توفي عن المرأة زوجها، جاء وليه فألقى عليها ثوبه، فمنعها

---

١ — النساء : ١.

٢ — النساء : ١٩ — ٢٢.

من الناس، وحازها كما يحوز السلب والغنيمة، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، أو تفتدي نفسها منه بمال! فأما إذا فاتته فانطلقت إلى بيت أهلها قبل أن يدركها فيلقي عليها ثوبه، فقد نجحت وتحررت وحمت نفسها منه.

وكان بعضهم يطلق المرأة، ويشترط عليها إلاّ تنكح إلاّ من أراد، حتى تفتدي نفسها منه، بما كان أعطاها. كله أو بعضه! وكان بعضهم إذا مات الرجل، حبسوا امرأته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها!

وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها، فيحبسها عن الزواج، حتى يكبر ابنه الصغير ليتزوجها، ويأخذ مالها!

وهكذا..ما لا يتفق مع النظرة الكريمة التي ينظر بها الإسلام لشقّي النفس الواحدة، ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء .. ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار .. أو علاقة بهائم[1].

في ظل الإسلام

من ذلك الدرك الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالي الكريم، اللائق بكرامة بني آدم، الذين أكرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين. فمن فكرة الإسلام عن الإنسان ومن نظرته إلى الحياة الإنسانية، كان ذلك الارتفاع الذي لم تعرفه البشرية الاّ من هذا المصدر الكريم[2].

وحول هذه النقطة يقول العلامة محمد حسين الطباطبائي: «وأما الإسلام - أعني الدين الحنيف النازل به القرآن - فإنه أبدع في حقها أمراً ما كانت تعرفه

---

١ - في ظلال القرآن، م . س، ١ : ٦٠٤ - ٦٠٥.

٢ - م . ن ، ١ : ٦٠٥.

الدنيا، منذ قطن بها قاطنوها وخالفهم جميعاً في بناء بنية فطرية عليها، كانت الدنيا هدمتها من أول يوم وأعفت على أثارها، وألغى ما كانت تعتقده الدنيا في هويتها اعتقاداً وما كانت تسير فيها سيرتها عملاً».

أما هويتها: فإنه بيّن أن المرأة كالرجل إنسان، وأن كل إنسان ذكراً أو أنثى، يشترك في مادته وعنصره إنسانان ذكر وأنثى ولا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾[2]، فصرح أن السعي غير خائب والعمل غير مضيع عند الله، وعلل ذلك بقوله: (بعضكم من بعض) فعبر صريحاً بما هو نتيجة قوله في الآية السابقة : (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى..) وهو أن الرجل والمرأة جميعاً من نوع واحد من غير فرق في الأصل والسنخ.

... وفي معنى الآية السابقة وأوضح منها قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾[5].

---

١ – الحجرات : ١٣.

٢ – آل عمران : ١٩٥.

٣ – النحل: ٩٧.

٤ – غافر: ٤٠.

٥ – النساء: ١٢٤.

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الاستهانة بشأن البنات بمثل قوله وهو من أبلغ الذم: ﴿وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾[١]، ولم يكن تواريهم إلاّ لكون ولادتها عاراً على المولود له، وعمدة ذلك أنهم كانوا يتصورون أنها ستكبر فتصير لعبة غيرها يتمتع بها، وذلك نوع من الغلبة من الزوج عليها في أمر مستهجن، فيعود عاره على بيتها وأبيها، ولذلك كانوا يئدون البنات.. وقد بالغ الله سبحانه في التشديد عليه حيث قال: ﴿وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت﴾[٢].

وقد بقي من هذه الخرافات بقايا عند المسلمين ورثوها من أسلافهم، ولم يغسل رينها من قلوبهم المربون، فتراهم يعدون الزنا عاراً لازماً على المرأة وبيتها - وإن تابت - دون الزاني - وإن أصر-!! مع أن الإسلام قد جمع العار والقبح كله في المعصية والزاني والزانية سواء فيها[٣].

الوزن الاجتماعي

وأما وزنها الاجتماعي، فإن الإسلام ساوى بينها وبين الرجل من حيث تدبير شؤون الحياة، بالإدارة والعمل فإنهما متساويان من حيث تعلق الإرادة بما تحتاج إليه البنية الإنسانية في الأكل والشرب وغيرهما من لوازم البقاء، وقد قال تعالى :﴿ بعضكم من بعض﴾، فلها أن تستقل بالإرادة، ولها أن تستقل بالعمل، وتمتلك نتاجها كما للرجل ذلك، من غير فرق: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾. فهما سواء فيما يراه الإسلام، ويحقه القرآن والله يحق بكلماته غير أنه قرر فيها خصلتين ميزها بهما الصنع الإلهي:

---

١ – النحل: ٥٨ – ٥٩.

٢ – التكوير: ٨ – ٩.

٣ – راجع تفسير الميزان، ٢ : ٢٦٩ – ٢٧١.

أحداهما: أنها بمنزلة الحرث في تكون النوع ونمائه، فعليها يعتمد النوع في بقائه فتختص من الأحكام بمثل ما يختص به الحرث، وتمتاز بذلك عن الرجل.

ثانيهما: أن وجودها مبنى على لطافة البنية ورقة الشعور، ولذلك أيضاً تأثير في أحوالها والوظائف الاجتماعية المحولة إليها[1].

إنه - إذن - الدور التكاملي في الحياة الإنسانية وتتصاعد القضية في إيحاءاتها الاجتماعية لتؤكد على الاندماج الإنساني الإسلامي في الولاية، بحيث يكون بعضهم أولياء بعض في العمل والنصرة، والتأييد والتعاون، في كل المجالات المشتركة، وذلك هو قوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم • وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[2].

ويرسم قوله تعالى صورة المجتمع المؤمن المتكامل، المتمثل في وقوف المؤمنين والمؤمنات معاً، في علاقة الولاية المنفتحة على المسؤولية، في مواجهة الانحراف الاجتماعي والسياسي والعقيدي، المتمثل في إهمال المعروف وتشجيع المنكر ليتحركوا جميعاً في وحدة إيمانية شاملة، في إعادة الحياة إلى خط المعروف، وإبعادها عن خط المنكر، وذلك بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الله ورسوله في كل شيء. مما تتضمنه رسالة الله في حركة العقيدة، في مفاهيمها وامتداد الشريعة في أحكامها. وذلك هو وحده الذي يمنحهم رحمة الله، ويدخلهم جنته الخالدة في نعيمها، ويرفعهم إلى الدرجة الكبرى التي تتقدم

---

١ — م . ن .

٢ — التوبة: ٧١ — ٧٢.

على ذلك كله، وهي رضوان الله الذي هو غاية كل مؤمن ومؤمنة من وجوده في الحياة[1].

الأحكام المشتركة والمختصة

وأما الأحكام المشتركة والمختصة: فهي تشارك الرجل في الأحكام العبادية والحقوق الاجتماعية. فلها أن تستقل فيما يستقل به الرجل. من غير فرق في إرث ولا كسب أو معاملة أو تعليم وتعلم أو اقتناء حق أو دفاع عن حق وغير ذلك إلاّ في موارد تقتضي طباعها غير ماذكرنا.

وعمدة هذه الموارد: أنها لا تتولى الحكومة والقضاء، ولا تتولى القتال بمعنى المقارعة، لا مطلق الحضور والإعانة على الأمر، كمداواة الجرحى مثلاً، ولها نصف سهم الرجل في الإرث، وعليها: الحجاب وستر مواضع الزينة وعليها: أن تطيع زوجها فيما يرجع إلى التمتع منها، وتدرك ما فاتها بأن نفقتها في الحياة على الرجل «الأب أو الزوج»، وأن عليه أن يدافع عنها بكل ما يستطيعه، وأن لها حق تربية الولد وحضانته.

وقد سهل الله لها أنها محمية النفس والعرض، حتى عن سوء الذكر، وأن العبادة موضوعة عنها أيام عادتها ونفاسها، وأنها لازمة الإرفاق في جميع الأحوال[2].

علامات استفهام

وتأسيساً على ما تقدم، فإن ثمة تساؤلاً يطرح نفسه هو: هل في القرآن ما

---

١ – العلامة محمد حسين فضل الله «تأملات إسلامية حول المرأة»، دار الكتاب الإسلامي – قم (د.ت)، ص ٢٣.

٢ – تفسير الميزان، ٢ : ٢٧٢.

ينافي النظرة إلى العناصر المشتركة في شخصية المرأة والرجل، من حيث عناصر الشخصية الإنسانية في أصالتها؟

في الإجابة عن هذا السؤال، الذي كفانا مؤونتها السيد محمد حسين فضل الله، تثار عدة نقاط هي:

• النقطة الأولى: التشريعات المتنوعة التي توحي بأن المرأة نصف الرجل، ويبدو ذلك في الإرث كما جاء في قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾[١]، وفي أداء الشهادة كما جاء في قوله تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى..﴾[٢]، وقد نجد في النصوص الدينية استيحاء نقصان حظوظ النساء من الآية الأولى، ونقصان عقولهن من الآية الثانية. كما قد نلتقي في هذا السياق، بالتعبير الذي يشير إلى نقصان إيمانهن، من خلال قعودهن عن الصلاة والصيام في أيام الحيض؛ لتحريم ذلك عليهن.

• النقطة الثانية: قوامة الرجل على المرأة، التي قد توحي بأن مستواها دون مستواه، وذلك من خلال ما نستفيده من الآية الكريمة ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم..﴾[٣]، ومن خلال ما صرحت به الآية الأخرى ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة﴾[٤]، فهناك أفضلية للرجل على المرأة، الأمر الذي يجعل درجة الرجل في التقويم، تعلو على درجة المرأة.

---

١ – النساء: ١١.

٢ – البقرة: ٢٨٢.

٣ – النساء: ٣٤.

٤ – البقرة: ٢٢٨.

• النقطة الثالثة: قوله تعالى ﴿أو من ينشّأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾[1]، فقد نستفيد من هذه الآية أن النظرة التي ينظر بها القرآن إلى المرأة، تتمثل بكونها إنساناً معداً للزينة في أجواء الحلي، من أجل شهوة الرجل، وخاضعاً لعناصر الضعف الكامنة في شخصيته الأمر الذي يجعله غير قادر على الدخول بقوة في ساحة الصراع في الحياة.

ويمضي العلامة فضل الله في أبداء الملاحظات التالية المتعلقة بهذه النقاط قائلاً: أما النقطة الأولى: فإن التشريعات الثلاثة لا تدل على الدونية في إنسانية المرأة من حيث المستوى، بل كل ما تدل عليه، هو طبيعة توزيع الثروة تبعاً للمستويات التي يتحملها الورثة، في الوضع الاقتصادي في التشريع الإسلامي، الذي حمل الرجل مسؤولية الإنفاق على البيت الزوجي، بالإضافة إلى تقديمه المهر، وهو ما لا يحمله للمرأة، الأمر الذي اقتضى نوعاً من التوازن في تحديد حصة الرجل.

هذا ما نلاحظه في مفردات الحصص، التي قد تعلو فيها حصة الأبناء على الآباء، وهو لا يفيد تفضيل الأبناء على الآباء في القيمة الإنسانية في التشريع.

أما مسألة أداء الشهادة: فقد عللت الآية بالاحتياط للعدالة. فقد تدفع النزعة العاطفية التي قد تكون قوتها في المرأة أكثر من قوتها لدى الرجل؛ إلى الانحراف عن الحق في أداء الشهادة.

وقد أراد الإسلام أن يكون الموضوع موضع تشاور وتذكير من إحداهما للأخرى، ليستقيم الحق في دائرة التوازن في الوعي للمسألة، ولعل في تذكير المرأة للمرأة إيحاء بأن المرأة الأخرى تمتلك أمر التركيز للشهادة، من خلال

---

١ – الزخرف: ١٨.

اتزان النظرة، بحيث لا يكون العنصر الأنثوي سلبياً بشكل مطلق، بل يحمل إيجابية التسديد للحق، تماماً كما هو ضم الرجل إلى الرجل في الشهادة. في البينة التي لابد فيها من رجلين عادلين، وهذا لا يفيد النقصان في الرجل الواحد في مقام الشهادة، من حيث طبيعته العقلية أو الإنسانية.

أما مسألة نقصان الإيمان: فإننا لا نتصور الأمر تعبيراً وارداً على نهج التعبير الحقيقي في دلالة الألفاظ على معانيها، لأن المسألة تتمثل في أن قعود المرأة عن الصلاة والصيام يمثل تخفيفاً عنها، وانسجاماً مع الحالة الجسدية المضادة للطهارة التي تحتاجها العبادة في روحيتها تماماً، كما هو القصر في الصلاة، والصوم في السفر، تخفيفاً عن المسافر، واستجابة لحاجة العبادة إلى نوع من الاستقرار المفقود في السفر.

وأما النقطة الثانية: فإنها تمثل نوعاً من أنواع تنظيم الحياة الزوجية التي جعلت الرجل قائماً على شؤون المرأة من خلال مسؤوليته المالية عن البيت الزوجي. ومن خلال بعض الخصائص الذاتية التي يتميز بها، وهي التي تجعل قدرته على مواجهة الموقف، أكثر من قدرة المرأة في خصوصيات الحياة الزوجية أو الحاجات الذاتية الخاصة. وليس من الضروري أن تكون المسألة اختلافاً في مستوى المرأة، بالقياس إلى إنسانية الرجل، من حيث العقل والحكمة والبصيرة ووعي الأمور، ومن خلال العناصر الطبيعية للشخصية في إمكانياتها الخاصة...

وأما النقطة الثالثة: فإنها لا توحي بالضعف من خلال الطبيعة، بل كل ما هناك، هو أن أسلوباً معيناً في التنشئة التي قد تترك تأثيراتها السلبية، على طريقة

نمو الشخصية في المرأة، الأمر الذي يجعل لاستبدال أسلوب التربية، بأسلوب آخر تأثيراً آخر، قد يكون إيجابياً في طريقة تطور القوة الشخصية في حركة الوجود الإنساني للمرأة[1].

هذه إثارات ووقفات سريعة من حديث المرأة في القرآن، ذلك الكتاب الذي أعاد للمرأة اعتبارها وكرامتها وآدميتها، فما أحوج بنات حواء إلى التزام هدي القرآن، والتمسك بتعاليمه.

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، «تفسير الميزان»، ج ٢، ص: ٢٧٢، بشيء من الاختصار. يراجع أيضاً، كتاب «تأملات إسلامية حول المرأة»، ص ١٤- ١٨.

من آراء الشيخ الغزالي في المرأة

في التاسع عشر من شوال ١٤١٦هـ الموافق للتاسع من آذار (مارس) ١٩٩٦م توفي المفكر الإسلامي المعروف الشيخ محمد الغزالي إثر إصابته بنوبة قلبية أثناء إلقائه كلمة في ندوة حول «الإسلام والغرب».

يعتبر الراحل الكبير أحد شيوخ الحركة الإسلامية المعاصرة، كما وأنه يمثل خطاً فكرياً يتسم بالأصالة والوضوح.. والجرأة .. وطالما طرح قضايا أثارت حفيظة أعداء الإسلام. وتحفّظ آخرين محسوبين على الصف المسلم، لهذا كان يقاتل على جبهتين، ومن هنا تأتي أهمية الوقوف على بعض آرائه، إضافة إلى ما يستدعي الوفاء لهذا العلامة الجليل الذي قضى أكثر من نصف قرن في سبيل إعلاء كلمة الإسلام العظيم.

ولما كانت العوالم الفكرية للفقيد الراحل مترامية الأطراف، ومن الصعوبة استيعابها في مقال عابر، لذا سنكتفي باستعراض شيء من أفكاره وآرائه حول: المرأة، والأسرة، والمجتمع..

■ ومضات من سيرته الذاتية

قبل المضي، في هذا الاتجاه، لا بد من الوقوف قليلاً أمام ذكرى هذا الداعية الكبير؛ لنتعرف على بعض محطات حياته إن لم نقل ومضات من سيرته الذاتية:

ولد الشيخ محمد الغزالي في ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩١٧م. المصادف للخامس من ذي الحجة ١٣٣٥هـ بإحدى قرى محافظة البحيرة بمصر.

تلقّى تعليمه الأولي والثانوي، في معهد الإسكندرية الديني. والتحق بكلية أصول الدين بجامع الأزهر سنة (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) وكان من بين أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم، الشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد يوسف موسى، والشيخ محمد غلاب.

عُيّن سنة (١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م) إماماً وخطيباً لمسجد العتبة الخضراء في القاهرة. وترقّى في مناصب وزارة الأوقاف، فعيّن مستشاراً في المسجد، ثم واعظاً في الأزهر الشريف ثم وكيلاً لقسم المساجد، ومديراً للمساجد، ومديراً للتدريب، وفي سنة (١٣٩١هـ - ١٩٧١م) عيّن مديراً عاماً للدعوة والإرشاد، وفي نفس السنة انتُدب وكيلا لوزارة الأوقاف بمصر.

أعير أستاذاً بجامعة (أم القرى) بمكة المكرمة سنة (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) وعيّن سنة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) وكيلاً لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر، ثم عمل بجامعة قطر، كما عيّن رئيساً للمجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بقسطنطينية الجزائرية، إلى أن استقال في سنة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

رأس المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في القاهرة، أواخر سني حياته، وشارك في مؤتمرات إسلامية كثيرة، وزار معظم الدول العربية، والعديد من الدول الأفريقية والآسيوية والأوربية والأمريكية؛ للمشاركة في نشاطات العمل الإسلامي.. وقد قام بزيارات عديدة للجمهورية الإسلامية في إيران، وكان له حضور متميز في اللقاءات الفكرية، التي كان يُدعى لها من قبل القائمين على مؤتمرات الفكر الإسلامي.

كان الشيخ الغزالي من أوائل الأعضاء البارزين في (جماعة الأخوان

المسلمين) وكان مقرباً للشيخ حسن البنا، وفي أوائل الخمسينيات عمل في مجالات الحركة الإسلامية دون انتماء لجماعة من الجماعات، وبسبب مواقفه الشجاعة في الدفاع عن الحالة الإسلامية تعرّض للاعتقال مرات عديدة، أولاها لمدة سنة واحدة أيام الملك فؤاد، ثم فترة أخرى أيام الملك فاروق، ثم فترة ثالثة أيام جمال عبد الناصر، كما وأنه كان هدفاً لسهام العلمانيين أيام السادات ومبارك.

وللشيخ في مجال التأليف، دراسات متنوعة تنتشر بين الجماهير، وتصل مؤلفاته إلى الخمسين كتابا، ترجم بعضها إلى عدة لغات منها: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، الإسلام والمناهج الاشتراكية، الإسلام والاستبداد السياسي، الإسلام المفترى عليه، بين الشيوعية والرأسمالية، تأملات في الدين والحياة، خلق المسلم، عقيدة المسلم، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، فقه السيرة، في موكب الدعوة، كيف نفهم الإسلام، معركة المصحف، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، السُنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل.

ولخدماته الطويلة التي أسداها للإسلام؛ حظي الشيخ الراحل بتقدير الأوساط العلمية والثقافية واحترامها، كما حصل على وسام من الجزائر ووسام (تمغة امتياز) من باكستان في ١٩٩٠م.

المرأة المسلمة

للراحل الفقيد آراء قيمة في العديد من القضايا التي تطرق إليها، ومنها قضية المرأة. وهو في الوقت الذي كان يطرح فيه رأي الإسلام الصحيح، كان يقاتل، في هذه النقطة وغيرها، على أكثر من جبهة.

فهناك التقاليد التي عبر عنها بـ(الراكدة) والتي تريد من المرأة أن تكون

حبيسة البيت.. وهناك التقاليد الوافدة، والتي تستهدف أن تكون المرأة مشروع إثارة وفتنة!

وفي ضوء ذلك يؤكد الشيخ الغزالي (ره) إن المرأة إنسان كالرجل، وهي شقيقته أمام تعاليم الإسلام كلها.. وكانت المرأة محقورة الشأن عند العرب، توأد طفلة، وتزدرى كبيرة، وكان الأوربيون قديما يتساءلون عما إذا كان لها روح مثل الرجل؟ وكان في الهند من يحكم بموتها حرقا، عندما يمرض زوجها ويموت في مرضه فلا يجوز أن تبقى بعده! وأفلاطون في مدينته الفاضلة يرى شيوع المرأة بين الرجال!

حتى جاء الإسلام، فغيّر هذه الأوضاع والأفكار، وأخرج المرأة من البيت إلى المسجد وخمس مرات كل يوم، إذا كان ذلك لا ينقص من عملها لولدها وزوجها، وتقدير ذلك إليها..

شخصية المرأة ولدت مع مجيء الرسالة الإسلامية، وقد بلغ من مداراة النبي (ص) لزوجاته أن حرم على نفسه بعض المباحات أرضاء لهن، حتى نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك...﴾[1].

وما كان للمرأة هذا الامتداد في شخصيتها من قبل، وإن كان الأمر قد سار في اتجاه آخر، غلبة للتقاليد القديمة لا انسياقاً مع تعاليم الإسلام.

وللشيخ الغزالي موقف معروف من مخططات أعداء الإسلام لجر المرأة المسلمة إلى متاهات التحلل والرذيلة، تحت مسميات أثبتت جميعها حقيقة نواياها المغرضة.. ولكنه في الوقت نفسه يفرّق ما بين الغث والسمين، فيرى أن التجمل بالنسبة إلى المرأة هو المحافظة على تكوينها السليم، وتقويمها الحسن، وهو غير التبرج الذي يعنى استثارة الآخرين، ومحاولة فتنتهم!

---

١ – التحريم: ١.

الأسرة وأهميتها

والأسرة في الإسلام من آيات الله، قرن تكوينها بتكوين العالم أجمع. قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾[1].

ثم قال: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾[2].

وفي الفقه الإسلامي بحث موسع عن نظامها المادي، وعن رسالتها الأدبية، وهناك كلام عن عقد الزواج وتبادل الواجبات، وحضانة الأولاد، وأسلوب النفقة، وآداب المعاشرة، وطريقة حل العقد؛ إذ تعذر بقاؤه، وأنصبه المواريث... الخ.

وهناك كلام عن الآثار الروحية والخلقية المرتبطة بوجود الأسرة، وكيف أن الأسرة امتداد للنوع الإنساني، وللعقائد والعبادات والأخلاق التي أمر الإسلام بها وقام عليها.

وحماية للأسرة - يقول الراحل الكبير - حرّم الإسلام الاختلاط الحيواني المعروف في بيئات شتى، وحرم كل ما يخدش العرض والحياء، وقد قال لي صديق: إن كلمة «العرض» بمدلولها الشريف لا توجد لها ترجمة في اللغات الأخرى!.

ويتساءل الشيخ بحرارة: «وأنّى يوجد معناها في هذه المجتمعات التي تبيح أن يرقص الرجل مع امرأة أجنبية، يحتضنها ويخطر بها في الحلبة، وقد يكون زوجها الوغد حاضراً ينظر ولا يتحرّج، وقد يكون أبوها أو أخوها بين الحضور»!!

إن الأسرة المحاطة في ديننا بهالة من الشرف والقداسة، لا توجد في بلاد

---

١ – الروم:٢١.

٢ – الروم: ٢٢.

أخرى، وقد توجد على الورق فقط، والى حين، ثم عند البلوغ يكلف الفتى، أو تكلف الفتاة بشق الطريق وحدها لتكسب وتعيش.

المجتمع المسلم

والمجتمع في الإسلام أسرة كبيرة، تقوم على التعارف والتواد، والناس على صعيد الأرض سواسية، ولاؤهم لله لا لجنس ولا لتربة، أكرمهم عند الله اتقاهم.. أساس المعاملة: «ليس منا من لم يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

الافتخار بالنسب مردود، والامتياز والسبق لمن تقدمه كفايته، لا عراقته ولا جاهته. وتطويع الحياة لخدمة الدين عمل مندوب. وهو يحتم توجيه النشاط الفردي والجماعي لخدمة الرسالة العامة، وتحقيق غاياتها.. والمسلم منذ صلاة الفجر يتحرك في الموضع الذي اختاره القدر له ليعلي كلمة ربه، وإذا كان كفاح العقائد في هذه الأيام قد فرض تجنيداً إجبارياً على كل شيء فإن مناصرة الإسلام لن تشذّ عن هذه القاعدة.

ومن ثمّ فإن كل مسلك يجعل المجتمع الإسلامي أضعف من نظيره الشيوعي أو اليهودي أو الصليبي يُعد خيانة أو ارتدادا.. وكل تفريط مدني أو عسكري في خدمة الإسلام فهو عصيان لخوف العقبى. إن الكدح لله هنا يتجاوز المسجد ليتناول الحقل، والمصنع، والمرصد، والدكان، والديوان، والبر، والبحر وما يُكتب وما يُسمع، وقد يتناول خطرات النفوس، وأحلام النيام.

الإسلام رسالة توجب على معتنقيها، أن يجعلوا مجتمعهم أجدر بالحياة وأقدر على النجاح، وكل ما يعين على ذلك فهو دين، أو كما يقول علماء الأصول: ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب.

ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة، إذا كان أصحابه جهّالاً بالدنيا،

عجزة في الحياة، والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب وقارورة الصيدلي، ويصنعها الغوّاص في بحره، والطيّار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره، ويصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منه أداة لنصرة ربه وإعلاء كلمته.

وانه لفشل دفعنا ثمنه باهظاً، عندما خاب مسعانا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تُقال ومظاهر تُقام..!

رأيه في المرأة المسلمة المعاصرة

وفي خاتمة المطاف، نجد لزاما علينا، التذكير برأيه حول المرأة المسلمة المعاصرة، ودورها في مسيرة الصحوة الإسلامية، وفي جواب له حين سئل عن المرأة المسلمة في إيران قال: «لاشك إن النهضة النسائية هنا مشرّفة للإسلام، وأخذت طريقاً ليس فيه غلوٌّ الجامدين الذين لا عقل لهم، ممن يعتبرون المرأة خُلقت للمتعة، أو للحبس في البيت، أو لا دور لها في التربية، أو لا مكان لها في تنشأة الأجيال وتربيتها، وما شابه ذلك، مما قتل الأمة الإسلامية في أدوار تاريخها الطويل.

أما التيار الآخر، فهو تيار أخرج المرأة من البيت، وجعلها في الشارع، كما يقولون «سلخها من ثيابها جزّار، فهي فتنة متحركة تثير الغرائز وتبعثر الفتن هنا وهناك»، من غير شك إن المسلك الذي تم هنا في إيران، أخذ أفضل ما في الطرفين، عفاف المرأة ونشاطها الديني والحضاري والمعنوي حفظ لها، وهذا خير كثير.

المرأة إنسان كالرجل، وهي شقيقته أمام تعاليم الإسلام كلها وأنا شخصياً - يضيف الفقيد - أحارب ومن خلال كتبي، الوضعين: الإفراط والتفريط، حول

المرأة، حيث إن هناك من يحبس المرأة في البيت، وهناك من يطردها إلى الشارع، وكلاهما لا يعرف الإسلام.

المرأة في إيران تؤدي واجبها، كما فعلت في أوائل الإسلام، يوم كانت في المسجد، والمدرسة، والميدان، والجهاد، وفي إيران كذلك تقوم المرأة بكل مهمة تسند إليها.. ويكفي أنه تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدون أن تكون فتنة وأنها تلعب دوراً مهماً في استمرارية الثورة الإسلامية في إيران.

وأما موقفه من الثورة الإسلامية، وقياداتها الرسالية، فهو معروف لدى القاصي والداني، وقد دفع جراء ذلك الضريبة تلو الأخرى، وبرغم كل ذلك كان يصدح بالحق ويدافع عن إيران الإسلام، في كل الظروف.

وقد حاول أحد الصحفيين العلمانيين أن يجره إلى تصريح سلبي إزاء الثورة الإسلامية، فما كان من الفقيد الراحل إلاّ أن ينتفض إحقاقاً للحق، ومدافعاً عن حياض الإسلام، وداحضاً شبهات ذلك العلماني المتغرّب وأمثاله، إذ قال الشيخ ما نصه: «إن الحكم في إيران دخل حرباً لمدة عشر سنين تقريباً، خرج منها ولم يستدن قرشاً، فإيران ليست مدينة لأحد، وهذا في نظري عمل كبير، كما استطاع الحكم الإسلامي أن يهزم الاستبداد السياسي للشاه، وأن ينال منه، واستطاع أن يصل إلى حكم الفقيه، أي اختيار أفقه الناس ليكون حاكمه وهذا في نظري كسب كبير، كان أقرب إلى الناحية المدنية منه إلى ناحية أخرى، ولكن الدعاية ضد إيران ظلمت إيران إلى حد كبير».

بهذه الصلابة، وبهذه المبدئية كان يواجه الفقيد أعداء الإسلام، في شتى مواقع المنازلة، وسلاحه في ذلك كله كلمة صادقة، وإخلاص لا حدود له... تدعمهما رجاحة عقل، وحكمة فكر، ووعي رسالي، وتجربة حركية، تتمدد

على صفحات نصف قرن من المعاناة والجهاد، والمثابرة.. في الدفاع عن الإسلام، ودحض أباطيل خصومه، ومناوئيه.. فرحم الله الشيخ محمد الغزالي، وسلام عليه مع الخالدين.

أهم المراجع

١- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٢- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣- مجلة التوحيد (طهران)، ع ٢١، رجب ، شعبان ١٤٠٦هـ - آذار ، نيسان ١٩٨٦م، (مقابلة مع الشيخ الغزالي، ص ٣٦).

٤- صحيفة الحياة (لندن)، ١٩٩٢/٨/١٤.

٥- صحيفة كيهان العربي (طهران)، ملحق العدد ٣٦١٧، ٢٤ شوال ١٤١٦هـ - آذار ١٩٩٦م.

على هامش محاكمة نوال السعداوي

أثيرت في الآونة الأخيرة قضية الكاتبة المصرية نوال السعداوي والتي رفعت أمام القضاء بتهمة الردة على خلفية تصريحاتها في إحدى الصحف الأسبوعية المصرية، قالت فيها «إن بعض شعائر الحج إلى مكة من بقايا العصر الجاهلي».

هذه التصريحات وغيرها من المواقف المعهودة لنوال السعداوي، المعروفة باتجاهها اليساري ودعواتها التي لا تخلو من الجرأة - إلى حد الوقاحة أحياناً كثيرة - فيما يتعلق بالمرأة.. كل ذلك كان مدعاة للمحامي المصري نبيه الوحش ليرفع قضية الاتهام ضد الكاتبة نوال السعداوي مطالباً فيها بحكم الردة عليها، وتطليقها من زوجها الدكتور شريف حتاته بدعوى خروجها عن الدين الإسلامي؛ وذلك على وفق (نظام دعاوى الحسبة) المعمول به في القضاء المصري!

تاريخ من السجال

لم تكن هذه الدعوى الأولى من نوعها فضلاً عن أنها ليست بالأزمة الجديدة، فقد سبق للساحة الفكرية في مصر أن شهدت - وما تزال - العديد من الاثارات والأزمات في هذا الاتجاه حتى تحول الأمر إلى سجال أو ما يشبه ذلك. ففي سنة ١٩٤٧ حدثت أزمة سياسية - فكرية بسبب رسالة الدكتوراه التي تقدم بها الباحث محمد أحمد خلف الله عن القصص

القرآني، تبنى فيها وجهة نظر ذات جذور استشراقية حاول فرضها على القصص القرآني، وقد أصبح هو ورسالته موضوع سجالات انقسم فيها القوم الى فريقين.

ورغم أن أزمة خلف الله لم تكن أولى الصدامات ولا أكبرها، إذ سبقتها أزمة الدكتور طه حسين وكتابه «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦، وتبعتها مباشرة أزمة الشيخ علي عبد الرازق عن كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، فإن قضية خلف الله كانت أقرب في طبيعتها للمعركة التي توالت فصولها في مصر منذ منتصف التسعينيات القرن الماضي، والمتصلة بالدكتور ناصر حامد أبو زيد الذي حوُكم أمام القضاء المصري الذي أصدر حكماً بالتفريق بينه وبين زوجته ابتهال يونس؛ على أساس ارتداد الأستاذ الجامعي أبو زيد عن الدين الإسلامي مما اضطرهما الى طلب اللجوء في هولندا.

ولاننسى في هذا السياق حادثة اغتيال الكاتب المصري فرج فوده في مطلع التسعينات إثر استفزازه الإسلاميين كثيراً في كتاباته ما أدى بالنتيجة الى هدر دمه من قبل المتشددين منهم..

وقد أثارت قضية مقتل فرج فوده جدلاً فكرياً ساخناً بين الإسلاميين «الفقهاء، وأهل الفتوى من علماء الأزهر، ودار العلوم، والمؤسسات الدينية» وبين العلمانيين المتمثلين بالماركسيين، وبقايا حزب التجمع اليساري، ودعاة التغريب!

ولئن هدأت اليوم قضية فرج فوده، فإن قضية نصر حامد أبو زيد ما تزال موضع أخذ ورد، خاصة وأنه يواصل نشر كتاباته وبث أفكاره التي حوكم بسببها.

السعداوي بطاقة شخصية

وعودة الى قضية نوال السعداوي التي مثُلت أمام القضاء المصري حينذاك، غير أن القضاء برّأ ساحتها مما ألصق بها من اتهامات ترقى الى الإدانة بالردة.

وقبل الخوض في خلفيات القضية، نجد لزاما العودة قليلاً الى الوراء، للوقوف على أهم آراء الدكتورة نوال السعداوي، المثيرة للجدل، وخاصة فيما يتعلق بآرائها المبثوثة في مؤلفاتها والتي تتمحور بمجملها حول قضايا المرأة والمجتمع.

ولدت في إحدى القرى المصرية سنة ١٩٣٢م. ونشأت في عائلة كبيرة مكونة من أحد عشر فرداً، وعلى الرغم من أن عائلتها تتصف بقدر من المحافظة إلاّ أن والدها أصر على تعليم أبنائه وبناته أيضاً في زمن كانت المرأة الريفية تعاني التقاليد السائدة والعديد من الضغوطات الاجتماعية.

التحقت نوال بجامعة القاهرة، حيث حصلت على الدكتوراه في علم النفس عام ١٩٥٥، ومن ثم بدأت بالعمل في مجال اختصاصها، وبممارسة الطب العام، حتى أصبحت مسؤولة بوزارة الصحة.

في تلك الأثناء التقت نوال بزوجها الدكتور شريف حتاته الذي كان يشاركها الرأي بالكثير من الأشياء، حيث كان ينتمي الى أحد تيارات اليسار المعارض، وكان قد قضى أكثر من ١٣ سنة في السجن بسبب ذلك.

الكاتبة المثيرة للجدل

مارست نوال السعداوي الكتابة، واشتهرت بكتاباتها عن المرأة وتناول وضعها المتردي، داعية الى تحريرها من قيودها الاجتماعية، والى مشاركتها

في الحياة السياسة والاقتصادية ولم تقتصر على الكتابة، بل مارست النشاط النقابي، وانغمست في أعمال بعض الجمعيات النسوية الثقافية وأجرت أبحاثاً ميدانية عن المرأة في أماكن مختلفة من مصر، كما شاركت في ندوات ومحاضرات محلية وعربية وعالمية.

وكان بإمكان نوال السعداوي أن تخوض هذه المواضيع بشكل صحيح لا غبار عليه، خاصة وأن المرأة المصرية - حالها حال المرأة العربية والمسلمة في كل مكان تقريباً من عالمنا الإسلامي الكبير - ماتزال أسيرة التقاليد الاجتماعية البعيدة، في جوهرها، عن مبادئ الإسلام ورؤيته للمرأة.. بيد أن نوال السعداوي، وبدوافع عديدة كونها يسارية مندفعة، ذهبت في هذا المضمار شأواً بعيداً، بلغ بها الحال الى حد المطالبة بالانفلات الأخلاقي، وهذا ما أوجد لها من الخصوم ما لا تحسد عليه، ممن رأوا فيما تقوله خروجاً على التقاليد ومبادئ الدين الحنيف.

فعندما كتبت «المرأة والجنس» على سبيل المثال منعت من نشره في مصر، واضطرت الى اصداره في بيروت عام ١٩٧٢م، وكما يوحي العنوان فإن الكتاب يتناول مواضيع كانت ولا تزال محرمة يحظر الحديث عنها في مجتمعاتنا.

أراء تقود الى السجن

لم تكتف السعداوي بذلك، بل مضت بعيداً - أيضاً - في حملتها على الوضعين السياسي والديني، الأمر الذي أثار غضب السلطات التي أرغمت السعداوي على الاستقالة من منصبها في وزارة الصحة، وكذلك وظيفتها كرئيسة تحرير لمجلة الصحة.

وخلال الفترة الفاصلة بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٦ أجرت نوال السعداوي

في جامعة عين شمس بالقاهرة أبحاثاً عن المرأة والاضطرابات العصبية، وتوجت هذه الأبحاث بكتاب أسمته «المرأة والعصاب في مصر» سنة ١٩٧٦، اشتمل الكتاب على دراسات للاضطرابات النفسية التي تعاني منها أكثر من ٢٠ حالة لنساء داخل السجون وفي المستشفيات بمصر.

ظلت نوال السعداوي تواصل نهجها اليساري، وهجومها العنيف على العديد من المظاهر الاجتماعية والسياسية، وباتت جميع الأبواب موصدة بوجهها، حيث حرمت من العمل في أية وظيفة عامة. وجاءت أحداث الفتنة التي اجتاحت مصر خلال أيام السادات الأخيرة، حيث زج بالمئات من معارضيه في السجن، ومن شتى الاتجاهات.

وكانت نوال السعداوي ضمن المشمولين بتلك الاعتقالات. وهناك كانت بمعيتها الكاتبة الإسلامية المعروفة صافيناز كاظم، حيث جرى بينهما سجال حول أمهات القضايا، أشارت إليه صافيناز كاظم في ذكرياتها عن تلك الأيام العصيبة.

ما بعد السجن

لم يزد السجن نوال إلاّ تمسّكا بآرائها، فخرجت منه لتؤسس أول جمعية مستقلة للنساء في مصر سنة ١٩٨١م، بلغ عدد أعضائها قرابة خمسمائة عضو في مصر ونحو ألفي امرأة على مستوى العام. عقدت هذه الجمعية ندوات ومحاضرات، وأصدرت مجلة خصصت إيراداتها للمرأة الريفية، كما أصدرت إثر خروجها من السجن مباشرة مؤلفها: «مذكرات من سجن النساء».

وفي سنة ١٩٩١ مُنعت هذه الجمعية من ممارسة نشاطاتها بسبب آرائها المعارضة لأمريكا في الحرب الخليجية الثانية، وتدخلها في الأحداث، الذي

اعتبرته تدخلاً في شؤون الأمة.. كما أكدت على أن الأزمة لابدّ أن تُحل على المستوى العربي.

ورغم ذلك، خصصت لها السلطات المصرية حراسة لمركز اقامتها بالجيزة، بعد تلقيها التهديدات، من قبل البعض، على خلفية مواقفها الدينية والسياسية.. إلى أن غادرت البلاد للعمل كأستاذة محاضرة بجامعات أميركا الشمالية. لتعود الى بلدها، وهي تعكف على كتابة سيرتها الذاتية.

بقي أن نقول: إن كتابات نوال السعداوي مثار جدل محتدم منذ سبعينات القرن الماضي، وقد تناولت في معظمها قضايا تخص المرأة والمساواة، ومهاجمة الحجاب.

وقفة متأنية مع أفكارها

واذا ما توخينا الدقة في موضوع تقييم كتابات نوال السعداوي، خاصة تلك التي أصدرتها في السبعينات، فإن من الواضح أنها كانت تحريضاً لكي تنفلت المرأة من كل الأعراف والتقاليد والقيود.. وذلك انسجاماً مع فكرها اليساري الذي لا يتردد في اطلاق هذه المقولات.

ومن ناحية أخرى فإن بعض المظاهر المتخلفة التي تقيد المرأة عن انطلاقتها الحقيقية في المساهمة الجادة ببناء المجتمع ورقيه.. تركت ردود فعل مضادة لدى نوال السعداوي وأمثالها، وقد حاولت - في عملية اسقاط مرفوضة - تحميل الإسلام كل ما تعانيه المرأة المصرية خاصة والعربية عموماً من حيف وقهر واضطهاد!!

ولعمري هذه مغالطة كبيرة يقع فيها العلمانيون، وما يزال الكثير منهم يصر على هذا التوجه، رغم انكشاف العديد من الحقائق في هذا الاتجاه، مما يعني أن المسألة لدى البعض تتجاوز الموضوعية القناعات الحقيقية الى موقف سلبي ثابت، يحاول تبريره بشتى الذرائع.

وفيما يخص الدكتورة نوال السعداوي. فإنها إحدى ضحايا الفهم الخاطئ للإسلام، حينما تحاول صب جام غضبها على شرائعه وكأنه المسؤول عن تكبيل المرأة، وجعلها بهذه الحالة التي يرثى لها. بينما واقع الأمر عكس ذلك تماما، فالإسلام منح المرأة ما لم تمنحه أي من الشرائع الأرضية، بما فيها تلك التي تذرف الدموع على حقوق المرأة. ونظرة سريعة الى الى أعداد النساء الغربيات اللاتي يعتنقن الإسلام يؤكد هذه الحقيقة البسيطة.

الاقتراب من الواقعية

ربما كانت الدكتورة السعداوي تعاني من قصور في الفهم، أو عدم وضوح في الرؤيا حيال ما وفرته الشريعة الإسلامية السمحاء من حقوق للمرأة، ولعل السبب في وقوع السعداوي في ذلك المأزق، الممارسالت الخاطئة التي كانت تمارس بحق المرأة وإلصاقها خطأً بالإسلام.

وقد اقتربت نوال السعداوي، في السنين الأخيرة، من الواقعية، فأخذت تنظر الى الأمور بحكمة وتروٍ وهي في مرحلة الشيخوخة خلافاً لمرحلة الشباب والكهولة.

فقد سئلت صيف عام ١٩٨٩م عن رأيها بالمرأة الغربية، وهل تعتبرها مثالاً يحتذى ونموذجا يجب محاكاته؟ .. فكان جوابها: «لا.. أبداً فالمرأة الأوروبية تقدمت في ميادين وتأخرت في أخرى، فقوانين الزواج في أوربا تظلم المرأة، وهذا هو سبب نشأة حركات تحررية نسائية عندهم، وكذلك في أميركا، وهي حركات قوية جداً شرسة أحياناً».

ثم تقول : «.. ديننا الإسلامي أعطى للمرأة حقوقاً أكثر من كل الأديان الأخرى، ضمن لها كرامتها وعزتها، إلاّ أن الذي حدث أحياناً. هو أن الرجل

وظف بعض جوانب هذا الدين لتركيز مجتمع رجالي أبوي طبقي يسيطر فيه الذكور على الإناث».

وهذا الكلام الذي قالته نوال السعداوي، في لقاء لها مع إحدى الصحف الكويتية اليومية، يعد تراجعاً علنياً واضحاً عن كل دعواتها السابقة، خلال عقدين من الزمن، هاجمت فيها وضع المرأة في الإسلام، بل وحاولت النيل منه، كانت تدعو الى الغرب، ووضع المرأة في الغرب!!.

وفي ضوء هذا الاعتراف المتأخر نسبياً، كان الأجدر بالدكتورة نوال لسعداوي، أن تحث المرأة المسلمة على المطالبة بحقوقها التي رأت هي أن الرجل قد وظفها لـ«تركيز مجتمع رجولي أبوي»؛ لانقاذها مما لحق بها من حيف، لا أن تهاجم «ديننا الإسلامي - الذي - أعطى للمرأة حقوقاً أكثر من كل الأديان الأخرى» كما اعترفت هي بذلك. وتكف عن دعواتها للمرأة المسلمة للتخلص من الحجاب، واتباعها المرأة الغربية التي تذوق الآن وبال أمرها!

ما تجدر الإشارة إليه أن اللقاء الصحفي مع الدكتورة السعداوي تضمن عدداً من الاضاءات المماثلة، لا يسع المجال لذكرها، من قبيل دعوتها الى التكامل بين المرأة والرجل، ونرى فيه الحل الأمثل للعلاقة بينهما.

خلفيات المحاكمة الأخيرة

اذا كانت نوال السعداوي قد راجعت نفسها في العديد من آرائها وأفكارها.. فثمة ما يثيرة الاستغراب من الموقف الاستعدائي الذي اتخذه البعض حيالها، في الوقت الذي كان يفترض به أن يرحّب بهذا التحول الإيجابي، ودعمه للوصول الى مواقف أكثر فاعلية وواقعية.

هذه الهجمة الجديدة عليها، ومن قبل بعض متشددي التيار الديني في مصر، لا تخلو من تعسف، ففي ظل التوجهات الجديدة للدكتورة نوال

السعداوي كنا نأمل أن يتم التعامل معها بروح المبادرة والانفتاح على الآخر، وبلغة الحوار لا بمنطق المحاكمة، والأخذ بيدها للوصول الى سبل الحقيقة لا الإسراع في نبذها وتكفيرها.

إن خلفية الأزمة الأخيرة المثارة ضد نوال السعداوي تعود، كما ذكرنا، الى مقابلة صحفية أجرتها معها جريدة «الميدان» الأسبوعية المستقلة الصادرة بتاريخ (٦/ آذار / ٢٠٠١).

وينبغي التذكير هنا أن الوقت يومئذ كان يشهد موسم فريضة الحج.. وقد نشرت الجريدة في عنوانها الكبير من صفحة اللقاء الموسوم تحت عنوان «قضية ساخنة».. «العبارة التالية: «الحج وتقبيل الحجر الأسود.. وثنية».

ومما جاء في المقابلة أن الحج من بقايا الوثنية، وزعمت عدم وجود ارتداء الحجاب.. واتهمت الإعلام المصري بتجهيل الشعب فالشعب الجاهل تسهل قيادته وضربه واستغلاله، وكما يسهل حكمه ديكتاتورياً. وبديهي أن تواجه هذ التصريحات بردود فعل عنيفة خاصة في بلد كمصر، الذي تموج عاصمته بالتيارات الفكرية فضلاً عن أنها مدينة الألف مأذنة وقلعة الأزهر الشريف.

وقد رد مفتي مصر الشيخ نصر فريد واصل على هذه التصريحات، ولكنه مع ذلك لم ير من الضروري الدعوة الى محاكمتها بل قال: «لسنا بحاجة الى متابعة الحوار فى أفكارها الضالة والمنحرفة عن نهج الإسلام لأن القصد من ورائه التطبيق العملي لمقولة خالف تعرف».

غير أن المحامي المصري نبيه الوحش تقدم في مطلع نيسان ٢٠٠١ بشكوى الى النائب العام يتهم فيها الكاتبة بالردة، ويطالب على هذا الأساس بالتفريق بيها وبين زوجها. وسبق للمحامي نفسه أن رفع شكوى ضد نوال

السعداوي بتهمة ازدراء الأديان وإنكار نصوص قطعية من القرآن، إلاّ أنه لم يستطع كسب المرافعتين.

وفي حين وصف المحامي نبيه الوحش حفظ التحقيق في الدعوة الأولى بأنه قرار سياسي وليس حكماً قضائياً.. وكذلك كانت الثانية! وقفت نوال السعداوي تدافع عن نفسها، بحضور عدد كبير من المثقفين المصريين والمراسلين الأجانب وعشرة من المحامين الذين تضامنوا معها، وانبروا للدفاع عنها.. وليرد النائب العام المصري الدعوى المرفوعة ضد السعداوي معتبراً أنه لا وجه لاقامة الدعوى.

الأكثر أهمية من التضامن مع نوال السعداوي تراجعها عمّا نسب إليها من تصريحات في الجريدة المذكورة، إذ ادعت تحريف الصحفي أقوالها كلها، وإنما كانت بصدد ذكر حقائق تاريخية، مشيرة بذلك الى ما ورد في القرآن الكريم من ذم الممارسات الجاهلية في الحج، وعند بيت الله الحرام كقوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاء وتصدية﴾[(١)].

وأياً كان الحكم فالملاحظة التي ينبغي إثارتها هنا، أن ثمة تضخيما للمسألة من قبل العلمانيين الذين طبلوا كثيراً الى أمثال هذه الإثارات، كما هو ديدنهم زاعمين في منابرهم أن منكر الشريعة ليس مرتداً!!

في المقابل لم تحسن بعض الأوساط الدينية التصرف في هذه القضية لاسيما بعد أن تراجعت الكاتبة نوال السعداوي مما نسب إليها من تصريحات، وهذا كاف لكي يجنبها سيف الاتهام بالردة.

---

١ – الانفال: ٣٥.

أهم المراجع

١- مجلة الفكر الجديد (لندن)، ع ١٧، س ٦، محرم الحرام ١٤١٩هـ - نيسان ١٩٩٨م.

٢- مجلة المجتمع (الكويت)، ع ٩٣١، س ٢٠، ٥ صفر ١٤١٠ هـ - ٥ سبتمبر ١٩٨٩م.

٣- عدد من مواقع الانترنيت.

سعيد النورسي

خطاب مفتوح للمرأة المسلمة

صبيحة أحد أيام عام ١٩٣٤، شنّت أجهزة أتاتورك القمعية حملة اعتقالات واسعة بين شباب «جماعة النور»، شملت رائد الجماعة سعيد النورسي نفسه، فقدم الى محكمة عسكرية، وحكم عليه بالسجن أحد عشر شهراً بتهمة تأليف رسالة يدعو فيها النساء الى الحشمة والتستر.

كان هذا غيضاً من فيض، ونقطة من بحر الآلام التي أغرقت العلمانية به تركيا، تحت ذريعة انتهاج العلمانية، وكل ما يخالفها هو من قبيل «الإخلال بالأمن. واليوم، وبعد ما ينوف على الستين عاماً من ذلك الحادث، تعود العلمانية الأتاتوركية؛ لتشن حربها الضروس ضد الحجاب - وكل المظاهر الاسلامية - متلفعة بتلك الذريعة ذاتها، رغم تباين الظروف، وتغير الأيام!

ولئن عمد أتاتورك جاهداً الى محاصرة بدايات الوعي الاسلامي ورمي طلائعه وراء قضبان السجون، فها هي صرخات النورسي تملأ أجواء تركيا، فأرعبت سدنة العلمانية - من أيتام أتاتورك - في هذا البلد المسلم، وأفقدتهم صوابهم! فمن هو سعيد النورسي هذا؟ وما هي حكايته مع أتاتورك وأتباعه؟ وماذا عن دوره في معركة الحجاب هذه؟

الولادة.. والنشأة

في قرية (نورس) في قضاء (خيزان) التابع لولاية (بتليس) شرقي الأناضول.. ولد سعيد النورسي سنة (١٢٩٣هـ - ١٨٧٣م)، في عائلة كردية، من أبوين يضرب بهما المثل في الورع والتقوى. إذ لم يذق الأب (ميرزا) حراماً، ولم يطعم أولاده من غير الحلال. حتى أنه اذا عاد بمواشيه من المرعى شد أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين، وتقول أمه (نورية): إنها ما أرضعت أطفالها إلاّ وهي على طهر ووضوء.

في هذه الأجواء نشأ وترعرع.. على حب الخير والفضيلة مع فطرة مجبولة على عدم قبول الضيم والظلم. تلقى علومه الأولى في المدارس الملحقة بالجوامع التي كانت من أهم مراكز الاشعاع العلمي آنذاك، وبدت عليه مخايل النبوغ ودلائل الذكاء، منذ نعومة أظفاره، فقد كان كثير السؤال والاستطلاع.

فبعد أن قرأ القرآن وهو صغير، بدأ بدراسة علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وغيرها. ثم عكف على دراسة الفقه الاسلامي وغيره، على يد شيخه (محمد جلالى) فأتقن الدراسة الأساس من العلوم النقلية والعقلية، وتبحر فيها بجهده حتى نال اجازته العلمية وهو ابن أربع عشرة سنة.

النبوغ المبكر

ومنذ طفولته، شد إليه أنظار المعجبين والحاسدين - على حد سواء - وقد اجتمع له مع الذكاء قوة الحافظة، مما أجبر العديد من أساتذته على الشهادة بنبوغه المبكر. ومن طريف ما تجدر الاشارة إليه ذهابه عام ١٨٨٩م الى مدرسة العالم المعروف (فتح الله أفندي)، ودار هذا الحوار بينهما:

- كنت تقرأ السيوطي، في السنة الماضية، فهل تقرأ الجامي هذه السنة؟ (في إشارة الى كتابين مشهورين في النحو).

- لقد قرأتهما كاملين.

وبدأ ‹فتح الله أفندي› يسرد له أسماء الكتب، ويجيبه ‹الملا سعيد› بأنه قرأها كاملة، حتى أصبح يتعب من أمره ويقول له أخيراً:

لقد كنت مجنوناً في السنة الماضية، فهل مازلت على جنونك حتى الآن؟

عند ذاك أبدى ‹الملا سعيد› استعداده للامتحان في تلك الكتب، وفعلاً لم يتردد أمام أي سؤال كان، مما أدهش العالم وأعجبه وأخيراً قال له:

- حسنا.. إن ذكاءك خارق، ولكن دعنا نرى قوة حفظك. فهل تستطيع أن تقرأ بضعة أسطر من هذا الكتاب مرتين وتحفظها؟

ومد له كتاب ‹مقامات الحريري›، أخذ ‹الملا سعيد› الكتاب وقرأ صفحة واحدة منه مرة واحدة، فإذا بها كافية لحفظها مما أذهل العالم ‹فتح الله أفندي› وجعله يقول: «ان اجتماع الذكاء الخارق مع القوة الخارقة للحفظ شيء نادر جداً».

وهناك قرأ الملا سعيد كتاب ‹جمع الجوامع› في أصول الفقه لابن السبكي، بمعدل ساعة أو ساعتين في اليوم لمدة أسبوع، وكانت هذه القراءة كافية لحفظ الكتاب عن ظهر قلب، وقد دفع هذا العالم ‹فتح الله أفندي› الى كتابة العبارة الآتية على غلاف الكتاب: ‹لقد جمع فى حفظه ‹جمع الجوامع› جميعه في جمعة›.

لماذا سمي ببديع الزمان؟

لم تلبث شهرة هذا الشاب حتى انتشرت، بعد أن أفحم في مناقشاته علماء منطقته جميعاً، فسموه بـ‹سعيد المشهور›، ثم ذهب الى ‹بتليس›، ومنها الى مدينة ‹تيلو› حيث اعتكف مدة في أحد أماكن العبادة، وحفظ هناك القاموس المحيط للفيروزآبادي الى باب السين.

وفي سنة ١٨٩٢ ذهب «الملا سعيد» الى مدينة «ماردين»، وبدأ يلقي دروسه في جامع المدينة، ويجيب عن أسئلة الناس. ثم وُشي به الى الوالي فأصدر أمراً باخراجه، وسيق الى «بتليس»، فلما عرف واليها حقيقة هذا الشاب العالم ألحّ عليه في الإقامة معه. وهناك وجد الفرصة سانحة، في مكتبته الزاخرة بالكتب والمخطوطات، للدراسة والمطالعة حتى بلغ محفوظه من متون أمهات الكتب الاسلامية ثمانين كتاباً في التفسير والحديث والفقه والنحو والفلسفة وعلم الكلام والمنطق.. وفي هذه المدينة تلقى آخر دروسه الدينية على الشيخ محمد الكفروي.

ولم يكتف بهذا القدر، بل شعر بحاجته الى العلوم الحديثة، من خلال مناظراته مع أساتذة العلوم الطبيعية الحديثة، لذلك انكب على دراسة الرياضيات، والفلك والكيمياء، والفيزياء، والفلسفة الحديثة والجيولوجيا، والتاريخ والجغرافيا، وألّف في بعض منها حتى تعمق فيها الى درجة إفحام الأساتذة المختصين، فسمي لأول مرة بـ«بديع الزمان» اعترافاً من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير.

مشروع لم يبصر النور!

وفي عام ١٨٩٤م حدث أمر مثير في حياة «بديع الزمان»، أثناء اقامته في «وان».. حيث قرأ خبراً في إحدى الصحف المحلية يشير الى تصريح وزير المستعمرات البريطانية «غلادستون» في مجلس العموم البريطاني، وهو يخاطب النواب، ويلوّح بنسخة من القرآن الكريم قائلاً: ««مادام هذا القرآن في أيدي المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به»».

زلزل هذا الخبر كيانه وأقض مضجعه، فصمم على تكريس حياته

لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب الله، فردد قولته المشهورة: «لأبرهنن للعالم أجمع بأن القرآن الكريم شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن اطفاء نورها». فشد الرحال الى اسطنبول، عام ١٨٩٦م، وقدّم مشروعاً لإنشاء جامعة إسلامية في شرق الأناضول أطلق عليها اسم، «مدرسة الزهراء» على غرار جامعة الأزهر الشريف، ليكون لها فرعان: فرع في (بتليس) والآخر في (ديار بكر)، وتنهض بمهمة نشر حقائق الاسلام وتدمج فيها الدراسة الدينية بالعلوم الحديثة على ضوء مقولته المشهورة: «ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو الفنون المدنية - العلوم الكونية الحديثة - فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذاك». وبعد سنة ونصف من المكوث في اسطنبول، لم تفلح محاولاته المستمرة في إقناع المسؤول بفكرته، فرجع ثانياً الى شرق الأناضول.

في مواجهة قوى التغريب

في تلك الأثناء، ظهرت آراء (بديع الزمان) بوضوح في الاصلاح والدعوة الى الشورى والعودة الى الشريعة، سواء في مقالاته الصحفية، أو مقابلاته مع المسؤولين، أو تجواله بين الناس.

ولآرائه تلك حاولت (جمعية الاتحاد والترقي) الاتصال به وكسبه الى صفها، إلاّ أن بديع الزمان يفوّت عليهم الفرصة، ويصفهم بأنهم المعتدون على الدين والدائرون ظهورهم الى الشريعة.. وبعد قيام حركة الاتحاد والترقي وثبوت تبعية الاتحاديين الى الجمعية الماسونية اليهودية في سلانيك، بدأ بديع الزمان يهاجم الاتحاديين وجمعيتهم. وذلك من خلال جمعية «الاتحاد المحمدي»، فألقي عليه القبض، وقُدم الى محكمة عسكرية بدعوى مطالبته بعودة الشريعة، وفي المحكمة ألقى دفاعاً جريئاً صريحاً بليغاً أثّر في رئيس المحكمة وأعضائها فحكموا ببراءته، ومما قاله: «لو أن لي ألف

روح لما ترددت في أن أجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الاسلام». وبعد تبرئة المحكمة له، رجع الى «وان» حيث بدأ بالقاء دروسه ومواعظه بين العشائر مؤلفاً كتاباً سماه «المناظرات».

وفي سنة ١٩١١ ذهب بديع الزمان الى بلاد الشام، وألقى خطبة علمية بليغة، من على منبر الجامع الأموي، دعا فيه المسلمين الى اليقظة والنهوض، وبيّن فيها أمراض الأمة الاسلامية وسبل علاجها - طبعت فيما بعد باسم «الخطبة الشامية» - ثم عاد الى اسطنبول وعرض مشروعه بخصوص الجامعة الاسلامية على السلطان «رشاد»، فوعده السلطان بوضع الحجر الأساس للجامعة على ضفاف بحيرة «وان»، غير أن الحرب العالمية الأولى حالت دون اكمال المشروع.

المجاهد... الأسير

على الرغم من معارضة سعيد النورسي دخول الدولة العثمانية الحرب، فإنه حالما أعلنت اشترك هو وطلابه فيها ضد روسيا القيصرية المهاجمة من جهة القفقاس، ولما دخل الجيش الروسي مدينة «بتليس»، كان بديع الزمان يدافع مع طلابه عن المدينة دفاعاً مستميتاً حتى جرح جرحاً بليغاً، وأُسر من قبل الروس وسيق الى معتقلات الأسرى في سيبيريا. وفي الأسر وقع له حادث كاد يودي بحياته، فذات مرة، وبينما كان خال القيصر والقائد العام للجبهة الروسية «نيقولا نيقولافج» يزور الأسرى، قام الجميع لأداء التحية ما عدا «سعيد النورسي». لمح القائد العام ذلك فرجع مرة ثانية أمامه، فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقف أمامه وجرت بينهما المحاورة الأتية بواسطة المترجم:

- الظاهر إنك لم تعرفني؟

- بلى لقد عرفتك.. إنك نيقولا نيقولافج، خال القيصر والقائد العام في جبهة القفقاس.

- إذن لماذا تستهين بي؟

- كلا إنني لم أهن أحداً، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

إني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيماناً، فالذي يحمل إيماناً في قلبه أفضل من الذي لا يحمله، ولو إنني قمت لك لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، فلذلك لم أقم لك.

- إذن فإنك بإطلاقك عليّ صفة الإيمان قد أهنتني وأهنت جيشي وأمتي والقيصر كذلك، فيجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في الأمر.

تشكلت المحكمة العسكرية، وقُدّم إليها سعيد النورسي بتهمة إهانة الأمة الروسية والقيصر والجيش الروسي .. ويسود حزن عميق في معسكر الأسر، ويلتف حوله الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين ملحين عليه بتقديم الاعتذار للقائد الروسي وطلب العفو منه، ولكنه رفض بإصرار قائلاً لهم: «إنني أرغب في الرحيل الى الآخرة والمثول بين يدي رسول الله (ص) لذلك فإنني بحاجة إلى جواز سفر للآخرة، وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني».

وتصدر المحكمة قرارها بإعدام النورسي، وفي يوم التنفيذ تحضر ثلّة من الجنود على رأسها ضابط روسي لاقتياده الى ساحة الاعدام، ويقوم النورسي من مكانه بابتهاج قائلاً للضابط الروسي: «أرجو أن تسمح لي قليلاً لأؤدي واجبي الأخير»، فيقوم ويتوضأ ويصلي ركعتين.

ويؤثر هذا المنظر في نفس القائد الروسي الذي كان واقفاً يراقب الأمر عن كثب، فيتقدم الى النورسي ويقول له بعد فراغه من صلاته: «أرجو منك

المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصداً إهانتي، ولكنني واثق الآن من أنك كنت تريد تنفيذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك؛ لذا فقد أبطلت قرار المحكمة وإنني أهنئك على صلابتك في عقيدتك، وأرجو المعذرة مرة أخرى».

وفي الأسر استمر في إلقاء دروسه الايمانية على الضباط الذين كانوا معه، والبالغ عددهم ٩٠ ضابطاً، ثم هرب من الأسر بأعجوبة نادرة وبعناية ربانية واضحة، ومر في طريقه بوارشو فألمانيا وفينا..

وعندما وصل الى اسطنبول منح وسام الحرب، واستقبل استقبالاً رائعاً من قبل الخليفة، وشيخ الاسلام، والقائد العام وطلبة العلوم الشرعية. وكلفته الدولة بتسلم بعض الوظائف، رفضها جميعاً إلاّ ما عينته له القيادة العسكرية من عضوية في ‹دار الحكمة الاسلامية› التي كانت لا توجه إلاّ لكبار العلماء، فنشر في هذه الفترة أغلب مؤلفاته باللغة العربية، منها: تفسيره القيم «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»، الذي ألّفه في خضم المعارك، و «المثنوي العربي النورسي».

مواجهة ما بعد السقوط

ولما آلت الدولة العثمانية الى السقوط، ودخلت الجيوش الغازية اسطنبول، أحس بديع الزمان بهذه الآلام، إذ يقول عن نفسه: «لقد كنت أحس بأن هذه الضربات التي وُجّهت الى العالم الاسلامي كأنها وُجّهت الى أعماق قلبي» فشرع بتأليف كتابه «الخطوات الست» هاجم فيه الغزاة بشدة، وأزال دواعي اليأس التي خيّمت على كثير من النفوس.

ولشهرته الواسعة وجهاده المتواصل دعي إلى أنقرة عدة مرات، فتوجه إليها سنة ١٩٢٢م، حيث استقبل في محطة القطار بحفاوة، من قبل أركان

الدولة، ولكن سرعان ما خاب ظنه بمن دعوه، حين وجد أن معظمهم لا يؤدون الفرائض الدينية، فوجه الى المجلس النيابي (مجلس المبعوثان) خطاباً مؤثراً استهله بـ«أيها المبعوثون، إنكم لمبعوثون ليوم عظيم». فثاب الى رشده إثر ذلك ستون نائباً، وأقاموا فريضة الصلاة، فأزعج هذا مصطفى كمال (أتاتورك) فحصلت بينهما مشادة عنيفة، وكان مما قاله له:

- لا ريب في أننا بحاجة الى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك الى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا بث الفرقة بين أهل هذا المجلس. فأجابه بديع الزمان مشيراً إليه باصبعه بحدة: «يا باشا.. يا باشا.. إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود».

بعد هذه المواجهة قرر الباشا ابعاده الى شرق الأناضول عن طريق تعيينه واعظاً عاماً هناك، ولكن النورسي رفض ولم يذهب. فظل في أنقرة يؤلّف الرسائل في إثبات وجود الله وترسيخ العقيدة الاسلامية، لمقاومة الانحراف الذي بدأ يغزو المجتمع.

ربع قرن.. بين المنافي والسجون

في سنة ١٩٢٣م توجه بديع الزمان الى مدينة (وان)، واعتزل الناس في جبل (أرك) القريب من المدينة طوال سنتين مبتعداً ومتأملاً. ورغم ذلك لم ينج من شرارة الفتن والاضطرابات، فنفي مع الكثيرين الى (بوردور) جنوبي الأناضول، ثم نفي وحده الى ناحية (بالار) النائية، ووصل إليها في شتاء سنة ١٩٢٦م، فظن أعداء الايمان أن سيقضى عليه هناك، ويخمد ذكره، ويطويه النسيان، ويجف هذا النبع الفياض .. بيد أن (بالار) غدت مصدر اشعاع عظيم لنور القرآن، إذ ألّف الأستاذ النورسي فيها معظم (رسائل النور). وتسربت هذه

الرسائل عن طريق الاستنساخ اليدوي، وانتشرت من أقصى تركيا الى أقصاها، إذ ما كان النورسي يساق من منفى الى آخر، ويزج في السجون والمعتقلات في العديد من ولايات تركيا، إلاّ ويقّيض الله له من يستنسخ هذه الرسائل وينشر فيضها الايماني، حتى أيقظت روح الايمان الراكدة لدى أهلها وأرستها على دعائم علمية ومنطقية في غاية البلاغة باللغة التركية، يفهمها العوام ويتزود منها الخواص.

شهد عام ١٩٣٢م صدور الأوامر بمنع الأذان باللغة العربية، ولم ينفذ النورسي وجمع من تلامذته هذا القرار. فكانوا يؤذنون في داخل المسجد باللغة العربية فاكتشفت السلطات هذا، فنقلت النورسي «اسبارطة» فظل هنالك أشهراً يؤلف رسائل النور.

أما عام ١٩٣٦م فقد نفي بديع الزمان الى «قسطموني» وهي مدينة في الشمال الغربي لتركيا. ظل فيها تحت الاقامة الجبرية ثماني سنوات، ثم نفي الى «أمير داغ» أواسط الأناضول.. وهكذا قضى ربع قرن من حياته بين نفي وسجن ومراقبة ومحاكمات.

استمر النورسي على هذا الحال الى سنة ١٩٥٠م، التي أجريت فيها أول انتخابات حرة في البلاد أتت بالحزب الديمقراطي الى الحكم، الذي بدأ يخفف الحملة الوحشية التي شنّت على الاسلام على مدى ربع قرن كامل، حينها سمح لأول مرة لرسائل النور بالطبع والنشر، وللنورسي بالحركة المقيدة المحددة بين المدن التركية.

ظل الأستاذ نشيطاً في توجيه تلامذة النور وتربيتهم، يكتب لهم ويرشدهم ويشرف على طبع رسائله وكتبه حتى وفاته في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافق للثالث والعشرين من آذار «مارس»

سنة ١٩٦٠م، وذلك في «اولو جامع» في مدينة أورفه، ثم أخرج جثمانه بأمر السلطات، ودفن في مكان مجهول.

في رحاب رسائل النور

إن بديع الزمان الذي أوقف عمره الزاخر بالمواقف والجهاد على خدمة اسلامه العظيم، لم يهادن، ولم يساوم قيد أنملة. والى جنب تلك المواقف ترك لنا رسائل النور، وهي بمثابة البرنامج الفكري لجماعة النور. وقد أولى النورسي اهتمامه الكبير بتلك الرسائل التي تتآلف فيها الحياة الدينية مع العصر، فشكل من هذا المزيج مدرسة خاصة للعمل الاسلامي، وقدم من خلالها مذهبية الاسلام الشاملة في الكون والحياة والمجتمع والانسان، بدقائقها وبمقدماتها ونتائجها.. أخذت الأفكار الاسلامية التي استقاها بديع الزمان من القرآن الكريم والتي كتبها بطريقة فريدة في ظروف مختلفة ومواطن شتى تنتشر بسرعة لتصل الى آفاق بعيدة وهاهي الصحوة الاسلامية في تركيا أخذت تكتسح الشارع السياسي، وتهدد ركائز العلمانية من الأساس .. وهي مدينة بذلك –الى حدّ كبير– لرائد الوعي ومؤسس جماعة النور، بديع الزمان سعيد النورسي.

ما تجدر الاشارة إليه أن بديع الزمان خاض، في رسائل النور، في العديد من الأفكار ومناحي المعرفة.. ورغم نكبات الدهر، ووطأة المنافي، وضريبة المواجهة الشرسة مع نواطير الغرب، ومرضه الشديد .. لم ينس اهتمامه بالمرأة، خاصة حينما شاهد، عن كثب، اهتمام النساء برسائل النور اهتماماً بليغاً.. وبسبب مطالبتهن الملحّة له بالقاء الدروس، جاءت استجابته لهن متمثلة بتأليف كتابه «مرشد أخوات الآخرة والايمان»، وهو من كليات رسائل النور، أودع فيه آراءه، حول العديد من قضايا المرأة المسلمة، وما يعتور طريقها من

تحديات ومصاعب .. وكانت تلك الآراء - بحق - خير دليل للسائرات في طريق النور.

وهنا لابد من وقفة عجلى على أهم ما ورد من أفكار في هذا الكتاب، نظراً للأهمية التي تتسم بها. وتتأتى هذه الأهمية من لحاظين أساسيين هما:

أولاً: إنها وردت في سياق تاريخي، يمثل قمّة النضج الفكري للنورسي، إذا دبّجها يراعه وهو في آخر عمره، وبها يكون قد كلل تجربة طويلة ومريرة في آن معاً، كابد فيها ما كابد من معاناة، بسبب طبيعة الأجواء الكالحة التي أوجدها أتاتورك في سياسته الغشوم، الموجهة أساساً لمحاربة الإسلام ومظاهره ورجاله، وإشاعة الفساد على أوسع نطاق.

ثانياً: إن المرأة المسلمة في تركيا كانت الضحية رقم واحد، في تلك السياسة، وذلك من خلال المحاولات المحمومة لسلخها عن إسلامها، ودفعها عنوة الى تقليد سلوك المرأة الغربية، في طابعه السلبي خاصة، بكل ما يعنيه من تهتك وابتذال، وخروج على القيم والفضيلة، وتمرّد على أواصر الأسرة، والنأي عن التمسك بأهداب الدين! ومن أبرز مظاهر هذا التوجه الأتاتوركي؛ هو منع الحجاب وفرض السفور بالقوة وفي آن واحد، فقد لجأت السلطات الجائرة الى تطبيق ذلك عبر إجراءات رسمية صارمة، أوجدت مناخات غريبة عن قيم المجتمع المسلم وعاداته وتقاليده، ومن الواضح أن المرأة المسلمة في تركيا كانت هي المستهدف الأول، في هذا المخطط المسعور.

ولمواجهة التحديات الخطيرة هذه، كان لابدّ أن ينبري النورسي، وهو الذي نذر نفسه بلا حدود دفاعاً عن الاسلام، وإلى الحد الذي عزف فيه عن الزواج.

أشار النورسي الى سبب إقدامه على تأليف الكتاب فقال: «لقد كنت أشاهد في عديد من الولايات اهتمام النساء برسائل النور اهتماماً حاراً خالصاً. وحينما جئت مرة ثالثة الى مدرسة الزهراء المعنوية .. سمعت أن أولئك النساء الطيبات المباركات، أخواتي في الآخرة، ينتظرن مني أن ألقي عليهن درساً، على غرار ما يلقى في المساجد من دروس الوعظ والارشاد. إذ علمت اعتمادهن على دروسي التي تخص النور بما يفوق حدّي بكثير. بيد أني أعاني أمراضاً عدّة، مع ضعف وإنهاك شديدين حتى لا أستطيع الكلام ولا التفكير ومع ذلك سنحت بقلبي هذه الليلة خاطرة قوية، هي: أنك قد كتبت قبل خمس عشرة سنة رسالة «مرشد الشباب» بطلب من الشباب أنفسهم، وقد استفاد منها الكثيرون، بينما النساء هن أحوج الى مثل هذا «المرشد» في هذا الزمان.

فإزاء هذه الخاطرة، وعلى الرغم مما أعانيه من عجز وضعف، كتبت في غاية الاختصار لأخواتي المباركات ولبناتي الشابات بعض ما يلزمهن من مسائل، ضمن نكات ثلاث.

• إن الشفقة والحنان الكامنين في الأمومة، والتي تحملها بإخلاص حقيقي وتحية وفداء وفطرة سليمة، هما اللذان يوفران الحياة الأسرية قلعة الانسان الحصينة، ولاسيما المسلم، فهي كجنته المصغرة ودنياه الصغيرة.

• إن العلاج الناجع لانقاذ سعادة النساء من الافساد في دنياهن وآخراهن معاً، وإن الوسيلة الوحيدة لصون سجاياهن الراقية التي في فطرتهن من الفساد، ليس إلاّ في تربيتهن تربية دينية، ضمن نطاق الاسلام الشامل.

• إن الأذواق والمتع المحرمة فيها من الآلام والمتاعب أضعاف لذائذها. وقد أثبتت رسائل النور هذه الحقيقة بمئات من الدلائل المتينة. إن اللذة الحقيقية في هذه الدنيا إنما هي في الإيمان، وفي حدود الإيمان. وإن في كل

عمل صالح لذة معنوية، بينما في الضلالة والغي منقصة في هذه الدنيا أيضاً. إن في الإيمان بذرة جنة، وفي الضلالة والسفه بذرة جهنم».

وبعد أن يتحدث - بشيء من التفصيل - عن هذه النكات الثلاث، ينهي خطابه بتوجيه هذه النصيحة؛ «فلتكن الآن «رسالة الحجاب» - في المقدمة - و «مرشد الشباب» و«الكلمات الصغيرة» نائبة عني في إلقاء الدرس عليكن يا أخواتي الطيبات المباركات ويا من هن بمثابة بناتي من الصغيرات». دون أن ينسى حثهن على اقتناء رسائل النور وقراءتها أو الاستماع إليها، وبذا سيصبحن كاخوانهن طلاب النور.

وفي مقاله «بشرى .. وتنبيه» يوجّه النورسي رسالة خاصة بأركان مدرسة الزهراء تنطوي على بشرى مهمة الى العجائز، وتنبيه للآنسات اللائي يفضلن البقاء عازبات، إلى أن يجدن الزوج الكفء، ويظل النورسي يواصل نصائحه عبر ستة رجاءات يخصصها للمرأة المسلمة، وكلها تدور حول محور الإيمان والعفاف.

وتعد «رسالة الحجاب» أهم فصول الكتاب، وهي إضاءات استوحاها النورسي من الآية الكريمة: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾[١]، وتوقف أمام أربع حكم فقط من بين حكم غزيرة تضمنتها الآية المارّة الذكر، نشير إليها باختصار:

الأولى: إن الاحتشام والحجاب أمر فطري للنساء، تقتضيه فطرتهن.

الثانية: إن العلاقة الوثيقة والحب العميق بين الرجل والمرأة ليسا ناشئين عما تتطلبه الحياة الدنيا من حاجات فطرية فحسب، فالمرأة ليست صاحبة زوجها في حياة دنيوية وحدها؛ بل هي رفيقته أيضاً في حياة أبدية خالدة.

---

١ - الأحزاب : ٥٩.

الثالثة: إن سعادة العائلة في الحياة واستمرارها إنما هي بدوام الثقة المتبادلة بين الزوجين، واستمرار الاحترام اللائق والود الصادق بينهما، إلاّ أن التبرج والتكشف يخل بتلك الثقة، ويفسد ذلك الاحترام والمحبة المتبادلة.

الرابعة: المرأة - من حيث كونها مدبرة لشؤون البيت، ومأمورة بالحفاظ على أولاد زوجها وأمواله وكل ما يخصه - فهي تتصف بأعظم خصلة: الأمانة والثقة. إلاّ أن تبرجها وتكشفها يفسد هذه الأمانة ويزعزع ثقة الزوج بها، فتجرع الزوج آلاماً معنوية وعذاباً وجدانياً .. حتى أن الشجاعة والسخاء، وهما خصلتان محمودتان لدى الرجال، إذا ما وجدتا في النساء عُدّتا من الأخلاق المذمومة، لإخلالهما بتلك الأمانة والثقة، إذ تفضيان الى الوقاحة والإسراف..

وعلى هذا المنوال، يناقش النورسي عدداً من الشبهات التي دأب أعداء الإسلام على إثارتها، من قبيل؛ الرسول المزواج، وتعدد الزوجات، والرق .. ويبين بالحجة والمنطق مدى تهافت هذه الشبهات والنوايا المغرضة التي تقف وراءها.

ختاماً؛ كان هذا غيضاً من فيض، فالنورسي الذي أوقف حياته كله للإسلام كان أشبه بالأسطورة، في عالمنا المعاصر، ويظل أي حديث قاصراً عن الإلمام بخدماته وعطائه .. وعذاباته.

المراجع

١ - احسان قاسم الصالحي ((بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره))، ط ٢، اسطنبول، ١٩٨٧.

٢- د. محسن عبد الحميد، ((النورسي الرائد الاسلامي الكبير))، الموصل، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٣- بديع الزمان سعيد النورسي ((مرشد أخوات الآخرة والإيمان)) ترجمة إحسان قاسم الصالحي، بغداد، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤- رائد الصحوة الاسلامية في تركيا: (كراس)، من منشورات دار سوزلر.

من مظاهر الانحطاط الحضاري

أطفال للبيع !

تناقلت وكالات الأنباء ذات مرة، خبراً مفاده أن السلطات الإيطالية، قد ألقت القبض على عصابة، من سبعة أفراد، تقوم بمهمة المتاجرة بالأطفال، وذلك بتهريبهم من موطنهم (الصومال) ومن ثم تتم عملية بيعهم على مؤسسات مبثوثة في أوربا وكندا..

وأضاف الخبر: إن أعمار الأطفال، تتراوح ما بين السنة السادسة والثانية عشرة، ويباع الواحد من هؤلاء الأطفال بسعر يصل ثلاثاً وثلاثين ألف دولار.. كما أن أفراد العصابة يتظاهرون بأنهم آباء للأطفال الضحايا، ومن بين أبرز عناصر هذه العصابة، رجل صومالي يمتهن المحاماة في العاصمة الإيطالية روما!

إلى هنا، ينتهي الخبر؛ لتبدأ تساؤلات ملّحة حول شيوع ظاهرة المتاجرة بالأطفال، والتي أخذت تستفحل بشكل مخيف ومدهش، في السنين الأخيرة، فضلاً عن أنها لم تنحصر في بقعة محددة من أرجاء العالم، بل إنها راحت تتسع، وعلى نطاق واسع. فيما تتخذ الأهداف الكامنة، وراء استغلال الأطفال، أبعاداً شتى، ولعل من أخطرها الجوانب اللاأخلاقية.

ولم يكن الخبر الذي أوردناه حول (عصابة روما) سوى واحد من مئات النماذج التي تنتشر في مناطق شاسعة من عالم اليوم، إذ لم تعد مقولة (كل الطرق تؤدي إلى روما) منطبقة على الواقع الراهن .. فليست روما سوى ملف فرعي من

سجل الجرائم التي ترتكب عبر استغلال الأطفال جنسياً لأغراض تجارية، والذي بات خطراً في طور التوسع.

مؤتمر دولي لمكافحة الظاهرة

وبسبب تفاقم ظاهرة المتاجرة بالأطفال، سارعت دول ومؤسسات معنية، إلى عقد مؤتمر دولي لمكافحة هذه الظاهرة الخطيرة. وبالفعل انعقد في العاصمة السويدية استوكهولم، للمرة الأولى، مؤتمر دولي لمكافحة الدعارة والاستغلال اللاأخلاقي للأطفال والمراهقين، وذلك في آب ١٩٩٦م، اشترك فيه حشد من الأطباء، وعلماء الاجتماع، ورجال القانون، وممثلو عدد من المؤسسات المتخصصة، في محاولة لتقديم ردّ دولي على هذه الممارسة اللاإنسانية.

وفي إحصاء لمنظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة والأمومة (يونيسيف) فإن آلافاً من الأطفال يستغلون يومياً، أو يستدرجون، أو يباعون كبضاعة جنسية في سوق الدعارة العالمية، التي تشهد اتساعاً متزايداً، وتقدر أرباحهم في هذه السوق بمليارات الدولارات[١].

وعلى خلفية الأرقام المثيرة للرعب، اجتمع في استوكهولم، طيلة خمسة أيام، أكثر من ألف مندوب من ١٢٦ بلداً وخمسين منظمة دولية أو غير حكومية، لصياغة ردّ دولي منسق على استغلال الأطفال والمتاجرة بهم جنسياً.

وقد افتتح رئيس الوزراء السويدي غوران بيرسون، بحضور الملكة سيليفيا، هذا المؤتمر الدولي الأول من نوعه، الذي تبرز أهمية عقده مع تزايد عمليات خطف الأطفال، وكشف شبكة دولية لاستغلالهم لا أخلاقيا في بلجيكا.

---

١ - صحيفة الجهاد، ع ٧٥٩، ١٠ ربيع الثاني ١٤١٧هـ - ٢٦ آب ١٩٩٦م.

وعشية انعقاد المؤتمر أوضحت جون كاين، المستشارة في منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة «يونيسيف»، والمتحدثة باسم المؤتمر، أن قضية دوترو «في بلجيكا» نبّهت الرأي العام الأوربي، وأظهرت بطريقة مأساوية ما كنّا نعرفه جميعاً، على مستوى الحكومات أو المنظمات غير الحكومية، أن الاستغلال اللاأخلاقي للأطفال ليس وقفاً على تايلند أو البرازيل بل يمارس عملياً أيضاً في جميع البلدان.

مليون طفل ضحية.. سنوياً !

وفي مواجهة هذا السيل الذي يرمي سنوياً بأكثر من مليون طفل الى أسواق المتاجرة بهم، والتي تدر مليارات الدولارات؛ تبنى المشاركون في مؤتمر استوكهولم إعلاناً وبرنامج عمل، يحدد الأولويات، في مجال التنسيق والتعاون، على المستويات المحلية والوطنية والدولية، لحماية الأطفال الذين تعرضوا للاستغلال، وإعادة تأهيلهم، ومنع سقوط المزيد من الضحايا.

وقبيل انعقاد المؤتمر، أشار لارس لوينباك، السفير في وزارة الخارجية السويدية، والمسؤول الصحفي للمؤتمر إلى أن الأمر لا يتعلق بمؤتمر دبلوماسي، والنص الذي سيتم تبنّيه، لن تكون له فاعلية المعاهدة أو القانون، لكن تأثيره سيكون كبيراً - بالتأكيد - نظراً لمستوى المشاركة الدولية[1].

فبرغم الطابع غير الرسمي للمؤتمر، وتنوع المشاركة فيه، من حكومية إلى منظمات غير حكومية ومنظمات دولية، فإن قرابة خمسين وزيراً أو نائب وزير للعدل أو للشؤون الاجتماعية أو الصحة أو تنظيم العائلة تحدثوا خلاله، حتى أن ألمانيا أوفدت وزير خارجيتها كلاوس كينيكل، على غرار بلجيكا وكندا ولاوس، في حين تتمثل كمبوديا برئيس وزرائها، بينما ترأست زوجة الرئيس

---

١ - صحيفة كيهان العربي، ع ٣٧٣٨، ١١ ربيع الثاني ١٤١٧هـ - ٢٧ آب ١٩٩٦م.

الكولومبي، جاكين شتراوس دوسامبر، والأميرة ماريا تيريزا من لوكسمبورغ وفدي بلديهما.

أما الوفد الفرنسي، فقد رأسه سكرتير الدولة لشؤون العمل الإنساني، كزافييه يامانويلي، في حين رأس الوفد الأمريكي، مساعد وزير العدل لوري روبنسون.

المؤتمر .. وقائع وأفكار

ونظراً لاتساع نطاق الظاهرة وما يرافقها من أساليب، وما يترتب عليها من نتائج وخيمة، فإن المؤتمر ناقش تسعة موضوعات تشمل الأشكال الرئيسية للدعارة وبيع الأطفال. تضمن برنامج المؤتمر ثلاث فقرات: فبعد خطب رؤساء الوفود، وتبني إعلان استوكهولم وبرنامج العمل، اجتمع كبار الموظفين والخبراء القانونيين، وخبراء الصحة والناشطون في المنظمات، في إطار ٥٧ لجنة مختلفة، لتحديد حجم المشكلة والاستفادة من تجاربهم، والخروج بأفكار ووسائل جديدة لمحاربة هذه الآفة الاجتماعية الخطيرة.

وفي اليومين الأخيرين للمؤتمر، انعقدت اجتماعات على المستويين المحلي والوطني، لوضع خطط عمل على مستوى كل دولة. ولا يقتصر الأمر هنا على المناقشة فقط، بل يتعلق بفتح الطريق أمام خطوات عملية.

واختتمت ملكة السويد سيلفيا المؤتمر، بعدما أثارت في تموز من العام ذاته جدلاً في بلادها، عندما طالبت بسن قانون جديد يحظر الأفلام اللاأخلاقية على الأطفال[١].

ومهما قيل حول المؤتمر، بأنه يشكل خطوة متقدمة بعد تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٨٩اعلان حقوق الطفل الذي صادقت عليه ١٨٧دولة.. فإن

---

١ – م. ن.

ثمة شكوكاً تساور العديد حيال إمكانية المجتمع الدولي - والغربي تحديداً - في معالجة واستئصال هذه النخاسة الجديدة، بكل ما تتسم به من انحطاط، وإفلاس أخلاقي، وجريمة بحق الإنسانية!

أمريكا نموذج الجريمة

وما يدعونا إلى القلق البالغ إزاء هذه الظاهرة، التي أخذت تتفاقم وتحفر أخاديدها العميقة في المجتمع الغربي الذي أمسى منخوراً بشكل مفزع، مما يدلل على أن ظاهرة بيع الأطفال هي عرض لمرض خطير، ومن العبث معالجة العرض، وترك المرض ! وليس أدل على ذلك من أن أمريكا - وهي طليعة العالم الغربي وانموذجه الحضاري ينوء كاهلها اليوم تحت وطأة الجرائم، وخاصة فيما يتعلق بجريمة الجنس !

وقد أعلن الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في شهر حزيران من العام نفسه إنشاء سجل وطني خاص يضم أسماء الأشخاص الذين أدينوا بجرائم متعلقة بالجنس، ووضعه تحت تصرف الشرطة والمجتمع: حيث يستقر هؤلاء بعد أنقضاء عقوبتهم. ولم ينس كلينتون وهو في غمرة القيام بحملته الانتخابية، هذه القضية التي تلقي بظلالها الكئيبة على المجتمع الأمريكي، إذ اعترف بأن : «كثيراً من الأولاد وعائلاتهم دفعوا ثمناً باهضاً جداً لأنهم كانوا يجهلون الأخطار التي يخفيها مجتمعهم».

وأشار كلينتون حينئذ إلى أن الكونغرس كان عاكفاً على دراسة مشروع قانون لإنشاء سجل وطني، وأنه شخصياً يريد تسريع بحث هذه القضية. وقد أمهل وزارة العدل ستين يوماً لوضع مقترحات بهذا الشأن، وتأتي مبادرة الرئيس الأمريكي بعد إقرار ما عرف بقانون «ميغان»، «نسبة الى طفلة في السابعة، تعرضت للاغتصاب والقتل، على يد رجل سبق أن أدين مرارا بارتكاب جرائم جنسية».

ويلزم القانون السلطات القضائية، بإبلاغ السلطات المحلية بمكان إقامة أي شخص يحكم عليه في جرائم جنسية[1].

واستناداً إلى تقرير أعدته وزارة العدل الأمريكية عام ١٩٨٧ فإن ٢٧ ٪ من مرتكبي جرائم الاغتصاب يعاودون هذه الجريمة، في السنوات الثلاث التي تلي الاغتصاب الأول.

وفي بريطانيا...حاميها حراميها !

وتتخذ المأساة بعداً آخر في بريطانيا. إذ أن الأطفال في هذا البلد الأوربي، لم يكونوا ضحايا أشخاص دأبوا على ارتكاب الجرائم الجنسية مع الصغار، بل إنهم ضحايا منازل الرعاية التي تشرف عليها الدولة نفسها!!

وفي أعقاب افتضاح الأمر، دعا رئيس الوزراء البريطاني جون ميجر، إلى البدء في تحقيق وطني شامل في قضية انتشار الاعتداءات الجنسية والجسدية على مئات الأطفال المقيمين في منازل الرعاية، في مدن ومقاطعات مختلفة. وقال ميجر إنه ذعر لسماعه لأجواء الخوف والعذاب، التي مر بها هؤلاء الأطفال في إثناء أقامتهم، في منزل الرعاية في سنوات السبعينات والثمانينات.

وطالب رئيس الوزراء البريطاني بأجراء تحقيق قضائي آخر منفصل، حول قضية منازل الرعاية في مقاطعة (كلويد) في (ويلز) حيث تعرض أكثر من ١٠٠ طفل لاعتداءات جنسية وجسدية، من قبل بعض العاملين، في أثناء اقامتهم في السبعينات والثمانينات، وتوفي من هؤلاء على الأقل ١٢صبياً، في حوادث ذات علاقة بالتجارب المرعبة التي مروا بها[2].

---

١ – صحيفة المستقبل (لندن)، ع ١١٢، ١٥ صفر ١٤١٧هـ – ١ تموز ١٩٩٦م.

٢ – صحيفة المسلمون (لندن)، ع ٥٩٤، ٥ صفر ١٤١٧هـ – ٢١ حزيران ١٩٩٦م.

ويأتي قرار إجراء التحقيق، في فضيحة الاعتداء على الأطفال، في منازل يفترض أنها أعدت لرعايتهم، بعد أن حرموا من رعاية ذويهم لهم، لأسباب مختلفة بعد حملة بدأتها صحيفة «الأندبندنت» البريطانية، عندما كشفت عن تقارير غير منشورة ودعاوى ضد عاملين في منزل للرعاية في «كلويد» و«شيشر» بعضها تابع للسلطات المحلية.

وتعرض أطفال صغار، بعضهم لم يتجاوز السادسة، لاعتداءات جنسية متكررة في أثناء أقامتهم في منازل الرعاية في السبعينات والثمانينات، ومكثوا سنوات طويلة، قبل أن يتمكنوا من الحديث عن التجارب المريرة التي مروا بها، والذين شكوا للسلطات في تلك الفترة، ولم يسمع كلامهم في الغالب، أو نقلوا إلى منازل في أماكن أخرى.

منازل رعاية أم أوكار دعارة ؟

وفي هذا السياق، أعربت هيئات وشخصيات معنية برعاية الأطفال، عن ترحيبها بقرار التحقيق، من ضمنهم «آلان ليفي» الذي أعد تقريراً عن الاعتداءات على ١٥٠ طفلاً، في مقاطعة «سترانفورد شير» في السنوات ما بين ١٩٨٣- ١٩٨٩م.

وقال «ليفي» : هذه خطوة إلى الأمام، وهي مهمة بالنسبة للأطفال،حيث تعني أنه بعد كل هذه السنين، تمكنوا من إسماع صوتهم لأول مرة على المستوى الوطني، الأصوات في النهاية وصلت إلى مستوى الحكومة، مشيراً إلى أن «التحقيقات يجب أن تجري بسرعة وأن يتبعها تحرك عملي».

يشار إلى أن التقرير الذي أُعد حول منازل الأطفال في «كلويد» مُنع من النشر، من قبل السلطات المحلية هناك، فيما شهدت «شيشر» حينذاك أكبر عملية تحقيق في قضية الاعتداء على أكثر من ٣٠٠ طفل، في منازل الرعاية التابعة لها، في الفترة مابين عام ١٩٦٠ إلى ١٩٩٣ م.

وكانت فضيحة (شيشر) موضوع تحقيق هائل أجرته شرطة المقاطعة، وشمل البحث عنه جميع الذين سكنوا في دور الرعاية منذ الستينات، والبالغ عددهم نحو ٢٥٠٠ شخص. لكن استمرار التحقيقات والقضايا المطروحة أمام المحاكم؛ حال دون الكشف عن الفضيحة والإدلاء بأسماء المشمولين فيها.

واستطاع فريق التحقيق اقتفاء أكثر من ٢٠٠٠ من النزلاء السابقين في هذه المنازل ومساءلتهم، وقال أكثر من ٣٠٠ منهم إنهم تعرضوا لاعتداءات في أثناء فترة عيشهم في تلك المنازل.. وقد ساعد النظام المعمول به في منازل الرعاية في الفترة الماضية العاملين على الاستمرار في اعتداءاتهم على الأطفال، دون رقابة، لعقود من الزمن، ومن بين الفضائح الكبرى التي سلطت الأضواء على المشكلة، الاعتداءات الجنسية التي تعرض لها أكثر من ١٠٠ طفل في (ستراتفوردشي) في الفترة ما بين ١٩٧٣م و ١٩٨٦م، والتي اعترف فيها (فرانك بيل) الذي يدير عدداً من هذه المنازل باغتصاب الأطفال والاعتداء عليهم[١].

وأجريت تحقيقات أيضاً حول الاعتداء على ٦١ طفلاً في (ايسلنجتون) شمال لندن عام ١٩٩٥، مما يشي أن شبكة للميالين لممارسة الجنس مع الأطفال، تعمل بشكل متواصل منذ السبعينات، وفي مناطق مختلفة. وذكرت قضايا مماثلة أيضاً في عدد من المدن البريطانية.

ودفع ظهور بعض القضايا أمام المحاكم، عشرات الشبان للحديث عن التجارب المرعبة التي مروا بها في طفولتهم، وبالنسبة لعدد منهم فإن التجربة كانت أكبر من قدرتهم على التحمل، وانتهت حياتهم بالانتحار[٢].

---

١ م. ن.

٢ – م. ن.

من إفرازات حضارة الغرب

وبعد هذا كله لا نحسب أن بمقدور مؤتمر دولي أو إجراءات رسمية إيقاف هذا التداعي المخيف، طالما إن النمط الغربي الغارق في حمأة المادة، واللاهث وراء الملذات والشهوات والاستحواذ على المال بكل الأساليب، بما فيها غير الشريفة.

وإزاء الأرقام المثيرة للمخاوف إلى حد الهلع، بخصوص المتاجرة بالأطفال، لا يمتلك المرء إلاّ أن ينعى الحضارة الغربية التي يسعى بعض أبناء المسلمين الجري خلف سرابها الخادع، دون إدراك لمدى المخاطر والكوارث التي تنطوي عليها.

ومن نعم الله سبحانه، أن المجتمعات الإسلامية تخلو من هذه الظاهرة الخطيرة بسبب تماسك نظام الأسرة، وإن كان هذا لا يعفينا من الإشارة إلى وجود بعض أطفال المسلمين الذين قد راحوا للأسف الشديد، ضحية هذه النخاسة الحقيرة. وخاصة من أبناء الدول التي تعرضت لمخططات التدمير، ورزحت تحت ضغوط أدت إلى تفكك قسري في عرى الأسرة. وما الجرائم التي ارتكبت ضد مسلمي البوسنة والهرسك، إلاّ دليل صارخ على ما نقول.

ففي غمرة الهجمة الصليبية التي نفذها مجرمو الصرب - بدعم ومباركة الصليبية الجديدة - أقام دهاقنة الشر وتجار الجريمة بسرقة آلاف الأطفال المسلمين، وقاموا بتحويلهم إلى أوربا وأمريكا الشمالية، بغية تعميدهم ومن ثم تنصيرهم، أو المتاجرة بهم جنسياً، أو استخدامهم كخدم في البيوت والمؤسسات التنصيرية، في أحسن الأحوال !

ولما كانت الصومال - وما تزال - تشهد وضعاً مأساوياً، بفعل استمرار الحرب الأهلية، استغل بعض الخونة من أبناء هذه الأمة الظروف القاسية والاستثنائية، ليسطوا على أطفال المسلمين، والمتاجرة بهم في سوق النخاسة الدولي، قبال حفنة من الدولارات !

إن هذه الظاهرة التي أخذت تستشري تتطلب وقفة وموقفاً. وقفة لتشخيص الظاهرة ودراسة جذورها وأسبابها بعمق وموضوعية.. وموقفاً شجاعاً مع الذات. حتى ولو تطلب الأمر إعادة النظر في مجمل المسلك الاجتماعي العام..

وإذا ما توفرت النوايا الصادقة، والجهود الجادة، فإن النتيجة الوحيدة التي سيصل إليها الجميع؛ هي أنه ليس هناك من نظام اجتماعي بمقدوره انقاذ البشرية من هذه الكارثة سوى نظام الأسرة في الإسلام. فهو وحده القادر على إيجاد عائلة متماسكة.. يعيش في بحبوحتها أطفال سعداء، بعيداً عن السماسرة الكبار.. والصغار.

المرأة البريطانية
استطلاع لكشف الخلل

فيما تدشن البشرية دخولها الألفية الثالثة، تتكشف حقائق وأرقام عن العديد من إشكاليات الواقع الذي يعيشه الإنسان المعاصر، وخاصة في ديار الغرب التي من المفترض أن يكون فيها المرء أقل تعرضاً من غيره لتحديات العصر؛ نظراً للتطور الهائل في مجالات العلم والتكنولوجيا، وأساليب الترفيه وارتفاع مستوى المعيشة، والتمتع بحقوقه كإنسان أولاً، ومواطن قبل أي شيء.

إن هذه الصورة تقترب من الرومانسية، حينما يتم الرصد من الخارج فقط دون الغور في مكامن النفس الإنسانية، وهذا لا يكفي لتقييم الحالة كلها. و«بالخبز وحده لا يحيا الإنسان» كما يقول سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام. فالإنسان عواطف ومشاعر وأحاسيس.. وحيوان اجتماعي، وليس عقلاً محضاً أو سلوكاً رتيباً، يكاد يكون كالآلة!

وإذا ما أردنا الاقتراب أكثر فأكثر من المشهد الإنساني، فإن استطلاعات الرأي تعيننا كثيراً على فهم أعمق لاتجاهات الناس وطبيعة همومهم ومعاناتهم.. وتصوراتهم.

و لمّا كان هذا الأمر ذا آفاق رحبة كما هي النفس الإنسانية وليس بالامكان

استعراض العديد فسنكتفي هنا باستطلاع واحد معزّز بالأرقام حول معاناة المرأة في بريطانيا.

في هذا الاتجاه تشير نتائج استطلاع الرأي الذي أجري لصالح مجلة (اليورا) ربيع عام ٢٠٠٠م إلى أن ٢٦٪ من النساء، يشعرن بخوف، وهن بمفردهن في الشوارع في الليل، في حين قالت ٦٧٪ من النساء اللاتي شملهن استطلاع الرأي، إنهن يرغبن في وجود مزيد من قوات الشرطة في الشوارع، وخاصة تلك التي يحتمل وقوع جرائم فيها.

ليس هذا وحسب، بل كشف استطلاع الرأي عن تحوّل في آراء البريطانيات فيما يخص درجة الأولوية ما بين العمل، والعلاقة مع الرجل، فقد تزايد عدد النساء اللائي يعتقدن أن الحياة العائلية أهم من النجاح في العمل؛ حيث قالت ٣٩٪ إن العثور على الرجل المناسب أهم من النجاح في العمل، في مقابل ٣٣٪ فضلن النجاح في العمل على النجاح في العلاقة مع الرجل، بينما قالت ٤٤٪ من النساء إن العمل لفترة دوام كامل تتسبب في مشكلات في العلاقات الاجتماعية نتيجة لضيق الوقت الذي تقضيه المرأة في البيت مع زوجها وأطفالها.

وما زالت النساء البريطانيات، يعتقدن بقوة، إنهن لا يعاملن نفس معاملة الرجل في مكان العمل، إذ أشارت ٧٣٪ ممن شملهن الاستطلاع، أن عليهن بذل مجهود أكبر حتى يتمكن من تحقيق نفس النجاح الذي يحققه الرجال في العمل.

كما أعربت ٦٤٪ من النساء، عن اعتقادهن أن الرجال يشعرون بالضيق من نجاح المرأة، وقالت واحدة من كل عشر نساء إنها تشعر بالندم على أنجاب الأطفال فيما اعترفت ١٥٪ منهن، بأنهن لجأن إلى الإجهاض للتخلص من طفل غير مرغوب فيه.

وعلى هذا المنوال يمضي استطلاع الرأي الذي أُجري في بريطانيا؛ ليلقي الضوء على المزيد من هموم المرأة البريطانية وتطلعاتها، وهي تودع قرناً كان صاخباً بكل المقاييس، خاصة فيما يتعلق بقضايا المرأة، وتستقبل قرناً آخر لا تقف المرأة وحدها فيه على مفترق طرق خطيرة، بل البشرية جمعاء يستبد بها القلق من المصير المجهول.

وهنا لابد من الإشارة إلى أننا لسنا في معرض محاكمة حضارة الغرب، كما لا نستهدف فتح ملف المرأة في الغرب، بيد أن ذلك لا يعفينا من ابداء بعض الملاحظات السريعة حول ما ورد من نتائج في استطلاع الرأي آنف الذكر:

أولا: إن الأزمة الحضارية التي تكتنف الغرب لا تخص منحى دون آخر، ولا جنساً بعينه، فالوضع الإنساني كله مأزوم، وخاصة الاجتماعي والنفسي والأخلاقي.

ثانيا: إن هناك احساساً عميقاً بافتقاد الأمن الاجتماعي؛ وذلك بسبب شيوع الجرائم، وتفشي الانحلال الأخلاقي، وطغيان الفهم المادي للحياة.. مما أدى إلى تزايد المخاوف لدى قطاع واسع من المجتمع، وفي المقابل ازدادت الحاجة إلى الشعور بالأمن. وهذا ما عكسته نتائج الاستطلاع حينما رغبت ٦٧٪ من النساء، بتشديد رقابة الشرطة في الشوارع.

ونرى من اللازم التنويه إلى أن بريطانيا التي تصنف عادة ضمن المجتمعات المحافظة، أخذت تشهد حالات مثيرة للقلق على صعيد الوضع النفسي، وتزايد الجريمة وارتفاع مؤشر الإدمان. فقد شهدت الساحة البريطانية في السنين الأخيرة بخاصة، المزيد من مظاهر الخلل البنيوي للمجتمع، كبروز الظاهرة العنصرية ضد الأجانب، وبالذات الملونين، وتكرار حالة الهجوم على مدارس الأطفال واختطاف بعضهم، في حين بلغت خطورة الإدمان درجة مخيفة. إذ تؤكد إحصائيات موثوقة أن نحو ١٤ مليون يوم عمل، تضيع في بريطانيا سنوياً بسبب

إدمان بعض العاملين، على المشروبات الكحولية، وانقطاع المدمنين عن العمل بنسبة تزيد أربع مرات على غير المدمنين.

إن هذا الرقم لا يثير الاستغراب وحسب، بل ويثير الهلع أيضاً .. ويزداد الأمر سوءً لدى الالتفات إلى الوجه الآخر المكمل للمأساة، المتمثل بكون الإدمان في بريطانيا يكلف سنويا أكثر من ٨٠٠ مليون جنية إسترليني!!

ثالثا: بعد قرن ونصف من دعوات تحرير المرأة للخروج من البيت والانغماس في العمل تحت ذريعة تحرر المرأة، ووقوفها على قدم المساواة مع الرجل.. هاهي تكتشف مدى زيف هذه المقولات وتهافتها، فمازالت المرأة رغم كل محاولات التزييف تحن إلى حضن العائلة بكل ما يعنيه من دفء و أمومة وكرامة وقيم. إنها عودة الوعي بالنسبة لقطاع مهم من الوسط النسوي، لا في بريطانيا وحدها وإنما في ديار الغرب عموما.

رابعا: من مظاهر الوعي الايجابية، هي اكتشاف المرأة البريطانية خطل تلك المحاولة التي دأبت على زج المرأة في معترك الحياة، وفي خنادق لم تخلق لها المرأة. بحجة إثبات مساواتها للرجل، لتعبر نسبة عالية من النساء البريطانيات عن شكوكهن في صدق هذا الادعاء، من خلال نظرة الرجل البريطاني المتعالية على المرأة، حتى وقت الناس هذا.

وتبقى ظاهرة الإجهاض شاهداً شاخصاً على مدى الإجحاف الذي لحق بالمرأة الغربية، من جراء لهاثها وراء سراب حضارة الغرب. فالإجهاض ليس سوى النتيجة الطبيعية لانتشار العلاقة المحرمة بين الرجل والمرأة من جهة، ولشيوع التحلل الأسري والانهيار الأخلاقي من جهة أخرى.

وتظل الأرقام التي أفرزها الاستطلاع، دليلاً على سقوط حضارة الغرب،

وزيف مقولاته حول المرأة التي حولوها هناك إلى سلعة رخيصة.. وهي التي كرمها الله.. وعزّز مكانتها كمربية للأجيال.

إن هذا النموذج، يعكس مرارة تجربة كاملة، ولأكثر من جيل، وهي نتيجة طبيعية حتمية لكل التيارات التي تركت شرع الله وراءها لتلهث خلف السراب.

المأزق الحضاري يستفحل في الغرب
الشباب والمرأة نموذجا

يوماً بعد آخر، تتزايد مظاهر «المأزق الحضاري» للغرب، وتتعمق أخاديده، وتتشعب منحنياته البيانية، إلى الحد الذي غدا فيه الوضع مثيراً لا للقلق فحسب، بل وللفزع والهلع.

ولئن ألف البعض منا - نحن المسلمين - كل ما تزخر به حضارة الغرب، ودون أدنى حساسية لما تعانيه من خواء، فإننا لانعدم من ينبري للوقوف في وجه هذه الحضارة، من بين أبنائها أنفسهم، ليطلقوا صيحات التحذير، وليعلنوا عن رفضهم وشجبهم لمسارها، الذي يسحق بلا رحمة قيم الإنسان وكرامته وآدميته.

والمثير هو اتساع ظاهرة الشجب، بشكل خاص، في صفوف الشباب والنساء.. ولا يحتاج المرء إلى التعمق في دراسة أسباب ذلك، لكي يكتشف أن هاتين الشريحتين هما الأكثر تضررا بمساوئ الحضارة المادية، حتى أمستا ضحيتين، بل كبش الفداء!!

وليس أدل على ذلك من هذا القلق الذي أخذ يقض مضاجع علماء الاجتماع والتربية والنفس وخبراء السياسة والاعلام والأمن، على خلفية تفشي حالات التمرد بين أوساط الشباب.

وإذا ما أخذنا المجتمع الأمريكي نموذجاً، فلاعتباره يحتل المرتبة الأولى

في دنيا السياسة والاقتصاد والتسلح.. ناهيك عن أنه يعتبر النموذج المحتذى، لدى الكثير من المجتمعات التي جرفها تيار الاستلاب.. ولا ننسى أنها تتسنم المرتبة الأولى في الاجرام أيضاً!

ومن الأمور التي يعيها أبسط المتابعين، لما يجري في العالم من أحداث ساخنة أو غير ساخنة، هو محاولة واشنطن دسّ أنفها في كل شيء، خصوصاً فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان، وكأنها صاحبة الوصاية على الانسانية جمعاء.

ومن الغريب أن تمارس الإدارة الأمريكية سياسة عنصرية ضد قطاع واسع من مواطنيها، وتحديداً الملونين، والمنحدرين من أصول لاتينية، فضلاً عما تتعرض له المرأة الأمريكية من امتهان وحيف..

فعلى صعيد الشباب التائه والمضطرب نفسياً، تتواصل حملات القمع وخاصة ضد الملونين حتى اتخذت أشكال التمييز أبعاداً خطيرة. وهذا ما ترك انعكاسات عميقة على نفسية الشباب الملونين؛ نظراً لما يرونه من ازدواجية في التعامل، فقد أظهرت دراسة أمريكية أن احتمال الحكم بالسجن على شاب أسود، في تهمة ما، يفوق احتمال الحكم على شاب أبيض بذات التهمة، بستة أضعاف.

وقد التفتت صحيفة «بوستن كلوب» إلى هذه المفارقة الصارخة، وأعربت عن مدى الاحباط إزاء تلك النتائج، وتناولت بالنقد، الحملة القمعية التي تقوم بها السلطات الأمريكية حيال الشباب الذي يتطلع إلى حياة حرة كريمة. ومما قالته الصحيفة في هذا الصدد؛ «من الضروري أن تقف الأجهزة المعنية موقفا متشددا ضد الجريمة، ولكن تلك السياسات بالإضافة إلى إثارة الظلم العنصري لا تعد بالضرورة سلاحاً فاعلاً».

وقد قارنت دراسة أخرى أجرتها جامعة كولومبيا بين الأحداث المتهمين بجريمة السطو، في ولاية «نيوجرسي»، بأولئك المتهمين بالمحاكمة ذاتها في

ولاية نيويورك، حيث يقضي قانون بتحويل تلك القضايا إلى محاكم الراشدين بصورة آلية. ويعمد الذين يمثلون أمام محاكم الراشدين إلى ارتكاب جرائم أخرى، في وقت أكثر وأسرع خطورة. إن انتشار أنواع الأسلحة النارية في أيدي الأحداث والمراهقين، أدى إلى ارتكاب آلاف الجرائم، سواء في الشارع العام، أو في المدارس. وقد شاهد الرأي العام نماذج مرعبة لما حصل في العديد من الولايات الأمريكية، وقد راح ضحية ذلك العشرات من الطلاب الصغار.

ويبقى الحديث قاصراً عن عصابات السطو، ومافيا المخدرات، والجريمة... ويكفي أن البيت الأبيض محاط ببؤر تمارس شتى أنواع الجريمة. أمام مرأى ومسمع السلطات. وقد أتيحت لأحد الصحفيين الإسلاميين فرصة التجوال هناك، مع استعدادات وقائية عالية، ونقل مشاهداته التي تقترب من الخيال، ومما قال: إن هناك عصابات المافيا التي تتعاطى المتاجرة بالمخدرات، ولكل عدة أمتار يوجد رئيس عصابة مستقل، لا ينافسه في «مملكته» منافس!

كل ذلك يجري، على بعد عدة أمتار من البيت الأبيض! وهذا ما حدا بأحد المحللين أن يكتب مقالاً عن الإدارة الأمريكية بعنوان «أمريكا المهابة في الخارج .. المهانة في الداخل!» وتظل طريقة التعامل مع الملونين في أميركا إحدى علامات الاستفهام العالقة.

وطالما هزت المجتمع الأمريكي هذه الحادثة أو تلك. ولم تكن صورة الشاب الزنجي الذي مزقته رصاصات البوليس أمام داره.. سوى واحدة من آلاف الصور المفجعة لتعامل الرجل الأبيض مع مواطنيه.. فكيف يكون الموقف يا ترى مع بقية الشعوب، خارج نطاق حضارة الرجل الأبيض..؟!

وعودة إلى المرأة في أمريكا، والتي تجهد الأوساط الأمريكية، على إظهارها وكأنها نموذج لابد أن يُحتذى في المجتمع الإنساني، فإن قراءة سريعة للأرقام التي توضحها استطلاعات الرأي العام، أو تتوصل إليها الدراسات الخاصة

تظهر لنا مدى الغبن الذي يلحق بالمرأة الأمريكية خصوصاً، والإنسان بشكل عام. فعلى سبيل المثال، لا الحصر، قامت «جامعة كورفل» الأمريكية باستفتاء بين عدد من العاملات في الخدمة، جاء فيه أن ٧٠ ٪ منهن قد تعرضن لمضايقات واعتداءات جنسية!

وعلى هذا فإن المرأة الأمريكية خصوصاً، والغربية عموماً، هي الضحية الأولى لمعطيات الحضارة هناك، نظراً لما تحمله حضارة الزيف هذه من أعباء فوق طاقتها، وتثقل كاهلها، في العمل الوظيفي والذي يكون حتماً على حساب البيت والأسرة والأطفال، ثم الرجل المنهك بمشاغل الحياة المادية، والذي يحاول إغراق نفسه في الخمرة والميسر والملذات، في محاولة للهروب من واقعه.. كل ذلك ينعكس بشكل مفجع على المرأة ومزاجها وأعصابها وأحاسيسها.

لقد بدأت المرأة الغربية، تكتشف بوضوح، مكامن الخطر في مسارب الحضارة التي تعيش في ظلالها، وهناك صيحات لا يستهان بها للخروج من المأزق، وقد أخذت المرأة في ديار الغرب تخطو خطوات - وإن بدت لأول وهلة خجولة - في طريق الانعتاق من استعباد الحضارة لإنسانيتها، وقد تناقلت وكالات الأنباء أن مجموعة من الطالبات البريطانيات بجامعة أكسفورد العريقة، قمن بمظاهرة، خوفاً من السماح بالاختلاط في إحدى كلياتهن.

إنها أكثر من خطوة في مسيرة الألف ميل. وستصل المرأة الغربية ذات يوم وتدرك بأن خلاصها - بل وخلاص البشرية كلها - في انتهاج سبيل الإسلام... فهو وحده البديل الحضاري لأزمة الإنسان المعاصر المستفحلة.

المرأة والعمل

بين الآونة والأخرى، يثار موضوع المرأة، على امتداد القرن العشرين، وما زال الجدل يحتدم حوله أحياناً كثيرة، ما بين الآراء المتباينة والمآرب المختلفة.

ومنذ إصداره كتابيه تحرير المرأة:١٨٩٩م، والمرأة الجديدة: ١٩٠١م أثار قاسم أمين بأفكاره التي طرحها، نقاشاً واسعاً لم يتوقف إلاّ في بعض المحطات، وسرعان ما يعاود الظهور، من جديد.

ومع انطلاقة الصحوة الإسلامية الراهنة، أصبح وضع المرأة المسلمة مرة أخرى موضوع جدل ونقاش. فالكلام حول حق المرأة في العمل، وحريتها في الزواج والطلاق، ومساواتها في الشهادة والميراث، وغيرها من الأمور التي تنطلق في غالب الأمر من مواقف مسبقة، ومن قناعات إيديولوجية راسخة تقود أصحابها إلى هذا المنحى أو ذاك، فتغيب عن مواقفهم غالباً النظرة التاريخية والموضوعية.

وهكذا غدا موضوع «المرأة في الإسلام» محطّ اهتمام المفكرين الإسلاميين الذين يعملون على تحديد شخصية المرأة ودورها، في الفكر الإسلامي والشريعة الإسلامية، من أجل إعطاء الصورة المشرقة التي تتمثل في نظرة الإسلام إلى أنسانيتها الأصيلة، من حيث القيم الروحية، والإنسانية في عالمي الدنيا والآخرة.

ومن المسائل الحساسة التي تثير نقاشاً حاداً بين جبهتين: جبهة العلمانيين

الذين ينظرون بعيون التغريب، وجبهة الإسلاميين الذين ينطلقون من الإسلام فهما وهوية.. هي مسألة «عمل المرأة» التي أمست تناقش منذ بداية القرن الماضي، أي منذ بدأ الاحتكاك الفعلي مع الغرب.

من المفيد الإشارة إلى أن هذه «الإثارة» لم تعد مقتصرة على الساحة الفكرية، في عالمنا الإسلامي، وإنما أخذت تفرض نفسها على العديد من الساحات، بما فيها الغرب الذي أخذنا نسمع فيه الصيحات تتعالى، هنا وهناك، حول هذه النقطة. وبهذا يخطئ من يظن أن المسألة قد حسمت نهائياً في أروقة الغرب.

لا نريد الخوض في مظاهر التمرد المتنامي ضد الحضارة الغربية و افرازاتها، وخاصة في الوسط النسوي، الذي بدأ يتساءل عن قضايا المصير والهوية.. والذات. غير أن ذلك لا يعفينا، من وقفة قصيرة، أمام بعض الأرقام المهمة، ذات المغزى البعيد، في مسار الوضع الحضاري للإنسانية ككل، وفيما يخص المرأة بشكل خاص، باعتبارها نصف المجتمع. إذ قدمت الدكتورة «جوليندا أبو النصر» مديرة معهد الدراسات النسائية في العالم العربي بالجامعة الأمريكية في بيروت، ورقة عمل حول الفرص والتحديات التي تواجه دور المرأة في الإدارة للعام ٢٠٠٠.. ومما ذكرته : انه رغم أن المرأة حققت تطوراً ملموساً فيما يتعلق بدورها في المجتمع في كافة المستويات، إلاّ أن طاقة المرأة مازالت كامنة والواقع يشهد دوراً هامشياً للمرأة على صعيد القيادة في المؤسسات السياسية والاقتصادية والمهنية لا يعكس حقيقة امكاناتها وقدراتها، وأشارت إلى أن الإدارة ليست شيئاً جديداً بالنسبة إلى المرأة، وقد تعودت على ممارستها منذ البداية، فهي مديرة العائلة، وهذا النوع من الإدارة المتعلقة بتنشئة الإنسان، من أصعب الإدارات، خاصة في عالم الاتصالات والانترنيت الذي نعيشه.

وقالت الدكتورة جوليندا: إن تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٥ الصادر عن

هيئة الأمم المتحدة، يشير إلى أن المرأة تمثل ٧٠٪ من فقراء العالم!، وهي لا تشغل سوى ١٤٪ من الأعمال التنظيمية والإدارية و١٠٪ من المقاعد البرلمانية و٦٪ من المناصب الوزارية، ومازالت لا تتمتع بالمساواة في كثير من النظم القانونية، وكثيراً ما تعمل ساعات أطول من ساعات عمل الرجل، ولكن قدراً كبيراً من عملها يظل بلا تقييم ولا اعتراف ولا تقدير! كما أن أبواب الفرص الاقتصادية والسياسية مازالت تتفتح ببطء وعلى مضض!!

وهذا يعني - فيما يعني - أن المرأة الغربية مازالت تعيش تحت وطأة التميز، بالرغم من كل الشعارات المرفوعة، والتي تتاجر - في الأعم الأغلب - بقضايا المرأة المعاصرة. الأمر الذي استدعى الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تعلن في ١٩٦٧/١١/٧ ضرورة القضاء على ظاهرة عالمية، هي ظاهرة التمييز ضد المرأة.

وقد اهتمت منظمة العمل الدولية، بالحقوق الاقتصادية للمرأة، وسعت إلى إزالة التفرقة ضدها، في كل قوانين العمل المعمول بها في العالم. وأقرت المنظمة الدولية اثنتي عشرة اتفاقية دولية تنظم الإطار العالمي لتشغيل النساء، وتهدف هذه الاتفاقيات - في الأساس - إلى حماية المرأة من الاستغلال والتميز، كما حدث لها في المجتمعات الغربية الصناعية.

وحتى في المجتمعات الاشتراكية التي كانت تخضع لحكم الأحزاب الشيوعية، وبالرغم من الموقف النظري الدعائي من المرأة ودورها، نلمس تمييزاً ضدها وعدم ثقة بقدراتها. وهذا ما اعترفت به «هاوجينسكيو» العضو في سكرتارية الحزب الشيوعي الصيني، وفي خطاب ألقته بمناسبة «يوم المرأة العالمي» سنة ١٩٨٤ أكدت فيه أن ما أسمته بـ «التفكير الإقطاعي» القائل: بأن الرجال أفضل وأعلى مرتبة وأجدر من النساء.. مازال هو التفكير السائد في الصين الشيوعية.

ومن الجدير بالذكر أن المرأة في الصين تعتبر قوة عمل رئيسية حيث تمثل النساء في الوقت الراهن أكثر من ٣٦٪ من الشعب العامل في المدن، مع وجود نسبة تصل إلى ٨٠٪ في قطاعات النسيج والتجارة العامة، وحوالي ٦٪ في القطاع الطبي الصيني. ومع ذلك لا تضم الحكومة الصينية إلاّ ١١ امرأة بدرجة وزير أو نائبة وزير من مجموع الوزراء البالغ عددهم في الصين تقريباً مائتا وزير. ولا يضم المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني إلاّ امرأة واحدة هي «دنج يانجشاو» أرملة «شوان لاي» رئيس الوزراء السابق من بين ٢٣رجلاً. وهناك امرأة واحدة من الأعضاء المناوبين في المكتب السياسي هي «شين موهوا» وزيرة التجارة الخارجية. كل هذا بالرغم من وجود ما يزيد على خمسمائة مليون امرأة في الصين. فقضية التمييز ضد المرأة، أو فقدان الثقة بأهلية المرأة، أو تقليص حقوقها الاجتماعية والسياسية قضية عالمية.. تواجهها مجتمعات شتى في العالم، الصناعي والزراعي والرعوي.

وهكذا نجد المرأة في ظل الحضارة المادية، تعيش أوضاعاً شاذة، وحياة تعيسة وبالضد تماماً من كل التبجحات العريضة التي تطلقها الدوائر الغربية.. فعلى الرغم من دعاوى المدنية بتحرير المرأة، ونيلها حقوقها ومساواتها بالرجل، إلاّ أن مشكلة المرأة والعلاقة مع الرجل أصبحت خطراً يهدد سعادة المرأة والأسرة والمجتمع، وصارت هذه الدعوات سبباً لشقاء المرأة ومسخ إنسانيتها. وهاهي الأرقام والإحصائيات تخرج علينا في كل يوم بحقائق مفزعة، ووضعيات مؤلمة.. تشكل بمجموعها صوت النذير، وإرهاصات السقوط، وتفرض على أنسان هذه الحضارة أن يعيد النظر في فهمه وتصوره للجنس والمرأة والرجل والعلاقة الاجتماعية بينهما.

وفي الوقت الذي تتعمق فيه مأساة المرأة الغربية ومعاناتها، أخذت تتسع

دائرة الوعي، داخل الوسط النسوي، بأن المجتمع الغربي يستخدم المرأة كسلعة، ويلفظها حالما تستنفد أغراضها، ولهذا، تتزايد أعداد المسنّات بالذات في المصحات ومراكز رعاية المسنين.. كما تتزايد صيحات الشجب، وتتكاثر حالات التمرد لهذا الإفراز الحضاري المادي.

وفي المقابل، يعتبر الإسلام المرأة إنساناً مستقلاً، من الناحية القانونية كالرجل، وليس لأحد أية ولاية عليها إذا كانت بالغة رشيدة، إلاّ فيما تتنازل هي عنه بقرار شخصي على أساس التعاقد.

ومن هنا، ينبغي التأكيد على أن الإسلام بنى كل مفاهيمه وقيمه وتشريعاته الخاصة بالأسرة والمرأة، وعلاقتها بالرجل والمجتمع، منطلقاً من قاعدة علمية أساسية وهى الايمان بوحدة النوع الإنساني، وأن المرأة والرجل تجمعهما صفة الإنسانية، ولا فرق بينهما في هذه الحقيقة: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾[1].

فالرجل والمرأة في عرف الإسلام، يمثلان سكتي قطار الحياة. والإسلام لا يفرق بين رجل وامرأة من حيث الإنسانية، فهما من نفس واحدة، والأكرم منهما هو المتقي - رجلاً كان أو امرأة - وليس لديه مفاهيم ولا تشريعات خاصة برجل وآخر بامرأة، إلاّ بحدود ما يتعلق بطبيعة النوع في كل منهما، من الناحية التكوينية والوظيفة الحياتية، لذا فإن دعوى حقوق المرأة وتحريرها ومساواتها بالرجال في التعليم والسياسة والحقوق المدنية.. الخ، تعتبر دعوى غريبة على روح الإسلام، وليس في الإسلام مبدأ حرمان المرأة من حقوقها، حتى تطرح مثل هذه الدعاوى، وينادى بتحريرها وإعطائها حقوقها.

---

١ - الأعراف : ١٨٩.

فالإسلام ثبت لها حقوقها في اليوم الذي ثبت فيه للرجل حقوقه، وتعامل مع شطري المجتمع «الرجل والمرأة» تعاملاً إنسانياً على حد سواء، فهو بعد أن أقر بوحدة النوع الإنساني، وسحب الخصائص الإنسانية على كل من الرجل والمرأة على حد سواء جعل تشريعاته وقيمه كلها قائمة على أساس الإيمان بهذا المبدأ «وحدة النوع الإنساني» هذا النوع الذي حظي بتكريم الله سبحانه وعنايته الرؤوف.

أما ما نسمعه من دعاوى وحوار وصيحات، تنطلق من هنا وهناك، وصراع محتدم في مجتمعات المسلمين القائمة الآن، فهو صراع بين تيارين، لا علاقة للإسلام بهما، ولا رابطة لهما بالإسلام. هو صراع بين تيار إباحي، تسلل مع الغزو الحضاري والثقافي الأوروبي لعالمنا الإسلامي من جهة، وبين تيار متخلف يلتزم بعادات وتقاليد وضعية اجتماعية، خلقتها ظروف البيئة والتخلف عبر القرون عن المرأة وعلاقتها بالرجل والمجتمع والحياة من جهة أخرى، ولا ارتباط لها بمفاهيمه وأفكاره، بل هي وليدة تخلف المسلمين وظاهرة تدل على غياب العلاقات والمفاهيم الإسلامية.

ولا يصح تحميل الإسلام - كشريعة وقانون - مسؤولية تخلف المسلمين، ولا يجوز الحكم عليه - في أي موقع من مواقعه - بالصورة الاجتماعية المتخلفة التي يعيشها المسلمون بعد أن ابتعدوا عنه، وعزلوه عن ميدان العمل والتطبيق.

ونظرة سريعة إلى مكانة المرأة في الإسلام، تقودنا إلى الحقيقة التي تؤكد أن المرأة في الإسلام تتمتع - فضلاً عن حقوقها القانونية والمدنية - بمزيد من الرعاية والحب والحنان في المجتمع الإسلامي، فهي في رأي الإسلام حريّة بأن تُمنح هذا العطف، وتغمر بهذه المشاعر، أليست هي الأم الحنون ؟ أو الزوج الحبيب؟ أو البنت العطوف؟ وإن أصدق من يترجم هذه الحقيقة، ويعبر عنها هو

القرآن الحكيم، والسنة النبوية المطهرة: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾[1].

﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا﴾[2]، ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّي ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾[3].

ولعل الوضع الذي تشهده المرأة المسلمة في ظل التجربة الإيرانية الراهنة أفضل معيار نحتكم إليه، في واقعنا المعاصر، إذ إنها تمارس مهام العمل في مختلف المرافق الحياتية، بما فيها الحساسة. وتربو نسبة المرأة في حقول العمل والدراسة على ٤٠٪، وهو رقم عال جداً قياساً إلى أرقى المجتمعات الغربية. مما يدلل، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن الإسلام يكرم المرأة ويمنحها حق العمل والتعلم.

وأي زائر تطأ قدماه أرض إيران يلتمس هذه الحقيقة، ويكتشفها بدون أدنى عناء، فالمرأة الموظفة، والعاملة، والأستاذة، والرسامة، والمذيعة، والمترجمة، والكاتبة، والصحفية، كل أولئك النسوة يتحركن بفاعلية ونشاط دؤوب داخل مجتمعهن وبشكل متميز وفي إطار الالتزام بالشرع وارتداء الحجاب.. الأمر الذي يعطي أكثر من جواب، على أكثر من تساؤل مثار، حول كون الحجاب، أو الالتزام بالإسلام يشكل عائقاً، أمام قيام المرأة المسلمة بواجباتها المطلوبة؟ وهكذا يثبت الإسلام، من جديد صلاحيته لريادة المجتمع الإنساني، عبر مبادئه العظيمة التي تواكب الإنسانية في جميع محطات مسارها الحضاري.

---

١ – لقمان : ١٤.

٢ – الاحقاف : ١٥.

٣ – الإسراء: ٢٣ – ٢٤.

أهم المراجع

١- الأسرة المسلمة، إصدارات مؤسسة البلاغ، ط ٣، طهران، ١٣ ١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢- عادل حسين ((المرأة العربية: نظرة مستقبلية)) مجلة الحوار، بيروت، ع ٨، س ٢، شتاء ١٩٨٧م.

من مظاهر الانحطاط الاجتماعي في أمريكا

يوما بعد آخر، يتعمق الإحساس لدى أوساط واسعة في الغرب، وخاصة علماء الاجتماع والتربية والنفس والحضارة.. بأن مظاهر الانحطاط أخذت تتفشى، بشكل مثير للقلق، في الوسط الاجتماعي؛ مما ينبئ عن قرب وقوع الكارثة الوشيكة.

ويطول الحديث، لو سمحنا لأنفسنا الخوض في هذا المجال، وسنكتفي هنا بإيراد بعض الأرقام ذات الدلالات الخطيرة، وحينما تتكلم لغة الأرقام فإن من العسير، والحال هذه، التشكيك بها، وبالتالي التقليل من مداليلها وأهميتها. كما وسنركز على الولايات المتحدة الأمريكية. باعتبارها النموذج النوعي لحضارة الغرب ومجتمعاته الصناعية الاستهلاكية الحديثة.

فحين ترك الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش (الأب)، البيت الأبيض، لسلفه الديمقراطي بيل كلينتون، كانت أميركا تعاني من أوضاع داخلية متأزمة، على الصعد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتعتبر أسوأ ما مرت به البلاد منذ انهيار بورصة (الوال ستريت) عام ١٩٢٩.

فخلال عهد جورج بوش، أضيف مليون عاطل أمريكي إلى ملايين العاطلين عن العمل سابقاً، عبر انتهاجه سياسات رأسمالية بحتة، زادت في ثراء الأثرياء، وفقر الفقراء، حيث سُجّل في عهده أكثر من (٣٠) مليون أمريكي تحت مستوى

الفقر[1]، ليستمر هذا الخط البياني في التصاعد، خلال مرحلة كلينتون، ويصل العدد الإجمالي إلى حوالي خمسين مليون!

وإذا ما تجنبنا التفصيلات في الجانب الاقتصادي، من تزايد عجز الميزانية، وتراجع قيمة الدولار الأمريكي (وقد وصلنا إلى أرقام قياسية) فإن من المفيد استعراض بعض ملامح الانهيار في المجتمع الأمريكي، وخاصة في المجال الاجتماعي.

رصد المعنيون أكثر من مظهر للانحطاط الذي يهدد المجتمع الأمريكي. ويأتي في المقدمة ازدياد معدلات الجريمة والسرقة والقتل وبأنواع مختلفة. ففي أمريكا مليون ومئة ألف مواطن أمريكي، وجلهم من السود، اقتيدوا إلى الزنزانات لارتكابهم جرائم أسبابها الفقر، والمعاناة الاجتماعية المختلفة.

وحول هذه النقطة، يقول الكثير من علماء الاجتماع في أميركا، إن تكاليف بناء السجون وملئها، هي أقل بكثير من تكاليف إيجاد فرص عمل ورفاه اجتماعي للمواطنين في هذا البلد. وطبقا لما تقوله الصحافة الأمريكية، فإن واشنطن العاصمة تصدرت - وعلى مدى أربع سنوات من حكم بوش (الأب) - المرتبة الأولى من عواصم العالم في عمليات القتل. وإن لوسائل الأعلام، خاصة التلفاز، دوراً أساسياً، في الترويج للعنف في هذا المجتمع المريض.

وطبقا للأبحاث المختلفة، فإن واحدة من محطات التلفاز الأمريكية تبث خلال الأربع والعشرين ساعة، حوالي (١٢٠٠) مشهد سينمائي في حال عنف. فأعمال العنف التي تعرضها أفلام الكارتون المعدة للأطفال والأفلام السينمائية، وحتى الإعلانات التجارية، هي التي قادت المجتمع صوب أعمال العنف، وروجت الفساد، حيث أصبح القتل والعنف ظاهرة مألوفة وطبيعية في أميركا.

---

١ - مجلة التوحيد (طهران)، ع ٦٦، س ١١، محرم - صفر ١٤١٤هـ - آب ١٩٩٣، ص ١٩٠.

ففي كل خمس أسر أمريكية ثلاث منها تزود أبناءها بأنواع الأسلحة النارية. بدءً بالمسدسات العادية وانتهاء بالبنادق الاوتوماتيكية «اي . كي - ٤٧». علماً بأن الرئيس الأمريكي السابق «كلينتون» كان كسلفه بوش «الأب» عضواً في أحد نوادي حملة السلاح[١].

٢٢٠ مليون مسدس في حوزة الأمريكيين

تحت هذا العنوان المثير نشرت إحدى المجلات تقريراً خبرياً كشفت من خلاله المستوى الخطير الذي بلغه العنف المسلح باجتياح المدارس الأمريكية، فهناك مئة ألف طفل أمريكي يحملون مسدساتهم الحقيقية إلى مدارسهم كل يوم، مما يتسبب في غياب «١٦٠» ألف تلميذ يومياً خوفاً من مسدسات زملائهم، ويتلقى «٩٠» معلماً يومياً تهديدات باستخدام العنف ضدهم، ويقتل «٤٠» تلميذاً أو يصابون يومياً، من جراء استخدام الأسلحة النارية.

هذه الأرقام كشفت عنها جمعية التعليم الوطني في واشنطن. قبل سنوات، وتحديداً في آذار «مارس» ١٩٩٣م. وقد أشارت الجمعية المذكورة - محذرة - إلى أن العنف في الولايات المتحدة لم يعد مقتصراً على المناطق الفقيرة وأماكن تجمع تجار المخدرات. كما حذرت الجمعية من انتشار الأسلحة المخيف، في ظل غياب قانون يحكم بيعها في المتاجر العامة، الذي يتم الآن من دون قيود صارمة، وشهدت الولايات المتحدة في عامي ١٩٩٢- ١٩٩٣ مقتل «٦٠» ألف شخص بالرصاص، والرقم يفوق عدد القتلى الأمريكيين خلال حرب فيتنام التي استمرت ثمانية أعوام.

وعلى الرغم من وجود قانون فيدرالي، يحظر بيع المسدسات إلى من هم دون الحادية والعشرين، إلاّ أن وجود سوق سوداء كبيرة ومساعدة الأقارب

---

١ - م . ن : ١٩١.

والأصدقاء الأكبر سناً يسهلان اقتناء المراهقين والأطفال مسدساً أو بندقية من أحدث طراز. وتعكس المتاجر الأمريكية المتخصصة في بيع المسدسات والبنادق، صوراً حية لأفلام رعاة البقر القديمة، والفارق الوحيد هو الأعداد والأنواع الهائلة من المسدسات المعروضة، وتساعد على تدعيم شكل العنف الجديد مئات بل آلاف المسلسلات التلفزيونية والأفلام التي تبيح العنف وكأنه أسلوب حياة مقبول.

أحد أصحاب هذه المتاجر «جيم» يفخر بأن متجره في جنوب غرب الولايات المتحدة يحتوي على أنواع وموديلات متعددة من المسدسات والبنادق. وإمعاناً في تنويع خدماته، ينظم «جيم» مسابقة شهرية للتصويب في داخل متجره، يتبارى فيها المتسابقون، على التصويب بمسدساتهم نصف الأوتوماتيكية، على هياكل معدنية. وتتضاعف الجائزة المالية إذا استطاع المتسابقون، التصويب على رأس الهيكل أو صدره في أسرع وقت ممكن.

يؤكد «جيم» أنه لم يسمع حتى الآن عن جريمة ارتكبت بمسدس نصف أوتوماتيكي! ربما يحاول إراحة ضميره، أو إقناع نفسه، بأنه لا يرتكب خطا[١]. ولكن السؤال : ماذا وراء عمليات القتل، وخاصة في أوساط طلبة المدارس؟ إن الإحصاءات تشير، بشكل واضح، إلى أن تلك العمليات سببها - أحياناً - مجرد العبث أو الشعور بـ«السادية».

ما تجدر الإشارة إليه، أن بإمكان أي مواطن أمريكي الحصول على إجازة لحمل السلاح، بعد عدة أسابيع من إملائه لعريضة خاصة، ودفع مبلغ «٣٦٠» دولاراً.

---

١ - صحيفة الحياة «لندن»، ٤/٣/ ١٩٩٣.

وإزاء تفاقم الوضع وخطورته، كان على الإدارة الأمريكية التحرك السريع، قبل أن يبلغ السيل الزبى، وفي محاولة للحد من ازدياد معدلات الجريمة أقدم البيت الأبيض على خطوة في هذا الاتجاه، حينما وقع كلينتون على قانون لمحاربة الجريمة؛ في أميركا، وذلك بتخصيص (١٢٢ مليار دولار)، وتعيين (١٠) آلاف شرطي، في أكبر عملية من :نوعها ضد الجريمة في تاريخ العالم.

وفي الوقت نفسه قدم كلينتون، عام ١٩٩٤ مشروع قانون لمنع بيع المسدسات والبنادق الاوتوماتيكية. فالمجرمون في أميركا يستعملون أحياناً بنادق (إوزي) الإسرائيلية و(كلاشنكوف) الروسية في تنفيذ مآربهم. وقال كلينتون، في معرض بيان حيثيات القانون الجديد: «نحن أقوى وأكبر وأغنى وأجمل دولة في كل العالم.. لكننا مع الأسف الدولة الأولى في العالم في الجريمة». وأضاف: «المسدسات والبنادق دخلت المدارس، وكلكم شاهدتم في التلفزيون طالبة المدرسة الثانوية التي قالت إنها كتبت وصيتها.. وتتوقع أن تقتل في أي يوم»! وهذا يوضح شيئين :

الأول: سهولة شراء أي مسدس أو بندقية. وفي ولاية فلوريدا مثلاً، يسمح بحمل المسدس على الجنب، وهو ظاهر.

الثاني: إن مافيا المسدسات والكاوبوي (شركات صناعة الأسلحة وهواة الصيد) أقوى جداً من الكونغرس، وبعض مؤسسات النظام الفدرالي.

وللوقوف على حقيقة أبعاد هذه الظاهرة، ننقل بعض الإحصائيات الأمريكية المتعلقة بها[1].

---

١ – استللنا الإحصائيات من مجلة المجلة، ع ٧٤٤، ١٥ – ١٩٩٤/٥/٢١م، والتي نقلتها المجلة بدورها من الصحف الأمريكية.

السؤال ورأي الأمريكيين:

١- هل في منزلكم مسدس أو بندقية ؟	نعم (٤٥٪)	لا (٥٢٪).
٢- هل القوانين الصارمة هي الحل ؟	نعم (٤٥٪)	لا (٥١٪).
٣- هل تؤيد الترخيص بحمل السلاح ؟	نعم (٦٨٪)	لا (٢٩٪).
٤- هل (لوبى المسدسات) هو المسؤول ؟	نعم (٤١٪)	لا (٢٠٪).

المسدسات في أمريكا

السنة	عدد المسدسات
١٩٧٥	١١٠ مليون
١٩٨٠	١٢٥مليون
١٩٨٥	١٥٠ مليون
١٩٩٠	١٨٠ مليون
١٩٩٥ (تقديرا)	٢٢٠ مليون

القتل بالمسدسات في أمريكا

السنة	عدد القتلى
١٩٧٥	١٥،٠٠٠ شخص
١٩٨٠	١٨،٠٠٠ شخص
١٩٨٥	٢٤،٠٠٠ شخص
١٩٩٠	٤٦،٠٠٠ شخص
١٩٩٥	٧٠،٠٠٠ شخص

ضحايا المسدسات من الأطفال (١٩٩٢)

الجنس	١ - ١٤ سنة	١٥- ١٩ سنة
أولاد	٦٦٠٩	٣٣٥١٤
بنات	٣١١٧٨	٥٤٠٢
المجموع	٣٧٧٧٨	٣٨٩١٦

مجرمون صغار يقتلون بالمسدسات (أقل من ١٨ سنة)

السنة	عدد الضحايا
١٩٨٤	٤٤٤
١٩٨٧	٦١٥
١٩٨٩	٩٥٢
١٩٩١	١١١٢
١٩٩٤	١٥٠٠

القتل في تكساس (سيارات ومسدسات)

السنة	ضحايا السيارات	ضحايا المسدسات
١٩٧٠	١٦٠٠٠	٩٠٠٠
١٩٧٥	١٢٥٠٠	١٠٥٠٠
١٩٨٠	١٥٠٠٠	١١٠٠٠
١٩٨٥	١٢٠٠٠	١١٥٠٠
١٩٩٠	١٠٠٠٠	١١٧٠٠
١٩٩٥ تقديرا	٨٠٠٠	١٢٥٠٠

وثالثة الأثافي.... الإيدز

وإذا وضعنا هذه الظاهرة جانباً - على خطورتها - والتي تعتبر الفتيات الأمريكيات إحدى ضحاياها، فثمة ظاهرة أخرى هي الأخطر والأبشع، تلك هي ظاهرة التحلل الخلقي؛ وما يترتب عليه من تفسخ يهدد الحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعي كله.

في عام ١٩٦٥ قرعت بعض الأوساط الغربية أجراس الخطر، بسبب تفشي التدهور الأخلاقي، وما تمخض عنه من طوفان جنسي محرم، برزت بعض معالمه وملامحه، إذ أفادت التقارير الرسمية - حينئذ - أن عدد عمليات الإجهاض للطالبات في المدارس الثانوية وحدها - في أمريكا - بلغ مئتين وخمسين ألف عملية .. وأن أكثر من ٦٠٪ من اللواتي تزوجن منهن دون التاسعة عشر، ذهبن إلى بيوت عرسانهن ليلة الزفاف، وفي بطن كل منهن جنين لم يكتمل تكوينه، ولا يعلم إلاّ الله من هو أبوه!

وأميركا ليست الوحيدة، في هذا المضمار، إذ ذكرت صحيفة «سبكتيتر» الإنجليزية إن عدد الأطفال غير الشرعيين في انجلترا، بلغ عام ١٩٦٣ (٦٣،٠٠٠) طفل، وإن مثل هذا العدد كان من الأطفال الذين ولدوا قبل مرور ثمانية أشهر من الزواج!

والذي يقال عن طالبات المدارس الثانوية، أكثر منه عن طالبات الجامعات! وهذا كله بالرغم من استعمال حبوب منع الحمل التي لا تكاد تخلو منها حقيبة يد إحدى الفتيات، والتي أصبحت تتداول في الغرب، كما تتداول السجائر و«البنبون» والأسبرين! وتضيف تلك التقارير إلى أن الأمراض التناسلية وخاصة

السيلان، قد تفشت بين طلبة المدارس والجامعات المذكورة وطالباتها، بصورة وبائية[1].

وقبل مضي عقدين من الزمن، على تلك التقارير، أصيب المجتمع الدولي بالهلع والرعب، جراء ظهور مرض «الإيدز»، حتى أصبح بالإمكان القول: إن الحضارة الغربية تمخضت.. فولدت الإيدز! وتشير النتائج الأولية، لدراسة وضع طلاب الجامعات الأمريكية، إلى أن واحداً من كل (٣٠٠) طالب مصاب بفيروس الإيدز!! أرقام الدراسة الأولية هي تقريباً مطابقة لنتائج بحث أجري عام ١٩٨٨، وهو أن (٣،١) من كل (١٠٠٠) مريض في مستشفى مدينة وسكونسن الأمريكية مصابون بفيروس الإيدز[2].

ويعتقد أن عدد الأمريكيين المصابين بفيروس الإيدز يقترب من المليون، لكن خبراء إحصاءات الصحة قالوا: إن من الصعب التوصل إلى إحصاء دقيق، واعتبروا أكثر الناس قابلية للإصابة بالمرض، هم أشدهم صعوبة في الرصد. وأكد الخبراء وبالاعتماد على مسح أجراه المركز القومي الحكومي للإحصاءات الصحية، لنحو ٨ آلاف شخص، خلال الفترة ما بين عامي ١٩٨٨و ١٩٩١، أنه من الممكن إحصائياً تقدير عدد من يحملون فيروس. الإيدز بنحو ٨٧٢،٥٤٧ شخصاً في أنحاء البلاد.

غير أنهم اعترفوا بأن الرقم يعد منخفضاً للغاية فيما العدد الحقيقي يتجاوز ذلك بكثير، إذ يربو عدد الأشخاص المصابين بعدوى الإيدز على المليون إنسان - كما تقدر المراكز الأمريكية للسيطرة على الأمراض في اطلنطا حالياً - وأكد المسح صحة الاعتقاد الشائع بأن شيوع المرض يبلغ أقصى درجاته بين الذكور

---

١ - مجلة العربي «الكويت»، ع ٩٤، جمادى الأولى ١٣٨٦هـ - أيلول ١٩٦٦م.

٢ - مجلة الخيرية «الإمارات»، ع ٤٥، س ٥، شعبان ١٤١٤هـ - يناير/ فبراير ١٩٩٤م.

السود وخصوصاً من هم دون سن الأربعين. وكان المعرضون للإصابة بالفيروس من السود الذين شملهم المسح، أربعة أمثال البيض وثلاثة أمثال الأمريكيين المكسيكيين[1].

حتى الكنيسة لم تسلم من الشذوذ..!

على أن التفسخ الذي أصاب المجتمع الغربي، لم تسلم منه حتى الكنيسة، إذ تناقلت بعض الأوساط الخبرية، إن مشكلة القساوسة المغرمين بممارسة الجنس مع الغلمان وأسلوب معالجة الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية، وصلت إلى نقطة الغليان، مع اتهامات بأن الكاردينال (جوزيف برناردين) اعتدى جنسياً على طالب صغير السن يدرس اللاهوت..

وقد تكلفت الكنيسة مئات الملايين من الدولارات، في شكل تسويات وأتعاب قضائية، وأدوية للضحايا والمنتهكين، على حد سواء، بسبب عشرات الدعاوى القضائية على القساوسة وابريشياتهم، لمزاعم بإيواء رجال دين يرتكبون هذه الانتهاكات.

ورداً على الفضائح يسعى الأمريكيون إلى إيجاد سبل لتعقب الاتهامات ضد ١٦ ألف من أساقفة الأبريشيات، ومراقبة الراغبين في الترسيم. لكن بعض العناصر، داخل الكنيسة - إلى جانب محاميها - شجعت دعاوى مضادة، وأساليب أخر، تستهدف وقف توجيه اتهامات أخرى تضر بصورتها.

ويعتقد المنتقدون أن الكنيسة لا ترأف بضحايا الانتهاكات الجنسية، وقالت (بابرا بلين) مؤسسة شبكة الناجين من انتهاكات القساوسة، ومقرها شيكاغو وهي واحدة من جماعات كثيرة ظهرت لدعم ضحايا الانتهاكات: يجب ألاّ تدير الكنيسة مركزاً لعلاج القساوسة المغرمين بالصبية.

---

١ — م ، ن : ٤٠.

واعترف مركز علاجي تديره الكنيسة، في ولاية نيومكسيكو بدفع ثمانية ملايين دولار. كتعويضات متعلقة بقضايا تورط فيها القس السابق (جيس بوتر) الذي حكم عليه أخيراً بالسجن (١٨) عاماً في ولاية ماساتشوستشن، لانتهاكه عشرات الغلمان جنسياً. وبدلاً من الرأفة من جانب الكنيسة، فإن الكثيرين من الضحايا يقابلون بالريبة والتوبيخ، حسب ما قالت بلين التي كانت هي نفسها هدفاً للانتهاكات الجنسية، من جانب أسقف لم يعاقب.

وأشار الأسقف (اندروي غريلي) المتخصص في علم الاجتماع وروائي، إلى أن مابين (٢٠٠٠ و ٤٠٠٠) أمريكي انتهكوا أحداثاً جنسياً، وأن الضحايا الأمريكيين لانتهاكات القساوسة الجنسية، ربما يفوقون (١٠٠) ألف شخص[١]. وليس لنا إلاّ أن نردد قول الشاعر العربي:

إذا كـان رب البـيت بالـدف ناقـرا فشـيمة أهـل الـدار كلهـم الـرقص!

وإذا كان لابد من كلمة ختام، بعد هذه الجولة الاستكشافية لواقع الجريمة في المجتمع الأمريكي.. فمن المفيد التذكير بقول رينيه دوبو - الأستاذ في جامعة (روكيفلر) بنيويورك، وحامل جائزة نوبل في العلوم، حين صب نقده العلمي على الحضارة المادية في كتابه: (إنسانيه.. الإنسان)[٢]، وهو هجوم عنيف على المجتمعات الغربية المعاصرة، ومسارها الانتحاري؛ إذ ينحي باللائمة على الفكرة القائلة: إن الفردية هي التأكيد الذاتي على الفرد، دون اعتبار للمشاركة في العالم من حوله.. ويؤكد أن هذه الكلمات خطيرة إذا ترجمت إلى معنى إن الحرية هي قيمة مجردة دون اعتبار للعلاقات الاجتماعية.

فحرية الإنسان لا تعني الفوضى والانفلات الكامل، فمثل هذه المواقف

---

١ - م . ن .

٢ - قام بتعريبه الدكتور نبيل صبحي الطويل، وطبعته مؤسسة الرسالة عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

تؤدي حتماً إلى تفسخ حياة الأفراد والنظام الاجتماعي معاً، والاعتقاد بقدرة العلم على حل أكثر المشاكل العلمية.. أمر يكذبه الوعي المتزايد بقدرته والتكنولوجيا على إثارة مشاكل جديدة في محاولاتهما لحل المشكلات القديمة[١].

ختاماً تلك بعض مظاهر الانحطاط الاجتماعي في أمريكا، وقد اعترف الكثير من رجالاتها بالمأزق الخطير الذي تعيشه حضارتها، الذين كان أحدهم رئيس بلدية مدينة كليفلند الأمريكية حيث يقول: «إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر.. بينما هو غائص إلى ركبتيه.. في الأوحال.. والقاذورات!». وهذا القول يعد - بحق - شهادة «شاهد من أهلها».

---

١ - إنسانية الإنسان، ص ١٧٠.


معركة الحجاب

الحجاب .. المعركة المستمرة!

في واحدة من قلاع الغرب، ثمة مشكلة قائمة منذ فترة، دون أن تجد لها حلاً، أو تقترب من فصلها الأخير، بالوقت الذي لم تكن فيه إمكانية الحل بالعسيرة، فضلاً عن أن المشكلة برمتها - ورغم ما خلفته من تداعيات - ما كانت لتحصل أصلاً أو تتفاقم، لو كانت الأمور تسير في مجراها الطبيعي!.

وحتى لا نظل بعيدين عن جوهر القضية، فإنها باختصار شديد؛ مشكلة الحجاب ثانية وثالثة،في المانيا هذه المرة. وتبدأ سطورها الأولى حينما أصدرت وزيرة الثقافة في ولاية بادن فورتمبرغ الألمانية قراراً بمنع المعلمة المسلمة (لودين فريشتيا) من التدريس، بسبب ارتدائها الحجاب!!.

نعم لم ترتكب هذه المسلمة جنحة أخلاقية، أو غيرها، ولم تتقاعس في أداء واجبها الوظيفي، ولم تسرق، أو تقوم بأي عمل من شأنه تعريضها للمساءلة أو العقاب سوى تحجبها!

قرار المنع صدر في آب (أغسطس) عام ١٩٩٨، ولكن المعلمة المسلمة سارعت الى تقديم اعتراض للادارة التعليمية العليا في الولاية، على أمل أن تقف الادارة الى جانب المعلمة التي لم تقترف ذنباً يستحق منعها من التدريس!.

ورغم القوانين المرعية هناك، والتي تنص على وجوب الرد على الاعتراضات المقدمة الى الإدارة - سلباً أو ايجاباً - خلال مهلة قانونية أمدها ثلاثة أشهر، جاء ذلك الرد السلبي متأخراً جداً عن تلك المهلة!

لقد رفضت الادارة التعليمية العليا في الولاية طلب الاعتراض الذي تقدمت به إليها المعلمة المسلمة (لودين)..، وجاء في حيثيات الرفض عدم السماح للمعلمة المسلمة بالتدريس طالما تظل مصرة على ارتداء الحجاب في فصول الدراسة، وهو ما يعتبر استخداما للاشارات الدينية الداعية للانغلاق الثقافي في مظاهر سياسية!.

ويعلق أحد المراسلين على ذلك بقوله: ((وفيما يبدو أن قرار الإتهام يستوجب التجريم، أكثر من كونه مجرد اعتراض، ساقت الادارة التعليمية في تقريرها مجموعة من الأسباب الواهية التي تبرر بها موقفها فاعتبرت أن السيدة (لودين)، من خلال ارتدائها الحجاب، قد أضرت بواجب حيادية الدولة، كما أنها تعطي بذلك صورة سلبية عن الحق الأساسي للتلاميذ في الحرية الدينية، والتجاوز على حقوق الوالدين في تربية أبنائهم!.

كما أن ارتداء الحجاب - يضيف المراسل - يعطي الانطباع الذي يؤكد انتماءها الواضح للاسلام الذي لا يمكنها اخفاوه عن أعين التلاميذ!)).

وفور صدور الاعتراض من الادارة التعليمية قال محامي المعلمة المسلمة إنه سيرفع دعوى أمام المحكمة الادارية العليا في شتوتغارت عاصمة الولاية لوقف صلاحية ما دفعت به الادارة، لأنها ردّت بعد فترة طويلة من انقضاء المهلة القانونية المسموح لها فيها بالاعتراض، وهي ثلاثة أشهر، كما أن الحجج التي ساقتها فجة، ومتهاوية، وغير مقبولة، كون الحجاب ضرورة اسلامية لاخفاء زينة المرأة، ومن المنطق أنه اذا سارت الادارة خلف تعليلاتها فيجب عليها كذلك منع الراهبات النصرانيات اللائي يعملن كمدرسات من ارتداء زيهن الكنيسي، وألاّ يحملن الصليب.

الى هذا الحد لا ندري ماذا سيكون رد المحكمة الادارية العليا في شتوتغارت على هذه القضية المرفوعة أمامها كما أننا نجهل ما سيكون عليه

موقف الادارة التعليمية العليا في ولاية بادن فورتمبرغ «التي ردت اعتراض المعلمة المسلمة» من الحجج المنطقية التي أثارها محاميها خاصة وأنها لا تضع الادارة التعليمية العليا وحدها في الزاوية الحرجة فحسب وإنما تضع النظام الألماني كله هناك إن لم يتسع النطاق ليشمل المنظومة الغربية برمتها!

فهذه ليست الأولى من نوعها. وما تزال الذاكرة تحتفظ بما شهدته الساحة الفرنسية أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات من أزمة عاصفة حول نفس الموضوع، والى يومنا هذا ما فتأت تثار غيوم سواء داخل فرنسا وخارجها.

أما على صعيد العالم الإسلامي أثيرت نهاية التسعينات من القرن الماضي قضية النائبة البرلمانية التركية مروة قاوقجي التي تعرضت للمضايقات غير المبررة بسبب دخولها محجبة الى البرلمان. ولم تقف ردود فعل السائرين في خطى أتاتورك عند حد نزع الصفة البرلمانية عن النائبة الإسلامية المحجبة وإنما قرر مجلس الوزراء التركي سحب الجنسية التركية منها!!

وما عسى المرء أن يقول وهو يرى هذه الممارسات «الديمقراطية» جداً في بلدين يتبجحان طويلا بالديمقراطية..؟!

ولكن ألا تضمن الديمقراطية - في متبنياتها - حرية التعبير وحق المعتقد وما يترتب على ذلك من سلوك وزيٍّ وممارسة؟!

إن ما شاهدناه من أزمة الحجاب هنا وهناك، ومحاكمة المفكر الإسلامي الفرنسي رجاء غارودي على خلفية تأليفه كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرئيلية»، وكم الأفواه في الغرب بذريعة معاداة السامية .. لهي مفردات دامغة تؤكد مدى انتقائية ديمقراطية الغرب.. وعدوانيتها حينما يتعلق الأمر بالمسلمين خاصة.

وفي أميركا التي ينتصب تمثال الحرية في ربوعها تحاول جاهدة أن تطرح نفسها وكأنها صاحبة الوصاية على العالم والمدافع الصلب عن الحرية. وحقوق الانسان.. في حين تمارس ذات النهج البراغماتي والأسلوب الانتقائي حيال القضايا المطروحة. ويطول المقام لو انسقنا وراء المفارقات التي تتورط فيها أميركا على هذا الصعيد بيد أننا نكتفي بشاهد واحد ذي صلة بالموضوع الأساس «الحجاب».

فقد أقدمت شركة ارجن بريت للأمن في واشنطن فصل سبع سيدات مسلمات محجبات من العمل في مطار واشنطن دولاس الدولي عام ١٩٩٩م، لذات السبب «الحجاب» .. غير أن المسلمات اللاتي تعرضن للفصل لم يقفن مكتوفات الأيدي وبالتعاون مع مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية الذي تبنى قضية الموظفات المفصولات فكانت حملة ضغط قامت بها الجالية المسلمة هناك أفرزت نتائج طيبة في الواقع إذ أعلنت الشركة السماح للمحجبات بالعمل في المطار بعد شهرين من فصلهن، ولم تكتف الشركة بذلك بل أعلنت إذعانها لجميع مطالب السيدات المسلمات التي تتضمن تقديم اعتذار مكتوب لكل سيدة وإرسال مذكرة لجميع مدراء الموظفين التابعين للشركة في جميع أنحاء الولايات المتحدة بضرورة توفير أجواء ملائمة لممارسة شعائر الدين فى أماكن العمل حسب القانون .. إضافة الى دفع تعويض مالي للموظفات..

ترى لو أن المسلمات استسلمن للقرار الجائر ولم يتضامن أحد معهن هل بامكانهن كسب القضايا حقاً؟، ما ضاع حق وراؤه مطالب!

الهجوم على الحجاب
أفكار قديمة في ثوب جديد

بين الآونة والأخرى تثار «أزمة الحجاب» في فرنسا، لتطرح نفسها بقوة، وأكثر من سابقتها، وفي أواخر تشرين الأول ١٩٩٤م، أصدر وزير التعليم الفرنسي «فرانسوا بايرو» تعميماً جديداً يمنع بموجبه حمل أي نوع من العلائم الدينية المميزة في المدارس الحكومية.

ومنذ صدور هذا القرار، وحتى هذه اللحظة، تقوم مختلف السلطات الفرنسية بشن حملة شعواء على كل المظاهر الإسلامية، وخاصة الحجاب. والغريب أن الجهات المعنية في فرنسا فسرت قرار وزير التعليم الفرنسي حول «العلائم الدينية المميزة» بالحجاب فقط، دون بقية العلائم التي يرتديها أتباع بقية الديانات وبالذات اليهودية والنصرانية!، وكأن القرار قد فُصّل على قياس الحجاب والحجاب فقط. في الوقت الذي ما تزال فيه اليهوديات والنصرانيات «خاصة الراهبات» يرتدين أزياءهن الدينية وبمنتهى الحرية، مما يعني أن المقصود هو الحجاب الإسلامي وحسب.

تساؤلات وشكوك

وبسبب هذه المفارقة الصارخة أثار العديدون شكوكهم حول مدى

مصداقية قرار وزير التعليم الفرنسي، ففضلاً عن الارباك الذي أحدثه القرار وما تبعه من إجراءات تعسفية، وردود فعل حتى في أوساط الهيئة التعليمية في فرنسا نفسها، فإن العديد من المعلمين الفرنسيين أبدوا قلقهم - كما ذكرت ذلك صحيفة الفيغارو - من انعكاس هذه الأزمة على علاقاتهم مع طلبتهم. وقد طالب بعضهم وزير التعليم الفرنسي تفسير ما قصده بعبارة «التعبير عن المعتقدات الدينية» الواردة في كتابه الرسمي الذي عممه على المدارس الفرنسية.

وفيما يحتدم الجدل حول مسألة الحجاب في فرنسا بين السلطات الفرنسية والطالبات المحجبات وذويهن والمناصرين لظلامتهن، انتقل النقاش الى داخل أروقة المؤسسات الفرنسية المعنية بالأمر.. حتى ليتراءى للمراقب أنه أمام جبهة فكرية - سياسية مرتبطة بهذا الموضوع، لما أثاره من نقاش في الأوساط التربوية من ناحية، والصحافة والاعلام من ناحية أخرى.

وطرحت تساؤلات عميقة حول الوعي السياسي والاجتماعي الفرنسي مثل: الفروق بين العلمانية والحرية والحدود بينهما، ومشكلة حقوق الانسان، متى تنتهي حرية الفرد لتبدأ حرية الجماعة؟ ومدى مصداقية المفهوم الفرنسي لعلمانية التعليم الذي يعود بالنظر الى قرار ١٩٣٧، ومدى صدق فرنسا وقدرتها على القبول بالآخر المختلف عنها في العقيدة والتعايش معه ناهيك عن محاولة دمجه بالمجتمع[١].

إن النقاش الواسع الدائر منذ فترة في الأوساط الفرنسية، والذي تديره بكيد كارتلات سياسية واعلامية معروفة بعدائها للاسلام والمسلمين، يعيد الى الذاكرة الدور الصليبي الذي اضطلعت به فرنسا منذ وقت مبكر. وما نراه اليوم ليس سوى

---

١ - يراجع مقال «فرنسا تستعيد نوازعها الصليبية في اطار جديد»، صحيفة الهلال الدولي (لندن)، ١ - ١٥/ ١١/ ١٩٨٩، ص ١٠.

فصل من ملف المعركة الدائرة والتي ما تزال فرنسا تشنها على الإسلام، وعلى أكثر من صعيد.

الروح الصليبية..أبداً

لقد انتشرت في القرون الوسطى أنشودة رولان (La Chanson de Rolan) وهي أنشودة شعبية لا يعرف ناظمها على وجه التحديد، شأنها شأن كثير من الأناشيد الشعبية، وهي تعكس الصورة التي يكونها الغرب عن عالم الإسلام، وما يجدر ذكره أن الانشودة مشحونة بالحقد على الإسلام والقرآن.

على أن حركة الاستعمار، منذ وطئت أرضَ الإسلام سنابكُ خيل نابليون (١٧٩٨ - ١٨٠١م) أعطت الحرب السجال بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وجهاً جديداً. لقد كان علماء الغرب (المستنيرون) أنفسهم يبررون حركة الاستعمار. ويرون فيها وسيلة لتحديث الشرق العتيق الجامد، ويرون كل مقاومة إسلامية للاستعمار وجهاً من أوجه التخلف!. وهذا الكاتب وعالم الآثار الفرنسي آرنسنت رينان (١٨٢٣- ١٨٩٢) والمعروف بتعصبه الشديد ومقته لكل ما هو إسلامي، وعداوته العظمى للمسلمين، كان يقدم التبريرات لأشد أساليب الاستعمار همجية وتدميراً[١].

وها هي فرنسا اليوم نفسها بالأمس، رائده العنصرية، والمسلمون وحدهم هم ضحايا هذه العنصرية، ولا يمكننا أن ندرج مسألة الموقف الرسمي الفرنسي من الحجاب إلاّ في هذا الإطار.

إن العالم الغربي - وفرنسا بالذات التي هي كالحرباء - تُبرّر عنصريتها كل

---

١ - د. حسن الأمراني ((الاسلام في مرأة الغرب))، مجلة الأمة (الدوحة)، ع ٦٨، شعبان ١٤٠٦هـ - نيسان ١٩٨٦، ص ٧٠.

مرة بلون جديد، وحسب الحال التي تمر بها القارة البيضاء، فمرة تظهر من خلال الكنيسة، وأخرى من خلال الدولة العلمانية، وثالثة في وسط الطبقات الشعبية، ورابعة في وسط الفعاليات الاقتصادية والأحزاب والحركات السياسية.

وفي كل حال تأخذ العنصرية شكلاً محدداً، فمرة تظهر من خلال الدين، وتارة من خلال الاقتصاد، وحيناً آخر من خلال اللون، وفى كل الحالات والمراحل العنصرية في أوربا هي العداء للآخر، وبكلام أدق هي نفي للآخر ورفض للقادم من وراء البحار الذي يتكلم لغة غريبة ويتصرف بطريقة غير مألوفة للغربي.

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية السياسية فإن العنصرية هي ضد التعددية أو ضد التنوع. هي حال غير تاريخية تدعو الى نوع من الانسجام الذي لا يقبل التعدد ويرفض التنوع بين أبناء البشر وخلق الله عز وجل.

والغريب في الأمر أن العنصرية لم تظهر أساساً إلاّ في أوربا التي تدعي الديمقراطية. وتحترم دستورياً التعددية السياسية، وتقبل قانونياً بالآخر. ولكن هذا الشيء هو في النص الحقوقي فقط، أما ترجمة النص على الأرض فهي مسألة مختلفة تعاكس كل النظريات العلمانية والليبرالية التي تمنع العنصرية دستورياً وتوافق عليها سياسياً وتاريخياً[١].

وتأسيساً على ذلك، يخطئ من يظن ويتصور أن المنهج العنصري في فرنسا محصور في ظاهرة (جان ماري لوبان) الذي يتزعم الجبهة الوطنية، ذات الاتجاه اليميني المتطرف والنزعة العنصرية، بل إن المنحى العنصري هو القاسم المشترك الأعظم بين أغلب التيارات السياسية إن لم يكن جميعها.

---

١ – طرّاد كنج حماده «العنصرية في فرنسا: مقولات نظرية وخطر قائم»، مجلة العالم (لندن)، ع ١٩٧، ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧/١١/٢١، ص ١٢.

خلفيات الاهتمام الفرنسي بالإسلام

إن تصعيد الاهتمام الفرنسي بالإسلام، ومن ثم بقضية الأقلية الدينية الإسلامية الموجودة في فرنسا كانت لها خلفيتها التحريضية المسبقة على الساحة السياسية الفرنسية نفسها، هذه الخلفية التي مهدت منذ منتصف الثمانينيات، لأن تتجه أنظار الفرنسيين تدريجياً الى موضوع الوجود الإسلامي داخل فرنسا. ثم إن هذه الخلفية قد صعّدت نمطاً من التحفظ ثم العدوانية الدينية العنصرية إزاء هذا الوجود للمسلمين وإزاء ممارساتهم لشعائرهم الدينية.

وإن المشكل الأساس لهذه الخلفية هو التقدم السياسي الانتخابي لحزب الجبهة الوطنية العنصري، والذي يطالب صراحة بطرد كل الأجانب من فرنسا. وبما أن المسلمين يشكلون أغلبية الأجانب الموجودين في فرنسا فإن الحزب ركز على طرد المسلمين، دون سواهم، أي إن الحملة العنرصية التي يقودها زعيم الجبهة (لوبان) تتوجه بالضرورة نحو المسلمين الذين أغلبيتهم من العمال النازحين من الشمال الأفريقي.

وبما أن هؤلاء العمال يحافظون بشكل كبير على شعائرهم الإسلامية وهم في بلاد أجنبية مثل فرنسا، فإن حزب الجبهة الوطنية قد وجه هجومه نحو هذه الشعائر التي تهدد بلداً كاثوليكياً مثل فرنسا، وتهدد الخصوصية الدينية له.

وقال ناطقون باسم هذا الحزب مرات عديدة إن فرنسا مهددة بأن تكون اسلامية وإن على الأقلية الإسلامية الموجودة هنا أن تحترم الجو الاجتماعي والديني المحيط بها، أي عليها أن تكف عن ممارسة شعائرها الدينية وخاصة في شهر رمضان الذي تتجلى فيه الممارسات الدينية للمسلمين بشكل ظاهري أكثر من بقية الفترات خلال العام.

إن هذا الطرح العنصري ضد المسلمين وضد الدين الإسلامي الذي عرفه

وطرحه حزب الجبهة الوطنية منذ سنوات ولحد الآن قد أخذ يمارس مفعوله بشكل تدريجي على وعي المجتمع الفرنسي.

كما أن الحملة الإعلامية الفرنسية على الأزمة الاقتصادية وعلى كثرة الأجانب الموجودين في فرنسا قد جعل الكثير من الفرنسيين حتى غير العنصريين يؤمنون بهذه الفكرة التي أخذ حزب الجبهة الوطنية يعمّق وجودها يوما بعد آخر، من خلال التكرار المستمر لطرحها في أجهزة الاعلام.

في السابق كان كل فرنسي يخشى أن يطرح هذه الفكرة خوفاً من اتهامه بالعنصرية، أما في السنين الأخيرة، وبعد بضع سنوات من طرحها، بات الفرنسي العادي يؤمن بها، كما أن الصحف اليسارية التي كانت على الدوام تساند فكرة فرنسا المفتوحة وأرض الديمقراطية وذات الصدر الرحب بالنسبة للأجانب، بدأت تتحفظ في مقالاتها إزاء فكرة وجود الأجانب في فرنسا، أي بعبارة موجزة أمست العنصرية أو عملية الاتهام بها لا تشكل لدى المواطن الفرنسي ذلك البعبع أو النقيصة التي كان يشعر بها في السابق في حالة اتهامه بها..[1].

ادماج..وتذويب

مما تقدم نستطيع القول: إن حاصل المسألة كلها هو كيفية تطويع الاسلام في فرنسا ودمج المسلمين في المجتمع الفرنسي، على نحو يضمن تخلي المسلمين في المستقبل عن ثقافتهم ودينهم الاسلامي، وذلك بعد أن أدركت المؤسسة الفرنسية أن الاسلام في فرنسا، خصوصاً خلال العقد الأخير، بات

---

١ – د. صالح موسى «أزمة الوجود الاسلامي في فرنسا» صحيفة الهلال الدولي ١٦ – ٣١ آذار ١٩٩٠م، ص٦.

يعكس تيارات الحركة الاسلامية في العالم الاسلامي، ويتواصل معها ويلعب في بعض الأحيان دور الظهير ودور الخط الأول في آن واحد[1].

وما تجدر الاشارة إليه أن وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا قد حمل هذه المفردات مجتمعة وطرحها على بساط البحث في زيارته التي قام بها، مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩٩٥م، الى السعودية متذرعا بضرورة تنظيم وضع المسلمين في فرنسا، وضرورة انسجامهم مع المجتمع الفرنسي، دون إثارة المتاعب، مع التأكيد على ضرورة احتذاء التجربة السعودية باعتبارها - حسب باسكوا - تمثل الاسلام الأصيل وغير المتطرف!!. ولم ينس الوزير الصليبي الطلب الى آل سعود معاونته على تنفيذ هذا المخطط ودعمه بالمال ووعاظ السلاطين..

وبعد أيام قليلة من عودته الى باريس اجتمع باسكوا بعدة منظمات يهودية فرنسية، ليعيد هجومه السافر على الاسلام والحجاب - باعتباره مظهراً من مظاهر (الأصولية) - وكرر تهديده بعدم السماح للطالبات المحجبات بدخول المدارس، وكذلك جدد تهديداته لـ(الأصوليين) الذين يشكلون - بزعمه - خطراً لا على فرنسا وحدها، وإنما على حوض البحر المتوسط، بل المجتمع الدولي برمته!!

وهنا، لابد من التذكير بخطوة فرنسية سابقة - بهذا الصدد - تنطوي على الكثير من الدلالات العميقة. إذ تم تشكيل هيئة لدراسة مسألة ادماج المهاجرين (والمقصود بهم كما ذكرنا هم المسلمون فقط) مكونة من ٢٤نائباً يمثلون كافة الأحزاب السياسية واللجان الست الدائمة في البرلمان الفرنسي، وذلك بتاريخ ٢٠

---

١ - يراجع مقال: ((مشروع ادماج المهاجرين في فرنسا: برنامج حرب ضد الاسلام))، صحيفة الهلال الدولي، ١ - ١٥. ٦. ١٩٩٠م، ص ١٢.

كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٨٩م، وقد قدمت هذه اللجنة تقريراً في ١٥ آيار (مايو) ١٩٩٠م من (٣٠٠) صفحة يحمل مقترحات عديدة لصهر المسلمين في المجتمع الفرنسي جعل لها مدخلين أساسيين؛ المرأة والمدرسة، أي المرأة المسلمة التي يجب أن تُغرّب تماماً والمدرسة العلمانية كمصنع لانتاج المسلمين العلمانيين. من هنا جاء التركيز مثلاً على ضرورة جعل اللغة الفرنسية اللغة الأم بالنسبة لأطفال المهاجرين واعتبار لغتهم الأم لغة أجنبية[1].

أما عن الحقوق المدنية للمهاجرين فلم يتطرق التقرير أبداً لحقهم في الانتخابات البلدية. وبحرمان المهاجرين من حق التصويت - أي من وسيلة الضغط الوحيدة التي يمكن أن يلوحوا بها بوجه المؤسسة - يتحول مشروع عملية الادماج هذه الى برنامج قهر هائل ضد المسلمين وبرنامج حرب ضد الاسلام على مستوى عال من التنظيم، والذي تجلى بشكل سافر خلال قضيتي المرتد سلمان رشدي وقضية حجاب الطالبات المسلمات[2].

إن قضية الحجاب - التي تحولت الى حملة صحفية وثقافية واعلامية وسياسية يقودها كبار الساسة الفرنسيين - ما هي إلاّ حلقة ضمن سلسلة موجة الاهتمام بموضوع الوجود الاسلامي في فرنسا والذي أخذ يتفاعل منذ بداية عام ١٩٨٩م، وعلى وجه الخصوص منذ شهر شباط ١٩٨٩[3] الذي شهد ظاهرة المرتد سلمان رشدي، وما كادت قضيته تهدأ حتى أثيرت قضايا جديدة في فرنسا، أصبحت محاور صدام عنصري بين ثقافتين وحضارتين ودينين، ومنها هدم مسجد ليون على رؤوس المصلين، و(قضية الحجاب).

---

١ - اللوموند، ١٩٩٠/٥/١٧م.

٢ - مشروع ادماج المهاجرين في فرنسا، م. س.

٣ - أزمة الوجود الاسلامي في فرنسا، م. س.

مقدمتان ضروريتان

ونتساءل مرة أخرى لماذا مسألة الحجاب؟ وما هو منشؤها؟ وكيف تطورت الى هذا الحد؟ وما هي نتائجها النهائية؟ وقبل الاجابة عن هذه التساؤلات لابد من مقدمتين ضروريتين:

الأولى: تنص المادة الثامنة والعشرون من الاعلان العالمي لحقوق الانسان على أن: «لكل شخص الحق في حرية الفكر والعقيدة» وينص الاعلان المذكور أيضاً على «الحرية التامة في التعبير عن الدين الذي يدين به المرء أو الفكرة التي يؤمن بها، متى وجد بمفرده أو مع الجمهور، وكذلك الحرية في تعليم مبادىء هذا الدين وتطبيق شعائره».

أما القانون الفرنسي فيؤكد الحرية الفردية وكذلك حرية الاختلاف، ومع ذلك فإن ثمة من يجرؤ على تحدي هذه المبادىء والقوانين. وما زلنا نشهد من آن لآخر ردات فعل متشنجة إزاء المسلمين في فرنسا.

وهذه النائبة (ماري فرانس ستيربوا) تدعو أعضاء حزبها اليميني المتطرف إلى أن يصبحوا (صليبيي القرن العشرين)، ويشنوا حملة ضد الاسلام في فرنسا. وقالت خلال لقاء نظم للاحتجاج على اقامة (جامعة اسلامية) تخرّج أئمة ومعلمين في قرية بوسط فرنسا: «لن نترك قرية فرنسية صغيرة تصبح مكة الاسلام»!

وها هي الأمور تسير وكأن ثمة حرباً طائفية تستعر ضد الاسلام والمسلمين في فرنسا. ولا ندري كيف يمكن لمجتمع كالمجتمع الفرنسي «أن يستقبل المهاجرين المسلمين الذين يجددون شبابه، ثم يضطهد الاسلام ومبادءه؟!». إن

هذا المجتمع يتصرف حيال المسلمين وكأنه يقول لهم: أهلاً بكم في فرنسا ولكن شريطة أن تخلعوا جلدكم وتغيروا لون بشرتكم!»[1].

الثانية: يتعاظم يوماً بعد يوم ثقل الجالية الاسلامية في فرنسا، وتغدو شيئاً فشيئاً محط أنظار وسائل الاعلام ومادة للكتاب والباحثين.

ففي فرنسا اليوم أكثر من ألف مسجد ومصلى، وفيها ما يقارب ٧٠٠ جمعية اسلامية مرخصة، وفق قانون عام ١٩٠١. وفي باريس يرفع الآذان للصلوات خمس مرات في اليوم على موجات إحدى محطات الاذاعة المحلية. وتعتبر هذه الظاهرة، أمراً حديثاً تماماً. فحتى بداية الستينات لم يكن في فرنسا برمتها سوى عشرة مساجد، وعدد قليل من الجمعيات الثقافية الاسلامية، هذا مع أنه كانت ثمة جالية اسلامية كبيرة في فرنسا. ولكنها لم تكن تعبر عن انتمائها الديني عن طريق أداء الشعائر الدينية إلاّ بشكل محدود.

وليس ذلك إلاّ بفضل الصحوة الاسلامية الناجمة عن التحولات الاجتماعية والسياسية المهمة التي عاشتها الجالية في الآونة الأخيرة. وهي أيضاً نتيجة طبيعية للتحولات الجارية في العالم الاسلامي المعاصر بمجمله.

وقد أثبتت الجالية الاسلامية في فرنسا أنها على جانب كبير من الوعي، ومتماسكة ومتراصة الصفوف، وهي قادرة تماماً على مواجهة التحديات وإحباط ما قد يراد بها من سوء[2]، وقد اتضح ذلك من خلال موقفهم الواعي حيال قضيتي المرتد رشدي والحجاب.

---

١ – د. محمد مهدي الصدر «المسلمون في فرنسا: الهوية أولاً»، مجلة نور الاسلام (بيروت)، ع ٢١ و ٢٢، جمادى الأولى و جمادى الثانية ١٤١٢هـ – تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٩١م، ص ٦٧ وما بعدها.

٢ – م. ن: ٦٨.

بدايات الأزمة

المعروف أن أزمة الحجاب انفجرت في خريف عام ١٩٨٩، حينما اتخذت بعض المدارس الحكومية الفرنسية قراراً بمنع الطالبات المسلمات من ارتداء الحجاب، فقد طُردت كل من سميرة وفاطمة وليلى المولودات في فرنسا، من مدرسة كري (في ضواحي باريس الشمالية) لأنهن محجبات، وذلك بحجة أن الحجاب يتعارض مع العلمانية ومع حياد المدارس الحكومية العامة. وقد تكررت هذه الظاهرة في مدينة مونبيلييه جنوبي فرنسا[١].

يومها كتب مدير المدرسة في رسالة طرد الشقيقتين (فاطمة وليلى): «إن هدفنا هو تحديد المظاهر المبالغ فيها للانتماء الديني والعبادي». ثم قام بعد أيام بالشيء نفسه مع الطالبة الثالثة (سميرة) مع ملاحظة أنه «لا يمكن قبولها في الصف لحملها لغطاء الرأس»!

ترجع جذور هذه القضية الى ثلاث سنوات خلت من ذلك التاريخ، عندما بدأت التلميذات الثلاث بارتداء لباس محتشم ووضع غطاء للشعر يسحبنه عند الدخول للفصل، ولكن ومنذ نهاية السنة الدراسية ١٩٨٨ - ١٩٨٩ أعلنت التلميذات عن تمسكهن بارتداء الحجاب، في جميع الأوقات والحالات، بما فيها حصص الدرس وذلك تطبيقاً لأوامر القرآن. وقد اعتمد مدير المدرسة في طرد البنات الثلاث على حجتين رئيسيتين:

الأولى: قانونية، وتمنع من ارتداء أية علامة طائفية لتمييز تلميذ عن الآخرين. ولكن المشكلة تكمن في القانون نفسه، ذلك أنه بعد قرار حذف مواد التعليم الديني في المدارس الحكومية في ١٨٨٢م، لم تعرف المؤسسة التعليمية قراراً

---

١ – م . ن : ٧٧.

مماثلاً سوى المنشور في «١٩٣٧/٥/١٥» الذي يقول حرفياً: «إن التعلم العام علماني، ولا يمكن أن يقبل أي مظهر طائفي داخل المعاهد» وحسب تأويل المدير لهذا القانون فإن القضية الدينية تدخل كعامل «تشويش» في المعاهد. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: متى تقف العقيدة الدينية لتبدأ النزعة الطائفية؟ ومتى تصبح حرية الفرد مهددة لحرية الغير؟ ثم لماذا ألجمت الأبواق أمام ظاهرة وضع أغلبية أطفال اليهود لقبعات مميزة على رؤوسهم حتى داخل قاعات الدرس؟ ألا يعتبر ذلك علامة دينية مميزة و«طائفية»؟ وكذلك لبس الصليب؟ ولماذا لا نعتبر اللباس القصير اعتداء على حرية الآخر..؟

الثانية: وهي أوهى من الأولى وأشد اسفافاً، تنطلق من «حرص على توحيد المظهر وعلى احترام بعض العادات الاجتماعية الفرنسية» ولكن المتابع البسيط يستطيع أن يلاحظ ذلك التنوع الكبير في الأشكال والمظاهر التي يرتاد بها التلاميذ فصول الدراسة مثل أنواع صبغ الشعر وقصه ولباس الجلد المدجج بالأزرار وسلاسل الحديد أو أنواع الملابس العارية..الخ والمرء يتساءل: هل كل ذلك من عادات الفرنسيين قبل عقدين أو ثلاث؟

لا شك في أن مثل هذه الحوادث، التي تنال من سمعة الاسلام، ليست منعزلة عن جو التوتر العام الذي يسود المجتمع الفرنسي والصورة المشوهة للاسلام والمسلمين في الذهنية الفرنسية التي يعمل أقصى اليمين واليهود - كل على حده - على نشرها وترسيخها، ورغم أن هذه الحالات تربك بشكل كبير سياسة الحكومة .. فإن وسائل الاعلام المختلفة تسعى الى توظيفها للقيام بحملات تهجم شديد على كل ما له صلة بالاسلام[١]. وكأنها تعيد الى الأذهان الحرب التقليدية، ضد الإسلام والتي تغلّف أفكارها القديمة بثوب جديد؟

---

١ – فرنسا تستعيد نوازعها الصليبية، م . س .

إذا عُرف السبب...!

ورغم كل هذ الضجة المثارة على نطاق واسع، ورغم كل هذا التشويه المنظم للاسلام، فإن الواقع يشهد تحول العديد من الفرنسيين والفرنسيات الى الاسلام واعتناق مبادئه والدفاع عنه والذود عن حياضه. وتطول قائمة كبار فلاسفة ومثقفي فرنسا الذين تشرفوا بالاسلام، وتشير بعض التقارير إلى أن حوالي ربع مليون فرنسي قد اعتنقوا الاسلام نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الفيلسوف الشهير روجيه غارودي الذي تسمى باسم رجاء غارودي، وموريس بوكاي المفكر المعروف، وميشيل شودكيفتش «مدير منشورات لوساي»، وجان ماري دوشمان «القسيس الفرنسي الذي أسمى نفسه عبد المجيد ودفن في إحدى المدن الغربية بناء على رغبته أن يدفن في أرض اسلامية»[1].. ومن الملاحظ إقبال النساء الفرنسيات وبنسب مرتفعة على الاسلام.. وفي ظل افلاس الحضارة الغربية، وانهيار الفكر الشيوعي لم يبق سوى الاسلام كبديل حضاري، وهذا ما صرح به عالياً سفير ألمانيا السابق في المغرب «مراد هوفمان» الذي اعتنق الاسلام، وأصدر كتابه الذائع الصيت «الاسلام هو البديل».

بمقدور الإسلام في فرنسا – وفي كل مكان – أن يقدّم الكثير ولا سيما في المجتمعات التي أصبحت فريسة للحياة المادية وللجريمة والتحلل والفساد الاجتماعي والخلقي. وهذا الكاتب الفرنسي «برونو ايتيين» يعتبر الإسلام نعمة لفرنسا ولأوربا والجنوب أيضاً.

وهو يعتقد بأن في وسع اتحاد اسلامي قوي وحسن التنظيم المساهمة في حل عديد من المشكلات الاجتماعية التي تلعب دورها عادة في تقوية نفوذ

---

١ – للمزيد يراجع المقال القيم «وفاة عبد المجيد جان ماري دوشمان: القسيس الفرنسي المسلم»، الهلال الدولي ١٦– ٢٨ شباط ١٩٨٩م، ص ٩.

العنصرية. فبدلاً من حرب عصابات المدن التي تُشغل بال الكثيرين يفضل الكاتب السلام الاجتماعي وإن كان دينياً. ويرى أيضاً أن الاسلام بتعاليمه ومؤسساته (المسجد، الجمعيات، التبليغ، اللحم الحلال، الزكاة..الخ) تقوم بتأمين الاسلام الاجتماعي، وبتسهيل الكفاح ضد الجنوح، وضد المخدرات، بل هو قمين - الى حد ما - بالقضاء على الفشل الدراسي ويضيف قائلاً: من الأفضل تلقين القيم الأخلاقية وبضمنها الألفة والمحبة لأطفال الضواحي (يقصد ضواحي باريس والمدن الفرنسية الكبيرة) القانطين من رحمة الله بدلاً من تركهم تحت رحمة كل أنواع المغريات.. فالإسلام العائلي يستطيع أن يقوم بوظيفة الكيف الاجتماعي ويسهل عملية الإدماج الاقتصادي والاجتماعي[١].

وبعد هذه الشهادة المنصفة من داخل البيت الفرنسي، والفضل ما شهدت به الأعداء، هل يبقى مجال للاستغراب مما يقوم به الغرب الذي ينوء تحت وطأة الأزمات الاجتماعية والأخلاقية ضد البديل الحضاري المتمثل بالإسلام.. طريق الخلاص الوحيد لهذه البشرية المعذبة؟!

---

١ - مجلة نور الاسلام: م . س .

الدوائر الغربية والخوف من الاسلام

لم تزل دائرة المواجهة بين الاسلام والغرب تتسع وبوتيرة تصاعدية، كما ليس بخاف على أحد الدوافع المعادية للاسلام التي ما فتئت تؤجج روح الكراهية والعداء، فمن تلك الدوافع ما يتصل بالخلفية التاريخية، ومنها ما يتعلق بالمخاوف الراهنة أو المستقبلية من امكانية أن يستأنف الاسلام دوره الحضاري.

ولعل مجلة التايم الأمريكية أفضل من عبر عن هذه المخاوف، وعكس تلك الهواجس حينما اختارت، في أحد أعدادها، الاسلام موضوعاً للغلاف، ونشرت صورة لمئذنة ومدفع يعانقان السماء، وتساءلت هل يجب على العالم الخوف من الاسلام؟ وتحت عنوان «سيف الاسلام» تحدثت عما جرى في ايران وأفغانستان والجزائر والسودان، وأبدت تخوفها من كون الاسلام هو الحل، ومن المسلمين الذين يحملون السلاح في المد الديني عموماً الذي تطلق عليه اسم «المتطرف» خصوصاً[1].

واذا ما استحضرنا الجهود الحثيثة التي تبذلها المخابرات الدولية لمحاربة الاسلام والحركة الاسلامية في الوطن الاسلامي، وما ترصده من مبالغ طائلة، لتحقيق الأهداف المتوخاة لصالح النفوذ الغربي.. فإن الصورة تتضح أكثر فأكثر. ولم يكن ما كشف النقاب عنه، حول رصد المخابرات المركزية الأمريكية

---

١ - مجلة نور الإسلام «بيروت»، العدد المزدوج «٢٩، ٣٠» محرم وصفر ١٤١٣هـ - تموز وآب ١٩٩٢م، ص ١٠٣.

«سي.آي.اي» مبلغ عشرين مليون دولار، لزعزعة الأوضاع في الجمهورية الاسلامية في ايران.. سوى الجزء الطافي من جبل الجليد!

واذا ما تأملنا الجهود التي تقوم بها الصهيونية العالمية وأجهزة المخابرات التابعة لها، والمديات البعيدة التي بلغتها، فإن ملامح المخطط الرهيب لضرب الاسلام، واقتلاع جذوره قد اتضحت معالمها. الأمر الذي يدعم ما قيل عن وجود اتفاقية قائمة بين كل من: المخابرات المركزية الأمريكية، والبابا يوحنا بولس الثاني، والمخابرات الاسرائيلية، والتي أشار إليها وكشف النقاب عنها كل من: «جوردون توماس» و «ماكس مورجان ويت» في كتابهما «في دهاليز الفاتيكان» الذي صدر عام ١٩٨٢. وتتضمن هذه الاتفاقية ثلاث مراحل: عقد الثمانينات لضرب الشيوعية، عقد التسعينات لضرب الاسلام، ومطلع القرن الحادي والعشرين لتوحيد كافة الكنائس تحت لواء كاثوليكية روما[١].

وهنا لابد من التنويه إلى أن أمثال هذه المخططات لم تعد منحصرة في «دهاليز الفاتيكان»، وإنما بدأت تطلق جهاراً في وضح النهار!

تداعي خواطر.. أم ماذا؟

أعلن أكثر من مسؤول في الغرب، ومنهم الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون، أن العدو الباقي والذي يتعين مواجهته الآن إنما هو الاسلام، وذلك بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، بتضافر جهود المخابرات المركزية الأمريكية والجهاز السياسي - الديني للفاتيكان، وهي نفس الأجهزة التي تتصدر العمليات حالياً... والمتواطئة بصورة أو بأخرى في تلك اللعبة الدائرة لمحاصرة الاسلام والمسلمين، والتي كان يتوقع لها البابا يوحنا بولس الثاني أن تتم قبل الحادي

---

١ - مجلة العالم «لندن»، ع ٤٩٣، ٤صفر ١٤١٤هـ - ٢٤ تموز ١٩٩٣م، ص ٣١.

والثلاثين من شهر كانون الأول عام ١٩٩٩م!! كما أورد مؤلفا كتاب «في دهاليز الفاتيكان»![1]

ومن المثير حقا أن نجد دعوة صريحة وعلنية موجهة الى البابا، وهي تتضمن روح ونص الاتفاقية التي أشار إليها الكتاب المذكور، فهذه إحدى أبرز الصحف الفرنسية تنشر مقالاً خطيراً بقلم (جاك ديكورنوا) وهو يتحدث عن ازدياد توغل البابا يوحنا بولس الثاني في المسرح العالمي السياسي والديني أكثر من أي وقت مضى.. ومما جاء في المقال: «كان لابد للفاتيكان من تدبير حملة صليبية جديدة.. حملة صليبية ضد الاسلام، تتخذ شكل الكاسحة الدولية، أو (النشّابة) الدولية كما أطلق عليها، خاصة بعد أن تم السيطرة دينيا على أمريكا اللاتينية، بالاتفاق مع واشنطن، ومنع أية منظمات ذاتية حرة في أفريقيا السوداء، وسحق الشيوعية أخيرا، فلا يبقى أمام البابا إلاّ توجيه المد الكاسح الى الأصوليين الاسلاميين، ليقوم بعدها بمهمته الأخيرة، وهي دمج الكنائس المسيحية بأسرها، تحت لواء روما الكاثوليكية[2]. وليس لدينا من تعليق سوى أن نتساءل: هل هذا تداعي خواطر أو تلاقح أفكار أم ماذا..؟!

الترويج لنظرية صدام الحضارات

وتأسيساً على ما تقدم، ينبغي رصد كل المقولات الغربية التي تدعو الى منطق المواجهة وتتبنى فلسفة الاستئصال للوطن الاسلامي، وفي مقدمة هذه المقولات هي تلك النظرية التي يتم الترويج لها، على نطاق واسع، وبشكل ملفت، و«المبشرة!» بحتمية تصادم الحضارات، وقد طرحها بصياغة جديدة

---

١ – د. زينب عبد العزيز «محاصرة وابادة: موقف الغرب من الإسلام»، بيروت ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، ص ١٧٨ – ١٨٠.

٢ – ليموند دبلوماتيك، عدد أيلول / سبتمبر ١٩٩٢م، نقلا عن المرجع السابق، ص ٢٠٢.

«صموئيل هنتنغتون» عالم السياسة المعروف بعد أن كانت روحها تسري في الجسد الغربي منذ أمد بعيد..

وبدون فهم هذه النظرية لا يمكن استيعاب سياسات العداء للاسلام، والتطبيقات المعاصرة في فلسطين المحتلة، والبوسنة والهرسك، والشيشان، وبورما، وكشمير..الخ، وكذلك لايمكن فهم مناصرة الغرب لحكومات القمع في الوطن الاسلامي، ومحاصرة الشعوب المسلمة، كما لا يمكن فهم هذه الحملة المسعورة في وسائل الاعلام العالمي ضد الاسلام، واتهامه بتصدير الارهاب والعنف الى أرجاء المعمورة[(١)].

أما رئيس مجلس النواب الأمريكي السابق «نيوت غينغريتش» فها هو لا يتوانى عن الاعلان، وبمنتهى الصراحة، أمام ضباط من المؤسسة العسكرية وأجهزة الاستخبارات، خلال مؤتمر عقد في ٨ شباط «فبراير» ١٩٩٥، بأنه أصبح لزاماً عليه دراسة استراتيجية متماسكة لمحاربة «الاستبداد» الاسلامي..[(٢)].

وهكذا تتجلى، يوماً بعد آخر، طبيعة ما يضمره لنا الغرب من مخططات صليبية انتهى من وضع بعضها، فيما ينتظر البعض الآخر اللمسات الأخيرة.

احصاءات.. تنصيرية

وفيما لو اطلعنا على الاحصائيات التي تتحدث بلغة الأرقام حول حركة التنصير العالمي فسيصاب المسلم الغيور بالدهشة والقلق، إذ بثت النشرة الدولية

---

١ – مجلة الرائد «ألمانيا»، ع ١٧٥، جمادى الآخرة ١٤١٦هـ – تشرين ثاني ١٩٩٥م، ص ٢١.

٢ – للمزيد من الاطلاع على هذه الحرب القادمة يراجع المقال القيم الذي كتبه الأمريكي المسلم «فاروق عبد الحق» «روبرت كرين سابقاً» وهو مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسن ورئيس جمعية المحامين المسلمين في أمريكا.. وذلك في مجلة المجتمع «الكويت»، ع ١٢١٥، ١٩ ربيع الآخر ١٤١٧هـ – ٣/ ٩/ ١٩٩٦م، ص ٤٨ – ٥١.

للبحوث الارسالية للمسيحية نشرة احصائية عن التنصير وأنشطته في العالم لعام ١٩٩١م، أشارت الاحصائية إلى أن المؤسسات التنصيرية ووكالات الخدمات المسيحية بلغ عددها (١٢٠٨٨٠) وكالة ومؤسسة، كما بلغ دخل الكنائس العاملة في مجال التنصير (٩،٣٢٠) بليون دولار، وأنفقت (٣١٣) بليون دولار، لخدمة المشاريع المسيحية وحققت الارساليات الأجنبية دخلاً مقداره (٨،٩) بليون دولار، كذلك يعمل في مجال خدمة التنصير ٨٢ مليون جهاز كمبيوتر لحفظ ونشر المعلومات، كما صدر ٨٨٦١٠ كتاباً، و ٢٤٩٠٠ مجلة أسبوعية، وقد وصل عدد الأناجيل الموزعة مجاناً ٥٣ مليون نسخة، أما محطات الاذاعة والتلفاز المسيحية فتبلغ ٢٣٤٠ محطة. وبحسابات اقتصادية إذا جمعت هذه الأرقام تكون النتيجة لميزانية دعم العمل التنصيري لعام واحد فقط (١٩٩١م) ١٨١مليار دولار!![١]

وما تجدر الاشارة إليه أن هناك مائة اذاعة عالمية تستهدف العالم الاسلامي، ويقرر أحد الباحثين المصريين من خلال دراسته التي استغرق في اعدادها أربع سنوات أن التبشير أصبح عالماً مخططاً، تحددت فيه الأهداف والوسائل والاجراءات، وبرزت فيه الاذاعات المسموعة، لتتصدر الوسائل جميعاً، وأن المتأمل لأنواع هذه الاذاعات وتوزيعها على خارطة الأثير، واللغات واللهجات التي تستخدمها سوف يدرك بوضوح أنها تولي كل اهتمامها لمناطق آسيوية وأفريقية بالذات، وهي المناطق نفسها التي توجد بها الكثافة السكانية المسلمة.. ومن بين هذه الاذاعات (اذاعة حول العالم). وحي اذاعة تملك محطات للبث واستوديوهات لانتاج البرامج في أكثر من خمسين دولة، وتوجه ارسالها بأكثر من خمس وثلاثين لغة من بينها اللغة العربية[٢].

---

١ – مجلة نور الاسلام، ع ٢٥ و ٢٦، رمضان وشوال ١٤١٢هـ – آذار و نيسان ١٩٩٢م، ص ١٠٢.

٢ – م . ن، ع ٣٧ و ٣٨، محرم وصفر ١٤١٤هـ – تموز و آب ١٩٩٢م، ص ١٠٢.

ويطول بنا المقام لتقصي أساليب التشويه والاساءة الى الاسلام، التي تتبعها الأجهزة الصليبية، بكل مرافقها الكنسية والعلمانية - على حد سواء - حتى يمكن القول إن ذلك بمثابة عمل لاطائل تحته... وسنكتفي هنا بانتقاء ثلاثة نماذج نلتقطها من عواصم الغرب الكبرى «واشنطن، لندن، باريس».. ففيها ما فيها من دلالات.. نتركها تتحدث عن نفسها.

نماذج منتقاة.. للافلاس

ففي العاصمة واشنطن وفي خريف عام ١٩٩٢م، وجهت مجلة «البيت والحديقة».. «وهي أكبر المجلات الأمريكية المتخصصة في الديكور» اهانة جديدة للاسلام والمسلمين: حينما نشرت على غلافها موضوعاً مصوراً عن ديكورات تلك السنة. كان أهم ما في الموضوع أن السجاجيد والبسط التي طرحتها، لم تكن من اللوحات الفنية أو ما يعلق على الجدران، وإنما كان بمثابة فرش لأرضيات المنازل والتي من المفترض أن تطأها الأقدام، حملت نقوشها عبارة إسلامية مقدسة تمثلت بشهادة المسلمين بأن: «لا اله إلاّ الله محمد رسول الله»، حيث كتبت وطبعت بالخط العربي الجميل[١].

أما في العاصمة البريطانية لندن، ومن العام نفسه «١٩٩٢»، فقد عرضت متاجر فالنتينا البريطانية في مدن نوتنغهام، وليستر، وبيربورو أحذية نسائية كتبت عليها شهادة «لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله»!!

أحد زعماء المسلمين في نوتنغهام - إحدى ثلاث مدن تباع فيها هذه الأحذية - قال: «إن كتابة الشهادة على الأحذية أشد اهانة للاسلام من تلك التي وجهها الكاتب المرتد سلمان رشدي في روايته «الآيات الشيطانية» فعندما كتب سلمان رشدي روايته كانت سيئة بالفعل، ولكنها على الأقل تحمل في اليد»!

---

١ - م. ن، ع ٣١ و ٣٢، ربيع الأول و ربيع الثاني ١٤١٣هـ - أيلول وتشرين أول ١٩٩٢، ص ١٠٢.

وطالب الزعيم الاسلامي بسحب تلك الأحذية من السوق والتقدم باحتجاج لدى الحكومة[1].

أما في باريس عاصمة «النور!» والأزياء.. والمجتمعات المخملية، فقد بدت العارضة الألمانية «كلاوديا شيفر» في عرض أزياء صيف ١٩٩٤ بأحد الأزياء الذي طرزت عليه نصوص قرآنية باللؤلؤ الرمادي كانت بارزة على صدرها، وتكرر النمط نفسه في أزياء أخرى.

وتقف وراء هذه التصاميم دار الأزياء الفرنسية «شانيل»، التي اعتذرت لاحقاً للمسلمين، لأنها «زيّنت من دون أن تدري - حسب ادعائها - بعض ما عرضته في أزياء نسائية في عرضها الأخير بآيات قرآنية»! وقال مصمم أزياء الدار «كارل لاغرفيلد» أنا استوحى التصميم من كتاب عن ضريح تاج محل الهندي «لقد قيل لي إنها قصيدة حب في ذكرى إحدى المهراجات»[2].

وهذه ليست المرة الأولى التي تنحدر فيها الأوساط الغربية الى هذا النمط الهابط في التعامل مع الآخر[3].. ولن تكون الأخيرة.. ثم أليست هذه الأساليب دليلاً على افلاس الغرب وحضارته التي تحتضر، كما يقول الفيلسوف الفرنسي المسلم رجاء غارودي..؟!

---

١ - م . ن، ع ٢٧ و ٢٨، ذو القعدة و ذو الحجة ١٤١٢هـ - آيار وحزيران ١٩٩٢م، ص ١٠٢.

٢ - م . ن، ع ٤٧ و ٤٨، ذو القعدة و ذو الحجة ١٤١٣هـ - آيار وحزيران ١٩٩٤م، ص ٩٦.

٣ - من ذلك، وعلى سبيل المثال، ما ذكره المفكر الجزائري «مالك بن نبي» في كتابه «مذكرات شاهد القرن - الطالب»، من أن دار ألفا الباريسية قد غلّفت وجه عمارة كانت تبنى أمامها، عام ١٩٣١، بلافتة ضخمة يذكر فيها اسم النبي محمد «ص» بنوع من الاستخفاف. يراجع الكتاب المذكور، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤٥.

العودة إلى الذات

ظاهرة الفنانات التائبات

كان موضوع ‹المرأة› أحد أخطر القضايا المطروحة للنقاش، منذ بدايات القرن العشرين. وقد تركز الحديث على جوانب عديدة أهمها الحجاب، تعدد الزوجات، الميراث، الشهادة، قوامة الرجل، مشاركة المرأة في العمل والانتاج، حق التعليم، حق الاختلاط..إلخ، وكانت هذه المواضيع المنافذ التي مرت من خلالها خطط التشكيك الاستشراقي، كما يقول الدكتور محمد فتح الله الزيادي[1].

عودة النقاش

الأن وقد تخطينا مشارف القرن الحادي والعشرين، وبعد أن شقت المرأة المسلمة طريقها بثبات، وهي تستأنف عودتها الى الذات، وتكرّس هويتها الفكرية بعد حقبة قاهرة، انخرطت في تجربتها المرة. في هذه الأثناء، يعود النقاش مجدداً حول قضية المرأة، لتثار أفكار جديدة - قديمة، سواء على صعيد الأوساط المسلمة أو المحافل الغربية، أخذت هذه التيارات تعمل جاهدة لتجسيد رؤاها وأفكارها «التحررية» على أرض الواقع الإسلامي، حيث أخذت بعض الاتجاهات العربية بالبروز في مجال الكتابة حول المرأة العربية والمسلمة بالخصوص، لا تنم عن نظرة موضوعية معنية بالوصول الى الحقيقية، بل عن فلسفة مغالطة تستهدف من وراء إثارة الموضوع سحبه الى دائرة أخرى تجري

---

١ - يراجع كتابه «تأملات في قضايا المرأة المسلمة»، طرابلس، ١٩٩٠م.

داخلها تصفية حسابات قديمة مع جملة من الأفكار، ويمكن اعتبار مقال الدكتور فؤاد زكريا (موقف الأصولية الاسلامية المعاصرة) (منشور ضمن كتاب "نساء العالم العربي" بالانكليزية، ص٢٧) تعبيراً نموذجياً عن ذلك[1].

وقل مثل ذلك عن كتابات (نوال السعداوي) و(أمينة السعيد) وغيرهما. وفي الوقت الذي عاد(ملف الحجاب) بقوة فإن ما أُثير حول (ظاهرة الفنانات التائبات) في مصر يحتل حيزاً بارزاً في هذا الملف، إذ قيل الكثير عن هذه الظاهرة، وتراوحت ردود الفعل بين الترحيب والاندهاش والتشنيع، ولعل ما كتبه (محمد فتحي رشوان) عن (الفنانات التائبات)[2] أبرز تعبير عن الموقف الأخير (التشنيع) وهنا وقفة سريعة مع أهم ما جاء في مقاله من آراء وأحكام.

للوهلة الأولى، قد يتراءى للقارئ أن صاحب المقال سوف يرصد ظاهرة (توبة الفنانات) بمنهجية وموضوعية، حتى ولو كان مخالفاً لها، بيد أنه يصدمنا في أول سطورة بانحياز غير مبرر، وهجومه الانفعالي، الذي لا يستند الى دليل أو بينة، حيث تخندق بركام من الآراء التي طالما سمعناها من المستشرقين، واجترها - ببلاهة - تلامذة التغريب في عالمنا الاسلامي، مع ملاحظة أن هؤلاء التلامذة يشتط بهم الأمر - أحياناً كثيرة - فيصبحون ملكيين أكثر من الملك! وبالتالي نجد هوسهم العلماني يقودهم الى التخبط فما هم إلا كحاطب ليل.

وبدلاً من وقوف الكاتب موقفاً متزناً، إزاء الظاهرة، نجده ينفّس عما يختلج في صدره، من حنق وتبرم، فيذهب في السطور الأولى إلى أن «ظاهرة مثل الفنانات اللواتي اعتزلن الفن وارتدين الحجاب.. تصبح - عندما نمعن النظر - من أكثر الظواهر تعبيراً عن الانهيار الذي يتجلى على استيحاء.دون أن يسفر عن نفسه بشكل واضح»!

---

١ - راجع مقال «المرأة العربية إلى أين؟»، عبد الرحيم حسن، مجلة العالم، ع ٢٦٨، ١٩٨٩/٤/١م.

٢ - المقال، مجلة الناقد (لندن)، ع ٤٩، تموز ١٩٩٢.

بهذا المنطق المقلوب يستمر الكاتب في ابداء وجهة نظره، دون أن يخفي استياءه الشديد من انتشار ظاهرة الحجاب في جامعات القاهرة وشوارعها، بعد أن اختفت منذ مدة طويلة، على حد تعبيره!

منطق متهافت

وفي معرض تحليله للظاهرة، يرى أنها تزامنت مع تألق المد الديني دولياً وعربياً.. وحينما راح (ينظّر) للعامل الدولي قال بالنص: «دولياً، حيث استطاع رجال الدين في ايران الاستيلاء على السلطة لتتحول ايران الى دولة دينية أول ما تفعله اغلاق المسارح ودور السينما، والتحريم على النساء الخروج بدون حجاب، أو الظهور في الأماكن العامة وحيدات، واعتبار التمثيل بالنسبة للنساء عملاً محرماً يمثل خروجاً على الدين»!!

ولا ندري علام نحسد هذا الكاتب.. على استغفاله القارئ والى هذا الحد؟ أم على جهله المطبق بما يجري ويدور، في منطقة قريبة منه شدت العالم بقوة بحدثها المتميز، والذي من أبرز اضاءاته الحضور المكثف للمرأة، في كل مناحي الحياة السياسية، والثقافية، والتربوية، والاجتماعية، والفنية ..؟!

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة   وان كنت تدري فالمصيبة أعظمُ!

ولم يعد خافياً الإنجازات الكبيرة التي حققتها السينما الإيرانية وفوزها بالجوائز العالمية ولعدة مرات وبإسهام كبير من المرأة الإيرانية المسلمة التي حققت سمعة طيبة جداً، ونالت بدورها العديد من الجوائز في مهرجانات اقليمية ودولية.

وماتزال طهران تشهد نشاطاً دؤوباً في مجال المسرح، كما هي السينما، وربما لا يقل أهمية عن نشاط القاهرة في هذا المجال، غير أن من الانصاف

المقارنة بين النشاطين. فهنا فن ملتزم اخلاقيات الاسلام، وبكل ما يتطلبه من التزام في العرض، وهدفية في الطرح.. فلا اغراء، ولا تحلل، ولا فضائح شارع الهرم. وانما هو طرح متواصل لهموم الانسان ومعاناته، مع مراعاة الذوق السليم، ورصانة التناول، ومتانة الاداء.

ولسنا بصدد الاسترسال في هذه النقطة بالذات، وتبقى اتهامات هذا الكاتب ادعاءات يعوزها الدليل، فيما الواقع يدحض كل ما جاء في كلامه المتقدم، اللهم ما عدا «التحريم على النساء الخروج بدون الحجاب».

وهذا هو عين التكريم للمرأة وحفظ آدميتها التي جعلت منها أنظمة التغريب ومؤسساته سلعة رخيصة، تعرض في سوق النخاسة الجديدة! وقبل هذا وذاك، فإن هذه المسألة «الاحتشام» أمر الهي أوجبه الباري سبحانه في كتابه الكريم، وليس بمقدور أحد أن يخالفه، فأنى لدولة ترفع لواء الاسلام أن تحل ما حرم الله.

تحليلات خاوية

وبالتخبط نفسه يذهب كاتب المقال، في تعداد العوامل الداخلية، لشيوع ظاهرة الصحوة الاسلامية «التي يطلق عليها الغوغائية أو الديماغوغية الدينية» فيرجعها الى تردي الأوضاع الاقتصادية، و ارتفاع مستوى الاجرام، والسرقة، وعجز المجتمع عن توفير المنافذ الشرعية للزواج.. الخ.

ثم يعقب قائلاً «وفي ظل هذا الجو من الاحباط، وهذا المناخ المفتقد لأبسط حدود الأمان، كان طبيعياً أن تجد الدعوة للعودة الى الله والتزام ما يحدده الدين آذانا صاغية وأن الغالبية العظمى من المصريين إما أميون أو مفتقرون الى أدنى حدود الثقافة رغم تعلمهم، وبالتالي أصبح الجو مهيأ للتيارات الدينية لاملاء ما تراه مناسباً، فلم يعد في الساحة الخاوية إلاّ الصيحات بقطع يد السارق، ورجم

الزاني والزانية، ولبس الحجاب، والزام المرأة بيتها لصون عفافها.. والحديث عن الآخرة التي تعوضك عن كل مآسي الحياة الدنيا. افتقد العالم واقعيته، وأصبح حديثه حديثاً عن الوهم، عن الجن والعفاريت والثواب والعقاب».

يتضح مما تقدم افتقار الكاتب نفسه وليس الآخرين الى «أدنى حدود الثقافة رغم تعلمه»، وما تجدر الاشارة إليه أن العديد من الفنانات التائبات يحملن شهادات عليا يفتقر إليها كاتب المقال» فالعبارات مشبعة بالتسطيح، ناهيك عمّا تعكسه من خواء لا يستحق المناقشة، وربما يعذر على تشنجاته هذه لأن الصدمة كانت عنيفة لأيتام التغريب، خاصة وأن الصحوة الاسلامية لم تستحوذ على الشارع وحسب، وإنما اقتحمت عليهم أهم معاقلهم الحصينة «الوسط الفني»، والذي اتخذوا منه سلاحاً خطيراً لاشاعة التحلل، والفساد، والتغريب.. وهذا هو الجو الموبوء الذي يستطيعون فيه وحده التنفس!

والمقال، بعد ذلك كله، مشحون بالمغالطات والتشهير بالفنانات التائبات، الى حد التجريح الشخصي، دون أن ينسى استثارة همم القوى الديمقراطية والعلمانية، لكي تقف «بجدارة وحزم في مواجهة هذه الحملات». ولكنه يستدرك معترفاً بأن هذه القوى «قد حُجّمت وتقلص دورها مما جعل الخطاب الديني هو الخطاب الوحيد المسموع في الساحة»!

ويختتم الكاتب مقاله بالعبارة التالية: «والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو: ما الذي تريده الجماعات الاسلامية؟ هل هو الغاء دور المرأة كممثلة ومؤدية؟ أم الغاء دورها تماماً في المجتمع بكل مستوياته؟ وهل سنرى ذلك اليوم الذي يؤدي فيه الرجال أداور النساء كما كان يحدث في بدايات هذا القرن؟ إن المستقبل مظلم.. مظلم جداً».

ونود أن نهمس في آذن هذا اليساري العلماني: إن المستقبل مظلم بالفعل بالنسبة للعلمانية والتغريب.. ومشرق لأن المستقبل للاسلام. هذا ما صدح به

الشهيد سيد قطب، في قمة امتداد الموجة العلمانية، قبل ثلاثين عاماً .. وهو ما يؤكده اليوم الفيلسوف الفرنسي المسلم رجاء غارودي.. ومنطق الأشياء يقول ذلك أيضاً.

مغالطات لتشويه الظاهرة

«لقد تركت دنياهم، وربنا يهديهم. أنا أسلمت وجهي لله بعد أن عصيته في أشياء كثيرة. المجتمع والشخوص لا علاقة لها بي، ربي فقط هو المسؤول عني. أنا الآن اتجهت الى الله، أقوم بعبادتي، ربنا يهدينا جميعاً. اتخذت طريقي. الله حق. لو شعروا بالسعادة التي أنا فيها لاتجهوا جميعاً الى الطريق نفسه الذي أسير أنا فيه الآن».

بهذه العبارات واجهت سهير البابلي - آخر الفنانات العائدات الى الله - أحد الصحافيين عبر التلفون، وذلك في أول تصريح لها بعد توبتها، وارتدائها الحجاب، وبذلك تنضم الى قائمة الفنانات المصريات اللاتي قررن المصالحة مع الذات، وارتداء اللباس الشرعي، واعتزال التمثيل غير الملتزم.

وأضافت مستنكرة الضجة المثارة حولها: «هذه حياتي وأنا حرة في اتجاهي الى الله، لكن لو ظهرت صورتي على ملصق شبه عارية كأخريات هل كانت الدنيا ستقوم، كما قامت لأنني فقط اخترت طريق الله، يا أخي أنا لم أذهب الى الاسكندرية إلاّ هرباً من وسائل الاعلام. بسبب حالة القرف العام التي أشعر بها، من جرّاء ما يكتب عن اعتزالي...».

جاء قرار الممثلة المصرية «سهير البابلي» هذا، في غمرة انهماكها في الاستعداد لأداء دورها الرئيس، خلال مسرحية «عطية الارهابية» مما كان له وقع

الصاعقة على الآخرين، خاصة وأن الغرض من المسرحية كان مصمماً ليكون صرخة مدوية ضد «الارهاب».

وبرغم الضجة المفتعلة التي أثارتها الأوساط المعادية أو المتحسسة، من بروز ظاهرة توبة الفنانات الى دينهن، وارتدائهن الحجاب الاسلامي، فإن سهير البابلي لم تعبأ بكل هذا الضجيج، بعدما هداها الله الى واحة الايمان والفضيلة.

أقاويل مغرضة

وكالعادة في مثل هذه الحالات، حاول البعض تشويه حقيقة الأمر، وصرف الدوافع التي تقف خلف هذه الظاهرة، بعيداً عن نوازع الهداية والتوبة والعودة الى رحاب الإيمان عبر تفسيرات مغلوطة، أريد منها خلط الأوراق على الجمهور للحؤول دون معرفة السبب الحقيقي وراء اعتزالها العمل الفني، وخروجها من شرنقته الى حيث عالم الهداية الفسيح .. عبر تفسيرين روّج لهما الاعلام المصري الرسمي ومعه بعض المنابر العلمانية، وهما:

أولاً: أن الفنانة المعتزلة تعرضت للتهديد بالقتل من قبل الجماعات الاسلامية، بسبب لعبها دور البطولة في مسرحية «عطية الارهابية»!

ثانيا: أنها عقدت صفقة مالية نظير تحجبها، وقد حصلت على مبالغ بالفعل جراء اعتزالها.. وانضمامها الى الفنانات اللاتي سبقنها في هذا المضمار.

هل هو تصرف «أناني»؟!

ومن المناسب أن نذكر رأي مخرج المسرحية المذكورة الفنان جلال الشرقاوي، والذي أناب أبنته للتحدث عما يعتلج في صدره حيال موقف سهير البابلي، كما أنابها في تأدية دور الفنانة المعتزلة في مسرحيته.

تقول عبير الشرقاوي، وهي بصدد الاجابة عن سؤال حول الأسباب الكامنة وراء، اعتزال الفنانة سهير البابلي وفي هذا التوقيت المحرج لعرض المسرحية «من ناحية ارتداء، سهير البابلي للحجاب فإننا جميعاً كنا نعلم أنها كانت تنوي اتخاذ هذا القرار، ولكن المشكله هي في التوقيت الذي اختارته، وأرى أن القرار في هذا التوقيت تصرف أناني (...!) لأن سهير تدرك تماماً قيمة نفسها كفنانة وتدرك أيضاً مدى حب الجماهير لها وإقبالهم على أعمالها، لقد اعتذرت قبل ثلاثة أيام من العرض، حتى تسدّ على والدي كل المنافذ البديلة، وخصوصاً وأنه مشغول باعداد مسرحية أخرى».

وحين سئلت الشرقاوي عن رأيها بكلام الفنانات المعتزلات بأنه حرام فتجيب: «التحجب أو عدمه أمر لايمكن الاعتراض عليه. إنه يقع في دائرة الحرية الشخصية أما مسألة أن الفن حرام فهي خاطئة من دون أدنى شك، لأن الفن سلوك مثل باقي السلوكيات.. والفنان قدوة يحمل بين يديه أدوات التغيير، بما له من تأثير قوي على الناس، فهو يمكن أن يؤثر على الناس أكثر من الداعية، لأن الداعية يوجه كلامه الى فئة محدودة، أما الفنان فإن فنه موجه الى قاعدة عريضة تشمل كل الطبقات والديانات. فالفن إذن يمكن أن يصلح المجتمع وذلك هو الميزان الصحيح»[1].

المفهوم الغربي للفن

وما يهمنا في هذا المقام، أن الأفكار التي وردت في النص السابق وغيرها من الأفكار المماثلة هي، في حقيقة الأمر، ترديد لمقولات غربية حول الفن والأدب بوصفهما فعاليات روحية جمالية. أقدر على تحقيق السمو الوجداني،

---

١ – صحيفة الحياة (لندن): ٣٠/ ٧/ ١٩٩٣.

والرهافة الذوقية الجمالية لدى الانسان. وبالتالي يكون «الفن» و«الأدب» هما الدين الجديد الذي تخضع لطقوسه المجتمعات المعاصرة!

فعلاً استطاع الفن أن يتبوأ في وجدان الانسان الأوربي المعاصر مقام الدين.. حتى تحولت الحركة الفنية الى ما يشبه المؤسسة الكنسية، وأصبح «الفنانون» بمثابة «القديسين» الجدد الذين يقتدي بهم الناس، بل وقد منحهم الناس ما لم يمنحوه للقديسين أنفسهم، حيث أصبح «الفنان» انساناً فوق الانسانية، وفوق القيم، وهو مغفور له ما تقدم من فساد، وفحش وبذاءت وما تأخر. وتحول النقاد الفنيون الى ما يشبه «كهنة المعابد» الذين يملكون مفاتيح الجنة. يهبون ويمنعون، ويعمدون من يشاؤون متى رغبوا، بالاضافة الى وظيفتهم الأخرى، وهي شرح مضامين الأعمال الفنية للناس، أو بمعنى آخر: شرح النصوص المقدسة للديانة الجديدة..

البدايات المشبوهة

واذا ما انتقلنا الى العالم العربي الاسلامي، فإننا سنلاحظ أن نشأة الحركة الفنية الجماهيرية، ولاسيما المسرح والسينما، قد قامت على أكتاف نفر من يهود ونصارى الشام ممن تحولوا الى مصر، أمثال يعقوب صروف. وجورج أبيض، وسليم وأديب نقاش وغيرهم. وقد نمت هذه الحركة في مصر نمواً سريعاً، وقفزت قفزات هائلة، وكان أول نجاحاتها، اجراء عملية تجميل لصورة الفنان والتي كانت مرفوضة تماماً في المجتمع العربي المسلم، وتعتبر رمزاً للفسوق والانحراف.

على أن ثمة أمراً خطيراً طفح على السطح في الوسط الفني المصري، وذلك عام ١٩٤٧م، حين أقدم بعضهم على مطالبة الجهات الرسمية هناك بالسماح لهم بتأسيس محفل ماسوني خاص بهم، والفعل تمت الموافقة وظل المحفل ناشطاً

في مجال اهتمامه في الوسط الفني، وقد نشرت مجلة الهلال القاهرية مقالاً حول الموضوع في أحد أعدادها لعام ١٩٧٧م، فيما نشرت المجلة نفسها في عدد آخر مقالاً عن الماسونية في الوسط الفني معززاً بالأرقام والصور، ومن بين الصور الخاصة بالمحفل الماسوني الفني نرى في إحداها عدداً من الفنانين المنضوين الى المحفل، وهم كل من: حسين رياض، أحمد كامل مرسي، سراج منير، أنور وجدي، وهناك صورة نادرة للفنان حسين رياض يعود تاريخها الى عام ١٩٥٣م يبدو فيها متربعاً على كرسي المنبه الأول، وبجواره عيسى أحمد المرشد الثاني للمحفل الماسوني في مصر. وفي صورة ثالثة لقطة لأحد احتفالات ذلك المحفل بتكريس أحمد علاّم، وزكي طليمات، وكمال الشناوي، والاحتفال بانضمامهم الى عضوية المحفل الفني[١].

ويشاء الله أن لا تكمل خطة «بروتوكولات حكماء صهيون» نجاحها وأهدافها في المجتمع المصري والعربي. حتى تتولد في الضمير الشعبي صحوة اسلامية قوية، تعيد النبض الى قيم المجتمع المختنقة، وأصالتها الاسلامية الدفينة، وتوجه صرختها الكبرى في وجه ذلك الانهيار الاجتماعي المتلاحق على الأصعدة كافة.. وكان من الضروري والحتمي أن يقع هذا الصدام العنيف والقاسي بين الدين والدين المزيف، بين الاسلام والمؤسسة الفنية «الكهنوتية» الزائفة.

ولقد زاد من وقع الصدام وحدته نجاح المد الاسلامي في اختراق المؤسسة الفنية ذاتها والدخول الى قلاع الدين المزيف، وانعكس ذلك في صورة الانسحابات الجريئة واعتزال الفن برمته، من قبل عدد من أشهر رموز الحركة

---

١ – راجع مقال «الماسونية مؤامرة أخرى على الاسلام»، د. أحمد الشرباصي، مجلة الهلال «القاهرة»، عدد جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ – يونيو ١٩٧٧م، ص ٢٨ – ٣٩.

الفنية «التمثيلية» واعلانهم البراءة والتوبة مما اقترفوه من ذنب بعملهم ضمن هذه المؤسسة المنحرفة - باعترافهم أنفسهم - وبرزت أسماء كبيرة فى هذا الشأن لانرى ضرورة لذكرها.

ولقد كان رد فعل أرباب «الدين المزيف» مروعاً، إذ تعمدوا حشد أضخم العروض الفنية التى شارك فيها نفر من هؤلاء الفنانين، وإعادة عرضها على الجمهور في صالات السينما، ونوادي «الفيديو»، ولاسيما تلك التي تحتوي على مناظر ومشاهد تخدش الحياء الاسلامي العام، وألحّوا فى عرضها بصورة مكشوفة، نكاية بهؤلاء الذين أعلنوا تمردهم على الدين المزيف وكفرهم به وبمؤسساته المشبوهة[1].

والبديل المطلوب

وازاء هذه الحملات المضادة، التي تضافرت فيها مؤسسات مشبوهة، وأجهزة رسمية، لم يكن أمام التائبات الى الله سوى أن يلذن بالصمت، ويتمسكن بالصبر الجميل. ما عدا بعض الأصوات المطالبة بإنصاف هذه الظاهرة، واحترام قناعات اللاتي اعتزلن، باعتبار ذلك من أبسط حقوقهن وشؤونهن الشخصية.

ولكن هل كان الصمت هو الموقف المطلوب؟

يثير ذلك قضية حساسة، حول مفهوم الفن، في المنظور الاسلامي. فهناك من يسيء الظن بكل «دنيا الفن» معتبراً أن الفنون المعاصرة تزخر بالمفاسد. كما أن هناك من يرى أن الفنون داء وبيل، وهي من شرور العصر التي كان بعضها - وللأسف - شرور لابد منها.

واذا كنا نريد التصدي للركام الهائل من الفنون المنحرفة المدمرة، التي تشيع

---

١ - صحيفة الهلال الدولي «لندن»، ١٦/ ٧/ ١٩٨٩ بشيء من التصرف.

الاباحية والالحادوالتمزق، فلا يكفي الصراخ والكلمات المحمومة، والخطب الهادرة، وإنما لابد من مواجة الفن المنحرف بفن أصيل، قادر على الثبات والتحدي، بل لابد أن نقدم البديل للناس، فهم لايستطيعون العيش في فراغ، كما ليس بالامكان أن يرفضوا ببساطة وسائل الامتاع والتسلية، التي تقدم لهم السم في الدسم، لمجرد مقالة أو خطبة تؤكد لهم أن فيها ضرراً بالغاً على حضارتهم ومستقبلهم، وفيها منافاة لمبادىء دينهم الحنيف[1].

خطوات في الطريق

لم تكن مسألة البديل غائبة عن ذهن سهير البابلي، فهي وإن لقيت متاعب جمة بعد ارتدائها الحجاب، بيد أنها، وفي غمرة شعورها بالقرف جراء ما كتب وقيل عنها، أعلنت عن مشاريع لخدمة الاسلام، وهذه خطوة مهمة ستتلوها خطوات في هذا الاتجاه، إذ أعلنت أنها بمجرد عودتها من أداء العمرة سوف تشرع في إقامة عدة مشاريع ضخمة ومن بينها:

- معرض لبيع أزياء المحجبات بسعر الكلفة.

- مركز للدعوة سيضم مكتبة اسلامية وقاعة عرض فيديو لعلماء الاسلام، وقاعة ندوات تستضيف كبار الفقهاء وأساتذة الفقه والتفسير والحديث.

- اصدار جريدة اسلامية متخصصة، توكل إدارتها ورئاسة أقسامها الى الفنانات المعتزلات.

وفي نهاية المطاف كللت سهير البابلي قرارها الشجاع ذاك بالزواج على الطريقة الاسلامية، إذ أقيمت حفلة الزفاف في منتصف آب ١٩٩٣م، دون فرق

---

١ - للمزيد يراجع كتاب «حول الدين والدولة»، نجيب الكيلاني، ط ٢، بيروت، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، ص٣٦ - ٦٢.

موسيقية، كما حضر الحفلة عدد من الفنانات التائبات. وهي تشعر بالسعادة التي تغمرها، وتقضي وقتها بقراءة الكتب الاسلامية (إذ اشترت مكتبة ضخمة)، وها هي تقول: «معظم وقتي مع زوجي، وعندما أنفرد بنفسي أقرأ كتبا من بينها فقه النساء في العبادة، ومختلف كتب السيَر...» وعن علاقتها بالفنانات المحجبات تقول: «هنّ أخواتي يتمنين لي دائماً الفلاح والنجاح، وأتمنى لهن الأمر نفسه».

من واشنطن الى القاهرة ..
مهتديات وتائبات

بين حاضنة البيت البيضاوي «واشنطن» وحاضرة الأزهر الشريف «القاهرة» ثمة خيط يمتد ليوصل عواصم الدنيا .. ينسج بدايات رائعة لظاهرة تستحق الاهتمام، سواء كانت بطور التشكل هنا، أو التبلور هناك.. ونعني بها ظاهرة اعتناق الاسلام من قبل الغربيات، والعودة إليه من قبل المسلمات اللاتي انغمسن في حياة اللهو والعبث.. وهي بلا شك ظاهرة مثيرة للغرب وأتباعه.

فبين الحين والآخر نكون أمام مفردة جديدة، تضاف الى هذا السجل الحافل. والظاهرة آخذة بالانتشار، والى الحد الذي أثارت فيه مخاوف العديد من الأوساط المعنية في الغرب والدوائر السائرة في ركابه. وقد حذرت كبريات الصحف الغربية، ومعها مؤسسات استراتيجية وتبشيرية واجتماعية وسياسية.. من مغبة اتساع نطاق انتشار الاسلام، في عقر ديار الغرب. فيما تتصاعد هواجس القوى العلمانية في العالم الاسلامي وهي تشهد اتساع ظاهرة «العودة الى الذات» وخاصة في الوسط الفني.

فعلى صعيد الغرب، كان من المعروف أن المساجد والمراكز الاسلامية المنتشرة في أنحاء أوربا تشهد - ومنذ مطلع الثمانينات - تشهد حادثة مثيرة كل يوم تقريباً. اذ يقف مواطن أوربي بإجلال في مكتب إمام المسجد، بين حشد من

المؤمنين بادية عليه إمارات الخشوع، ليشهر اسلامه، ويختار اسماً اسلامياً، مضيفاً بذلك رقماً آخر الى قائمة المنتمين الى حظيرة الاسلام.

فمن بين الظواهر الكثيرة التي تشهدها دول الغرب باستمرار، تعتبر ظاهرة اعتناق الاسلام الأشد إثارة وعمقاً. إذ كيف تفسر حضارة الآلة والقنبلة النووية سقوط بعض نجومها وأبطالها من قممهم الى حضيض التأخر والعودة الى ركب القرون الوسطى، كما يزعمون.. ذلك ما لم تستطع تلك العقول الآلية والمختبرات الكيمياوية أن تجد له تفسيراً![1].

مشاهير.. أسلموا

مما يدعو الى الاعتزاز بهذه الظاهرة، أنها شملت شرائح متعددة، وتوجهات مختلفة. فمنهم المفكر والفيلسوف، كما هو الحال مع «روجيه غارودي» الفرنسي الشهير، والذي طاف في دنيا الأفكار قسّيساً، في مطلع الشباب، ليغدو من ثم أحد أبرز منظري الماركسية التي طلّقها ثلاثاً أواخر الستينات، ليعلن اسلامه عام ١٩٨٢، بعد رحلة مضنية من البحث عن الحقيقة التي وجدها في نهاية المطاف[2].

ومنهم القس الشهير، كالراحل «عبد المجيد جان ماري دوشمان» ذلك الذي يعد من كبار رجال الكنيسة الفرنسية، وقد غادر فرنسا عام ١٩٨٧، بعد أن أسلم عام ١٩٨٣، وكانت رغبته أن يموت ويدفن في أرض اسلامية، وهذا ما كان، اذ دفن في المغرب عام ١٩٨٩[3]. ومنهم المغني الذائع الصيت كيوسف اسلام المطرب البريطاني الشهير الذي اعتنق الاسلام عام ١٩٧٧، وغير اسمه السابق

---

١ - مجلة العالم «لندن»، العدد ٢٧٢، ٥ آيار ١٩٨٩، ص ٤١.

٢ - يراجع مقال ««رحلة غارودي من المادية الى الاسلام»»، البروفيسور عبد القادر محمود الدسوقي، مجلة الجامعة الاسلامية «لندن»، ع ٢، نيسان - حزيران ١٩٩٤م، ص ٥١.

٣ - للمزيد يراجع المقال المنشور حوله في صحيفة الهلال الدولي «لندن»، ١٦/ ٢/ ١٩٨٩.

«كات ستيفنز»، كما وألغى جميع عقود الغناء، في أعقاب اختياره طريق الاسلام، ووظّف كل امكانياته الفنية والمادية لخدمة الاسلام وأبنائه، خاصة المقيمين في بريطانيا، ومن أبرز مساهماته تأسيسه مدرسة اسلامية في لندن، ومساهمته الفعّالة في كل من: مؤسسة العون الاسلامي، والحزب الاسلامي البريطاني[1].

ومن المستشرقين الذين أعلنوا اسلامهم تبرز لنا عدة أسماء من أهمها: البروفيسور حامد الغار «أمريكا» عبد الكريم جرمانوس «المجر».. وأخيراً جون كوبر «بريطانيا» .. ومن الصحافيين أحمد هوبر «سويسرا» وكذلك الكاتبة الأمريكية بربارا براون، التي اعتنقت الاسلام ١٩٩١م.

ومن الرياضيين كلنا قد سمع بالنجمين اللامعين : محمد علي كلاي، ومايك تايسون بطلي العالم السابقين في الملاكمة. وقد غير الثاني اسمه الى «مالك عبد العزيز»، في الوقت الذي كان فيه اسم الأول «كاسيوس كلاي»، أما النجم الثالث المعروف فهو عبد الكريم عبد الجبار أشهر لاعب كرة سلة في العالم.

وهذه الفرنسية «إيفا» أستاذة الإلهيات في إحدى الجامعات المعروفة، التي لم تتردد في اعلان فخرها واعتزازها باعتناقها الاسلام، حتى ولو صدمها بعض المسلمين من غير الجادين في تطبيقهم لتعاليمه.

وهذه الممثلة المسرحية الألمانية المعروفة في أوربا «كارلا» التي سمعت صوت الأذان، أثناء زيارة لها للقاهرة، فتأثرت تاثراً كبيراً، ولم تكتف باعتناق الاسلام، بل بادرت الى العيش مع الفلاحين في إحدى القرى المصرية.. للتعرف على بساطة الحياة هناك، حيث أحست أنها «تعيش في الجنة»، وكانت تقول دائماً إنهم بسطاء سعداء بينما «كل شي متوفر في الغرب، ولكن الناس لسيوا سعداء»[2].

---

١ – مجلة النور «الكويت»، ع ٥١، ربيع الآخر ١٤٠٨هـ – كانون أول ١٩٨٧م، ص ١٣.

٢ – مجلة العالم، م . س .

ثمانية آلاف ألمانية يعتنقن الاسلام

ألمانيا وكغيرها من بلدان أوربا تشهد اقبالاً ملفتاً على الاسلام. وبهذا الصدد ذكرت مجلة (ديرشبيغل) الألمانية: إن أكثر من ثمانية آلاف امرأة اعتنقن الاسلام خلال عام ١٩٩٣.

وأضافت المجلة بأن الكثير من هؤلاء النسوة الألمانيات المسلمات يؤدين فريضة الصلاة، في أماكن عملهن، وعلى مرأى من الجميع، وأكدت تنامي مشاعرهن الانسانية، بعد أن توقفن عن ارتياد النوادي الليلية، وهجرن الحياة الرخيصة التي عشنها من قبل.. وعزا بعض الباحثين اقبال الغربيين على اعتناق الاسلام الى الفراغ لعقائدي الذي يعيشه الانسان هناك، والقيم التافهة المبتذلة التي تتبناها مجتمعاتهم[(١)].

وفي ايطاليا يبحثون عن المرأة المسلمة

أما في إيطاليا فهناك ظاهرة لاتخلو من طرافة، حيث يعمد بعض الإيطاليين الى اعتناق الاسلام، ، ليتمكنوا بذلك من الزواج بمسلمة.

ولكن لماذا يبحثون عن الزوجة المسلمة؟ ذلك ما أجاب عنه الدكتور مصطفى أبو سعد (إمام مسجد تورينو بإيطاليا)، اذ يقول: إنهم يجدون راحة لايجدونها مع الايطاليات. حتى شاعت عبارة منقولة عن الإيطاليين الذين تزوجوا من مسلمات وهي: «لم نعرف جنة الأرض إلاّ حينما تزوجنا من المسلمات»! والإيطاليون يرددون دائماً أنهم لم يدخلوا بيتاً فيه امرأة مسلمة إلاّ وجدوا فيه هدوءً نفسياً واطمئناناً قلبياً، وهم لايرتاحون للإيطالية غير المسلمة التي قلما تستقر في بيتها.

---

١ - مجلة نور الاسلام (بيروت)، العدد المزدوج ٤٣ و ٤٤، رجب و شعبان ١٤١٤هـ - كانون الثاني و شباط ١٩٩٤م، ص ١٠١.

ويضيف الدكتور (أبو سعد): ومما يجذب الإيطاليين أيضاً الى الاسلام مكانة المرأة فيه، وهو أمر تجاوزنا فيه مرحلة الدفاع، وأصبحنا نعرض مكانتها بثقة واعتزاز، ونبين لهم أن المرأة عندهم مشيَّأة (ينظرون إليها وكأنها شيء من الأشياء)، فهي وسيلة من وسائل الدعاية والاعلان والجنس، بينما هي في الاسلام إنسان له مكانته وتقديره واحترامه وكيانه. وهذا التصور يجد ترحيباً كبيراً وقبولاً هائلاً من المرأة الغربية بصورة عامة.

كذلك الاخلاص في الحياة الزوجية، وتحريم الاسلام لخيانة الزوج أو الزوجة، وأن من يخون لا يستحق الحياة (الرجم حتى الموت).. فهذا مما يسعد المرأة ويريحها كثيراً، لأن أكثر ما تشكوه الزوجات هنا هو خيانة أزواجهن[١].

الاقبال المتزايد

وفي فرنسا، وصل عدد المتحولات الى الاسلام من الفرنسيات ما بين ٧٥ الفاً الى ١٠٠الف امرأة.. وأما في بريطانيا فإن نسبة تزايد اعتناق الدين الاسلامي بين النساء تبلغ أضعاف الرجال، كما أشارت الى ذلك صحيفة (التايمز اللندنية)[٢].

وفي أمريكا، كذلك، تتفوق نسبة النساء اللاتي أسلمن حديثاً، إذ تبلغ أربعة أمثال نسبة الرجال. صحيح أن بعضهن يعتنقن الاسلام بسبب زواجهن من مسلمين، غير أن ذلك لايعني أنه ينطبق على الجميع، فهناك رجال ونساء في أمريكا، ومن أصل أوربي، يعتنقون الاسلام، كل يوم دون أن يكون ذلك بسبب الزواج من مسلمة أو مسلم.. حسب تعبير (الدكتور مايكل دينس بيرداين)، أستاذ التاريخ في جامعة اريزونا الأمريكية، والذي كان بدوره أحد معتنقي الاسلام عام ١٩٩٢، وأصبح يعرف باسم (محمد أسعد).

---

١ - مجلة النور (الكويت)، ع ١٢٥، ذو القعدة ١٤١٥هـ - نيسان ١٩٩٥م، ص ٣٢ وما بعدها.

٢ - نقلا عن مجلة النور (لندن)، العدد ٣١، جمادى الثانية ١٤١٤هـ - كانون الأول ١٩٩٣ م، ص ٧.

ومن المؤكد أن اعتناق الاسلام لم يكن بالأمر اليسير، إذ تقف في وجه هذه الظاهرة عوائق جديدة، وكارتلات.. وقيم. وعن بعض ذلك يحدثنا الدكتور (محمد أسعد) (مايكل سابقاً): «عندما يعتنق الاسلام رجل أو امرأة في أمريكا فإن ذلك يعني قضية معقدة ومصاعب جمّة ضمن عوائلهم، أو في أماكن عملهم، وبالنسبة لأفراد العائلة أو للآخرين فإن اسلام الفرد لايعني فقط الرفض لعقيدتهم الدينية التي تمسكوا بها ومارسوها سابقاً، والتي هي عقيدة المجتمع والعائلة، ولكن أيضاً يعني الرفض لنفس الثقافة والقيم الأمريكية. وعليه فإن ذلك يعتبر تقريباً عملاً غادراً وتهديداً للعائلة والجماعة»[1].

وللمهتديات معاناتهن الخاصة

وحتى وقت قريب، كان تخلّي العديدين عن عقائدهم الفاسدة، ولجوؤهم الى الاسلام .. لم يثر ضجة، ولم يحرك مشاعر العداء لهم على المستوى العام، كونهم في غالبيتهم العظمى أناساً عاديين، في حين نجد أن اسلام المرء الذي يتبوّء مركزاً جماهيرياً - ذكراً كان أم أنثى - يثير غيظ الشيطان وأتباعه فيحاولون جميعاً ثنيه عن الطريق السوي والعودة به الى طريق الضلال»[2].

لم تبق هذه المعادلة كما كانت، حيث تغيرت بفعل دواع كثيرة. إذ ترى المهتدية الفرنسية (مريام) أن : «اعتناق الاسلام لم يكن دون صعوبات، خاصة في بلد أجنبي كفرنسا، إن تبديل العادات التي رسخت خلال سنين طويلة، والانقلاب الذي يطرأ على طريقة العيش من أجل اكتساب عادات أخرى تحتاج الى جهد، ولكن ما واجهته من العائلة والمجتمع كان أكثر قساوة. ولمواجهة انتشار الاسلام فإن الفرنسيين يطلقون جملة من الأحكام المسبقة غير الصحيحة،

---

١ - يراجع نص المقابلة في مجلة العالم (لندن)، العدد ٥٤٠، ذو القعدة ١٤١٦هـ - آذار ١٩٩٦م، ص ٣١.

٢ - يراجع كراس (العائدات الى الله) من منشورات دار الرسالة الاسلامية، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٤.

لأنهم لايعرفون شيئاً عن هذا الدين. فيعتقدون أن الحجاب هو اضطهاد للمراة، وتقييد لحريتها، في حين أن الحجاب، هو الزي الاسلامي، وهو الذي يميز الرجل عن المرأة ويوضح العلاقات الاجتماعية، فلا يجعل من المرأة سلعة بل يحميها من التعديات المحتملة».

وتضيف قائلة: «إن المرأة المسلمة لا يمكن أن تنخرط في المجتمع الفرنسي إلاّ بصعوبة بالغة. فدور المرأة هو الاغراء فحسب. كما أنها تواجه التحدي من أهلها، ولكن أعتقد أنه مع الصبر والوقت والعمل الجاد لشرح الاسلام يمكن التغلب على هذه المعضلة»[1].

أميرة الأمريكية: غربة مضاعفة!

يطول الحديث عن معاناة المهتديات الغربيات، ولكن تبقى قصة الأخت «أميرة» التي منّ الله عليها بالاسلام حديثاً من نوع آخر.. فهي تحكي لنا قصتها التالية: «ولدت فى اركنساس «إحدى المدن الأمريكية » لوالدين نصرانيين ولدا أيضاً في نفس المدينة. وقد نشأت أيضاً هنا في اركنساس.. والدي كان قسيساً معمدانياً.. المدينة التي نشأت فيها كان يسكنها بالكامل مسيحيون بيض.. لذا لم أتعرض أبداً أو أتعرف على ثقافات أو ديانات أخرى. في جامعة اركنساس رأيت مسلمين للمرة الأولى في حياتي، وأعترف بأنني في الوهلة الأولى كنت أحملق في النساء المسلمات اللاتى كن يرتدين ملابس مختلفة، والرجال المسلمين بعمائمهم التي تلف رؤوسهم.

وتعرفت بعد ذلك على امرأة مسلمة لن أنساها ماحييت. أحسست معها بتفجير الأسئلة في داخلي، وأنها الوحيدة التي تروي ظمأي في إجابات مقنعة.

---

١ – مجلة العالم «لندن»، العدد ٤٠، ٢٣ صفر ١٤٠٥هـ – ١٧ تشرين ثاني ١٩٨٤م، ص ٤٤.

لقد كانت فلسطينية، وكنت أجلس لساعات أستمع إليها تروى قصصاً عن وطنها ومعاناتها. وكان أكثر ما يجذبني هو دينها الاسلام. وكانت تتميز بطمأنينة نفسية لم أعهدها في أي انسان آخر، ومازلت أذكر حتى اليوم ماكانت تقوله عن الأنبياء عليهم السلام، وعن الله عزّ وجل. لأنني كنت دائماً أتساءل بيني وبين نفسي (ولكني لم أصرح به قط) عّما يقوله المسيحيون عن التثليث، ولماذا نحن نصلي لعيسى عليه السلام، وليس للرب مباشرة؟ ولماذا يتم التركيز دائما في المسيحية على (عيسى) وليس الرب؟

استطاعت صديقتي الفلسطينية اقناعي بأن الاسلام هو الدين الوحيد الذي سيوصلني الى الجنة. وهو ليس مجرد دين آخر، بل أسلوب حياة متكامل. تخرجت صديقتي بعد ستة أشهر ورجعت الى فلسطين، حيث قتلت بعد أسبوعين خارج منزلها. وقد تأثرت بذلك جداً وكأنني فقدت جزءً من نفسي، رغم إننا كنا نعلم أن فرصتنا للالتقاء بعد عودتها الى فلسطين ضئيلة جداً، إن لم تكن معدومة.

وفي تلك الفترة تعرفت على أصدقاء كثيرين من الشرق الأوسط الذين ساعدوني بدورهم في تجاوز ذلك الوقت العصيب. الذي مرّ عليّ بعد فقدي لصديقتي. وفي تلك الفترة أيضاً أحببت اللغة العربية جداً فهي لغة جميلة وكنت أستمع لأشرطة القرآن الكريم لساعات برغم أننى لا أفهم كلمة منه. ولكنني حالياً بدأت أتعلم اللغة العربية والطريق أمامي مازال طويلاً..

بعد تخرجي من الجامعة.. رجعت الى مجتمعي المغلق؛ حيث لايوجد مسلمون حولي. ولكن الظمأ الذي أحسست به حينما تعرفت على صديقتي الفلسطينية وحبي للغة العربية لم ينتهيا.. وعندما كنت أطرح تساؤلاتي على والديّ وأصدقائي جعلوني أشعر وكأنني أحقرهم، وهذا ما جعلني أحس باضطراب، لأنهم علموني أن لا فرق بين الناس مهما كانت اعتقاداتهم.. أظن أن في الأمر استثناءات بالنسبة لعائلتي واصدقائي.

في ربيع عام ١٩٩٥ قيض لي الله سبحانه وتعالى شخصاً رائعاً. كان نموذجاً لما يجب أن يكون عليه المسلم الحقيقي، فبدأت معه تساؤلاتي مرة أخرى، وذهبت لأول مرة الى المسجد.. وهي تجربة ستظل عالقة بذاكرتي بقوة.

في غضون ثمانية أشهر تعلمت كل ما يمكنني تعلمه من هذا الشخص عن الاسلام. وفي ١٥شباط (فبراير) ١٩٩٦ أعلنت اسلامي بصفة رسمية والحمد لله. منذ ١٥شباط، حيث أعلنت اسلامي، اتخذت حياتي منعطفات كثيرة. فعندما خطبت (لعربي) أو (أجنبي) كانت عائلتي منصدمة لذلك، فكانوا نادراً ما يكلمونني.. وخسرت معظم أصدقائي من الأمريكيين.. كما حاولت عائلتي ادخالي مصحة عقلية للتشكيك في عقليتي.. وحينما لم ينجح ذلك تبرأوا مني كلية.. فكانوا يتصلون بي هاتفياً ليقولوا لي بأنهم يتمنون أن أشوى في جهنم، وكان ذلك مؤلماً.. ولكن برغم وجود تلك الفروقات الكبيرة بيني وبينهم إلاّ أنني مازلت أحبهم والحمد لله، وإيمانى مازال قوياً.. وآخر مرة كلمت عائلتي كانت بعد يومين من الانفجار الذي حصل في السعودية، حيث كان عمي وابن عمي من ضحايا الانفجار. فاتصلت بي عائلتي ليخبروني بذلك، ويؤكدوا لي بأن عمي وابن عمي كانا يحباني .. وأتحمل أنا وجميع أصدقائي (الارهابيين) مسؤولية قتلهما .. بقيت أبكي لذلك عشرة أيام. ولكن مرة أخرى أحمد الله بأن إيماني كان قوياً، وواصلت مسيري».

ولم تقف الصعوبات عند هذا الحد، بل كانت تمثل البداية. وها هي (أميرة) تواصل استعراض ما تلقاه من محاربة متعددة الأصعدة، فتقول: «المنعطف التالي في حياتي، كان عندما رجعت الى منزلي مساء اليوم الرابع بعد الانفجار المذكور، لأجد بأن بعض نوافذ المنزل قد أطلق عليها الرصاص وكتب بالرش على إحدى سياراتي (محبة الارهابيين) (Terrorist Lover) ولم تبد الشرطة أي تعاون معي، حينما أبلغتهم، وفي نفس الليلة سمعت صوت طلق ناري، فقد عادوا وأكملوا بقية نوافذ المنزل، وقتلوا بعض الحيوانات التي كانت في الخارج.

وحينما وصلت الشرطة قالوا بأنهم لايستطيعون مساعدتي إلاّ إذا أعطيتهم مواصفاتهم وأرقام سياراتهم .. الأمر الذي كان مستحيلاً .. وعندما توسلت إليهم أن يفحصوا بقية سياراتي لأستقل واحدة منها لأقضي ليلتي في «فندق» لأكون في مأمن. أجابوني بأن ذلك مستحيل، لأن ذلك قد يكون فخاً من قبلي حيث كانوا خائفين من أن «أصدقائي الارهابيين»، قد زرعوا قنبلة في واحدة منها لتنفجر بين أفراد الشرطة .. فلم أجد غير الله عز وجل ينقذني من محنتي.

وتعرضت في إحدى الليالي لهجوم في موقف سيارات من قبل شخص مجهول، مما أدى الى كسر معصمي وبعض ضلوعي، وقد تم القبض عليه وينتظر المحاكمة.. وفي الأسبوع الماضي عندما ذهبت الى «المكوى» لأخذ ملابسي أبلغت بأنها قد فقدت، وهي تتضمن حجابات وجلابيب وعباءات وكان ضياعها غريباً جداً!

المدينة التي أعيش فيها صغيرة جداً، ولا يوجد فيها مسلمون أو عرب، وأقرب مسجد يبعد (١٢٠) ميلا، ورغم أني لا أجد حولي مسلمين لأتعلم منهم وأزورهم إلاّ أنني أجد الله عزّ وجل دائماً معي.. معلوماتي القليلة عن الاسلام حصلت عليها خلال قراءتي لأي شيء يقع تحت يدي».

وتختتم «أميرة» حكايتها قائلة: «لست أكتب قصتي هذه لأحصل على شفقة أحد أو تعاطفه. ولكني أسال الجميع أن يدعوا لي في صلاتهم، ولأؤكد لهم أن الله سبحانه وتعالى لن يدع أو يضيع أحداً من عباده، وأن الظلم الواقع على المسلمين في جميح أنحاء العالم لابد أن يصل الى نهاية .. وأعلم أنني لست وحيدة في هذا الصراع»[١].

---

١ – اعتمدنا على سرد وقائع قصة اعتناقها الاسلام وما ترتب عليه من تحديات على صحيفة الأيام البحرينية عدد يوم ١٢/ ٧/ ١٩٩٦.

وليس لدينا من تعليق على محنة «أميرة» سوى: أية قوة عظمى هذه التي تخاف فتاة مسلمة لا حول لها ولا قوة؟!

ألم يكن هذا دليلاً آخر على الافلاس الذي تتسم به أمريكا على أكثر من صعيد؟

العائدات الى الله: مصر نموذجا

وبعيداً عن أمريكا التي تتبجح بالحرية .. والديمقراطية .. وحقوق الانسان، وعودة الى أرض الكنانة التي تتميز منذ عقدين بظاهرة العودة الى الدين، وخاصة بين صفوف الوسط الفني، وبالأخص الفنانات، فقبل أعوام فوجئ الجميع، في مصر خاصة، بنبأ قرار ممثلة الاغراء «شمس البارودي» هجر حياة اللهو والعبث، والهجرة الى رحاب الايمان بالله الواحد الأحد .. حيث الطهارة والعفة النفسية التي لاتعادلها متعة التحرر من الآثام ودنس الشهوات وقذارتها.

وبعد أعوام لحقت بها أخت لها في الله هي المطربة والممثلة المعروفة «شادية»، فحجت بيت الله الحرام عام ١٩٨٦م .. وماهي إلاّ أسابيع قليلة حتى بدا موكب العائدات الى الله يكبر ويكبر، وقافلة التائبات تطول وتطول، حتى تغيرت المعادلة التي كانت معروفة في الوسط الفني المصري، وانعكست الآية، بعدما تحولت بيوت الفنانات التائبات الى مجالس تعقد فيها حلقات الفقه والتفسير والاحاديث الدينية[١].

أخيراً.. وليس آخراً انضم الى قافلة العائدات الى الله وجه تلفزيوني مرموق، إذ قدمت الاذاعية الشهيرة «نجوى ابراهيم» استقالتها من العمل بالتلفزيون المصري، وأعلنت اعتزالها الأضواء، وارتداء الحجاب، معللة ذلك بأنها تريد الراحة والاستجمام، ووصفت مصادر قريبة منها القرار بأنه جاء حاسماً وقاطعاً

---

١ — كراس العائدات الى الله، م . س .

لينهي حالة التردد التي عاشت فيها (نجوى ابراهيم) منذ فترت، وقالت المصادر أنها تعتزم السفر الى أمريكا والاستقرار هناك، بينما شككت مصادر أخرى في مدى التزامها بقرار الاعتزال وقرار الحجاب، مؤكدين أنها سوف تظهر على شاشات التلفزيون مرة أخرى، ولكن عبر شبكات عربية خاصة.

وتتواجد (نجوى ابراهيم) بشكل شبه يومي في مبنى التلفزيون المصري، وهي ترتدي (ايشارب) فوق رأسها.. يذكر أن الإذاعية المعتزلة كانت قد قادت حملة، منذ أكثر من عامين، ضد ارتداء الحجاب، بزعم أن جهات معينة تمد الفنانات بالمال لكي يعتزلن ويرتدين الحجاب واشتهرت ببرامج المنوعات وبرامج الأطفال. (والله يهدي من يشاء الى صراط المستقيم)[1] ..

وقطعاً، لن تكون (نجوى ابراهيم) آخر العائدات الى الله.. كما هي أختها في الله (أميرة) الأمريكية لن تكون آخر المهتديات الى النور.. هذه تحكي خواء التغريب والعلمانية في ديارنا، وتلك شاهد عيان على افلاس حضارة الغرب في قلاعها.

---

١ - مجلة المجتمع (الكويت)، العدد ١٢٠٠، ٣ محرم ١٤١٧هـ - ٢١/ ٥/ ١٩٩٦م.

روائية هندية تشهر إسلامها

تقف البشرية اليوم، وهي تدلف الى الألفية الثالثة، على مفترق طرق خطير، في ظل القلق الحضاري المخيف الذي يكتنف الأعم الأغلب من سكان المعمورة.

ما يعزز هذا القلق سعي الادارة الأميركية، وبكل ما لديها من قدرات اقتصادية هائلة، وهيمنة سياسية واسعة، وسطوة عسكرية مرعبة، وقوة أمنية مثيرة، لجعل العالم قرية صغيرة، تكون الكلمة الأولى والأخيرة فيها لواشنطن، وبلا منازع. وهذا هو المغزى النهائي لنظام العولمة الزاحف بكل اتجاه!

وأيضاً ما نسمعه بين الآونة والأخرى أن السلطات الكنسيّة، وبالذات البابوية في الفاتيكان، تعرب عن رغبتها في تحول البشرية الى المسيحية. وليس من شك أن بابا الفاتيكان، ورغم شيخوخته الطاعنة، يسعى بمثابرة دائبة لتحقيق ذلك. من جهتها بدت المؤسسات الكنسية منهمكة في عقد الندوات، ووضع المخططات اللازمة لهذا التحول الموعود. فيما تقوم المؤسسة الصهيونية وأجهزتها وجميع اللوبيات الداعمة لها في أنحاء العالم، بدور غاية في الخطورة، من خلال فرض الارادة اليهودية على الكثير من مراكز القرار الدولي وحتى الاقليمي!

وتتجلى تأثيرات المشروع الصهيوني من خلال مظاهر عدة دونها دفع بعض العواصم العربية إلى حذف كل المواضيع الدراسية التي تتناول موضوعة اليهود،

بما في ذلك الآيات القرآنية الكريمة..ناهيك عن السيف المصلت بوجه أية فكرة حرة بإلصاق تهمة معاداة السامية بها!

وفي العقدين الأخيرين تنامت اتجاهات عنصرية متطرفة، تحاول ارجاع البشرية الى عهود الحركات النازية والفاشية، كما هو حاصل الآن في ألمانيا وفي شرق أوربا وكما هو في شبه القارة الهندية، التي تشهد تطرفاً هندوسياً لم تألفه الساحة من قبل!

ولانرانا بحاجة الى التأكيد على أن هذهِ الدوائر الآنفة الذكر: (الغرب، الفاتيكان، الصهيونية، الهندوسية) تلتقي في محور واحد، رغم كل ما بينها من تقاطعات، ألا وهو العداء للاسلام والحالة الاسلامية!

مع القصور والتقصير الفاضحين اللذين يعاني منهما الوطن الاسلامي، على صعيد مواجهة التحديات الخطيرة التي تواجه الاسلام، وعلى صعيد التخطيط، ولو بالمستويات الدنيا، لحمل رسالة الاسلام الى البشرية المعذبة التائهة، لا نعدم بعض الجهود الخيرة في هذا الاتجاه إلا أنها لاتعدو كونها مبادرات ذاتية، في معظمها، ومازالت بحاجة ماسة الى التأصيل والترشيد والدعم والتبني.

رغم القصور والتقصير في العمل على تقديم الوجه الحضاري للاسلام بالصورة المطلوبة والمعبرة بصدق عن واقع العقيدة الاسلامية، عقيدة السلام والمحبة والتسامح الداعية الى كل ما من شأنه الرقي بالإنسان في مدارج الكمال، نرى أن هذه العقيدة تعبر عن ذاتها بالرغم من تقصير (أبنائها) في ذلك لتثبت أثرها في نفوس كل الباحثين عن الحقيقة ممن اطلعوا على مبادئها وقيمها الانسانية، ولا يقف ذلك عند اعتناق الاسلام من قبل مجموعة من فقراء الهند، أو من قبل قبيلة في مجاهل أفريقيا، بل تجاوزهم الى كبار المفكرين والعلماء والمثقفين، وحتى الفنانين. ليصل الى أبعد من ذلك، فيلج معاقل الديانات

الأخرى المتمثلة بالمؤسسات الدينية المسيحية، إذ أقدم عدد من كبار القسس على اعتناق الاسلام كما مرّ بنا سابقاً.

الى هنا ليس في الأمر من جديد، غير أن حادثاً له مغزاه البعيد، قد حصل في شبه القارة الهندية، هذه المرة، هو ما حدانا الى تناول الموضوع.

فقد أشهرت الروائية الهندية المرموقة (ما داوي كوتي) (٥٦ سنة) اسلامها، بعد ٢٧ عاماً من القراءة والتفكير، وبدون أي تأثير خارجي حسب قولها، وتسمت كوتي بعد اعتناقها باسم (كمالاثريا)، وقد ولدت (كوتي) هندوسية، وهي أرملة وجدة، كما أنها أديبة عالمية كتبت نحو خمسين كتاباً في الرواية والشعر والقصة. وتؤلف باللغتين المليبارية والانجليزية، وقد ترجمت أعمالها الى خمس عشرة لغة، وفازت بعدة جوائز أدبية، وسبق ترشيح اسمها لنيل جائزتي نوبل وبوكر للآداب.

وتضيف (ثريا): لقد توصلت الى اكتشاف جديد.. أن الاسلام هو دين الحب ودين العفو، وهو يحمي المرأة، وتعهدت (ثريا) بأن تسخر قلمها للتعريف بالاسلام، وهي تتمنى أن تسافر في كل مكان للكلام عن الاسلام وعن الله سبحانه وتعالى.

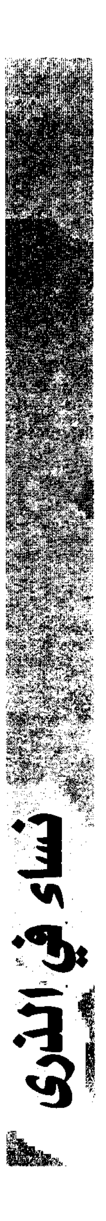
ولكن الحكاية لم تنته بعد: لمّا كانت (ثريا) تنتمي الى أسرة شبه ملكية، فقد أثار اسلامها جدلاً واسعاً بين الأسر الهندوسية من الطبقة فوق الوسطى.. كما تلقت تهديدات بالقتل من بعض العناصر الهندوسية المتطرفة التي صدمت بإعلانها الاسلام.

ومنذ اعتناق هذه الروائية المعروفة الاسلام، والتي تعيش في ولاية كيرالا بالهند... والعديدون يتوقعون بأن الأمر لن يمر بسلام. وذلك لعدة عوامل منها: أن

الروائية معروفة على نطاق واسع، محلياً وعالمياً. ثم أنها سليلة عائلة هندوسية عريقة.. كما وأن اشهارها اسلامها، في ظل حكم يهيمن عليه حزب هندوسي متطرف.. كل ذلك سيخلق لها المزيد من المتاعب، وفي أحسن التوقعات، سينالها ما نال أمثالها من المفكرين والمبدعين فِي العالم الغربي، كالمفكر الفرنسي المسلم «رجاء غارودي» الذي اقتيد الى المحاكمة وتعرض الى التهديد والمحاصرة..

وبالفعل، لم يمض وقت قصير، حتى غلى مرجل التطرف الهندوسي، إذ طالب عدد من القيادات الهندوسية للتضامن في مواجهة ظاهرة تحول كثير من المواطنين الهندوس الى اعتناق «الاسلام» وهي ظاهرة أقلقت الدوائر الهندوسية بشدة. بل إن المطالبة مضت بعيداً، حينما طلب أصحابها التضامن بين الهندوسية والبوذية والسيخ؛ بهدف الحيلولة دون اعتناق الهندوس للاسلام، خاصة الفقراء منهم، ودراسة أسباب هذا التحول، وترك دينهم.

موهان بهاجوات رئيس المنظمة الهندوسية البرلمانية المتشددة يزعم أن عدداً كبيراً من مسلمي اليوم كانوا يدينون بالهندوسية في يوم من الأيام، وأنه من الممكن اعادتهم الى الهندوسية مرة ثانية! قاطعاً على نفسه عهداً بأن تبذل منظمته أقصى ما في وسعها لنشر العقيدة الهندوسية في أوطان الهندوس! إذن فهل نتوقع المزيد من الأذى لمسلمي الهند!


نساء في الذرى

خديجة الكبرى المثل الأعلى

في دنيا النساء نماذج عديدة للطهر والفضيلة والعفاف... ولكن تبقى لخديجة خصوصيتها وفرادتها المتألقة التي لا تنازلها في هذا المضمار امرأة أخرى فهي - كما تقول الأديبة الراحلة بنت الشاطئ - أولى أمهات المؤمنين وأقرب زوجات النبي وأعزهن عليه حية وميتة انفردت بحبه وإعزازه خمساً وعشرين سنة لا تشاركها فيه امرأة أخرى. ووقفت الى جانبه في سني الاضطهاد الأولى تؤازره وترعاه وتهوّن عليه ما يلقى من قريش في سبيل رسالته.

وتضيف بنت الشاطئ: وستدخل في الاسلام من بعد خديجة ملايين النساء ولكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور الأجلّ في حياة البطل الرسول وسيذكرها المؤرخون - المسلمون منهم وغير المسلمين - بذلك الدور.

أما الأديبة سنيّة قراعة فتقول وهي تتحدث عن سيدة قريش وثريتها الملحوظة ذات المكانة العالية والنسب الرفيع «إن التاريخ ليحني رأسه أمام عظمة أم المؤمنين خديجة ويقف أمامها خاشعاً مكتوف اليدين لا يدري أين يضعها في سجل العظماء». ولئن كانت المقولة الشهيرة «وراء كل عظيم امرأة» تبحث عن مصاديق لها في آفاق العظمة فإنها ستقف طويلاً أمام خديجة. فحينما يبلغ الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» مرحلة الشباب، على وجه التحديد سن الخامسة والعشرين من عمره الشريف كان لابد له من الاقتران بامرأة تناسب

انسانيته وتتجاوب مع عظيم أهدافه وترتفع الى مستوى حياته بما ينتظرها من جهاد وبذل وصبر. ولم يكن في دنيا محمد (صلى الله عليه وآله)، من امرأة تصلح لهذه المهمة غير خديجة (رضي الله عنها)...

تلكم هي بعض مزايا خديجة، فيكفيها فخراً ذلك الشرف الرفيع، والشأن العظيم، والقدر الجليل.. أليس من رحمها خرجت الذرية الطاهرة المباركة... والتي بلغت أعلى سنام المجد حينما تعانقت النبوة المحمدية والإمامة العلوية، فكانت ذرية فاطمة... كان أهل مكة - في الجاهلية - يسمونها (الطاهرة) ويطلقون على الرسول - قبل أن يصدع بالرسالة - بالصادق الأمين.. ومن هاتين الأكرومتين أقيم البناء واجتمعت الأركان فشيد بيت النبوة من الأم (الطاهرة) أم المؤمنين الكبرى... والزوج الصادق الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) ذي الخلق العظيم. لقد كانت هذه الأسرة المثالية واحة الفضيلة في صحراء الجاهلية، وبحبوحة السعادة في دنيا الشقاء آنذاك يغمرها الحب ويشد أواصرها الاخلاص.

في أحد بيوتات مكة ولدت خديجة بنت خويلد لأسرة ذات مكانة وشرف عرفت بالعلم والتضحية والفداء وحماية الكعبة. وحينما جاء تبع - ملك اليمن - ليأخذ الحجر الأسود من المسجد الحرام الى اليمن هبّ خويلد (أبو خديجة) لحمايته ومنعه عن ذلك. وكان أسيد بن عبد العزى - جد خديجة - من المبرزين في حلف الفضول الذي تداعت له قبائل من قريش فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً إلاّ قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد ظلامته، وهو الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمر النّعم، ولو أدعى به في الاسلام لأجبت».

بيت المجد والسؤدد

مع أن التاريخ لم يتعرض للجزئيات المتعلقة بحياة السيدة خديجة إلاّ أن ما وصل الينا -يقول الشيخ ابراهيم الأميني - يمكن أن يرسم بعض معالم شخصيتها المتميزة والبارزة. ففي تاريخ دمشق ورد أنها ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة، ويحدد بعض المؤرخين ولادتها بأنها سنة ٦٨ قبل الهجرة. وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم.. أما أم فاطمة فهي هالة بنت عبد مناف، فتلتقي خديجة من ناحية الأم مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في دوحة واحدة وعند عبد مناف تحديداً، كما تلتقي معه من ناحية الأب بجدهما الأعلى قصي بن كلاب.

اذن فتحت خديجة بصرها في بيت مجد وسؤود ورياسة. ونشأت على الأخلاق الحميدة واتصفت بالحزم والعقل والعفة ولهذا دعيت بالطاهرة. فالمعروف بين المؤرخين أن خديجة (رضي الله عنها) تزوجت مرتين قبل اقترانها برسول الله (صلى الله عليه وآله) وذلك في أول شبابها: الأولى تزوجت (عتيق بن عائذ) إلاّ أنه لم يعش طويلاً وسرعان ما رحل عنها وترك لها ثروة طائلة ومالاً كثيراً، لتتزوج بعد فترة بتاجر من بني تميم اسمه (هند بن بناس)، ولم يعش طويلاً هو الآخر، حيث ودع الدنيا في ربيع عمره وخلّف وراءه خديجة مع أموال وثروة هائلة.

غير أن بعض المؤرخين ينكرون وفي مقدمة هؤلاء صاحب (الاستغاثة) تزوجها قبله (صلى الله عليه وآله) وقال إن ما نسب إليها من الأولاد هم أولاد أختها، وحكي مثل ذلك عن المرتضى في الشافي، وأحمد البلاذري في كتابه، وأبي جعفر في التلخيص. وحول هذه النقطة ورد في تكملة نقد الرجال عن كتاب الاغاثة أو الاستغاثة تأليف الشريف أبن القاسم علي بن أحمد الكوفي العلوي المتوفى سنة ٣٥٢هـ أنه أنكر فيه كون خديجة تزوجت قبل رسول الله (ص) وقال: قد صحّت الرواية عندنا بأنه كان لها أخت من أمها تسمى هالة قد

تزوجها رجل من بني تميم يقال له أبو هند فأولدها أبنا اسمه هند بن أبي هند وابنتين زينب ورقية، ومات أبو هند وقد بلغ ابنه مبالغ الرجال والابنتان طفلتان وكانتا موجودتين حين تزوج رسول الله (ص) خديجة بنت خويلد.. وماتت هالة بعد ذلك بمدة يسيرة، وخلف الطفلتين زينب ورقية في حجر رسول الله (ص) وحجر خديجة.

وعلى أية حال: مارست خديجة (رض) التجارة قبل اقترانها برسول الله (ص)، فلم تترك هذه الأموال راكدة ولم ترابِ بها في زمن كان الربا رائجاً. وإنما استثمرت هذه الأموال في التجارة، واستخدمت رجالاً صالحين لهذا الغرض، واستطاعت أن تكسب عن طريق التجارة ثروة ضخمة. حتي قيل: كان لها في كل ناحية تجارة، وفي كل بلد مال، مثل مصر والحبشة وغيرها.

ولابد من القول إن ما لهذه المرأة العظيمة من نبوغ متفوق. وشخصية شامخة قوية وخبرة بشؤون الحياة كافية.. قد أهلها لإدارة تلك التجارة الواسعة.

وعن طريق التجارة تعرفت برسول الله (ص) عن كثب، وذلك، كما يروي الحاكم في المستدرك، إن خديجة رضوان الله عليها قد استأجرت رسول الله (ص) سفرتين الى جرش من اليمن وبصرى الشام. ففي أُسد الغابة كان سبب تزوجها برسول الله (ص) هو أن خديجة كانت تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها، تضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله (ص) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه.. بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مالها الى الشام متاجراً، وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره من التجار، فقبله منها وخرج في مالها ومعه غلامها ميسرة.

عاد الصادق الأمين الى مكة. وقد باع التجارة وربح أضعاف ما كانت تدر على خديجة من أرباح. ووقعت في نفسها محبة النبي الكريم (ص). وشاء الله

ذلك، فيتعلق قلب خديجة بمحمد (ص). فتطلب هي النزول في ساحة عظمته، وتعرض نفسها عليه.. فيقبل محمد (ص) ذلك الطلب، ويقترن بخديجة.

لقد تزوج رسول الله (ص) خديجة وهي في الأربعين من عمرها، وهو لمّا يزل في الخامسة والعشرين.. وكانت حياتهما نموذجاً رائعاً. أحب رسول الله (ص) خديجة (رض) وأحبته، وأخلص لها وأخلصت له.. فلم يكن يرى في الدنيا من النساء من تعادل خديجة .. فهي أول من آمن برسالته، وصدق دعوته، وبذلت ثروتها الطائلة في سبيل الله تعالى، ومن أجل نشر الدعوة الاسلامية. فتحملت مع رسول الله (ص) عذاب قريش ومقاطعتها وحصارها.

وكان هذا الاخلاص الفريد، والايمان الصادق، والحب المخلص من خديجة حريّاً بأن يقابله رسول الله (ص) بما يستحق من الحب والاخلاص والتكريم، وبلغ من حبه لها، وعظيم مكانتها في نفسه الطاهرة أن هذا الحب والوفاء لم يفارق رسول الله (ص) حتى بعد موتها، ولم تستطع أي من زوجاته أن تحتل مكانها في نفسه، فقد روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا ذبح الشاة يقول: (أرسلوا الى أصدقاء خديجة)، فتسأله عائشة في ذلك فيقول: (إني لأحب محبيها).

الأثيرة .. أبداً

ويروى أن امرأة جاءته (ص) وهو في حجرة عائشة، فاستقبلها واحتفى بها، وأسرع في قضاء حاجتها، فتعجبت عائشة من ذلك، فقال لها رسول الله (ص): إنها كانت تأتينا في حياة خديجة. وجرت مرة محاورة بين رسول الله (ص) وزوجته عائشة، حين شعرت بالغيرة تملأ قلبها من كثرة ذكر رسول الله (ص) لخديجة، وتعلق حبه بها، فقالت له: (ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها)، فآلم النبي (ص) هذا القول، ورد عليها قائلاً: ((ما أبدلني الله خيراً منها،

كانت أم العيال، وربة البيت، آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمت من غيرها».

وخديجة بنت خويلد جديرة بهذا القدر والمنزلة عند رسول الله (ص) بعد أن حازت المقام الرفيع والدرجة السامية عند ربها، فهي المرأة التي حباها رب العالمين، وبشرها بالخلد والنعيم.

فقد روي أن جبريل أتى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه أدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب (وهو اللؤلؤ المجوف) لاصخب فيه ولا نصب. ولذا قال فيها رسول الله (ص): «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون».

رفيقة الدرب

سارت الحياة الزوجية موفقة هادئة، يملؤها الحب والاخلاص، فجمعت بين راحة البال، واطمئنان النفس. وكان رسول الله (ص) قبل البعثة يقسم وقته بين بيته وتجارته وعبادة ربه. كان يذهب الى غار حراء للتعبد و التأمل والتفكير على دين إبراهيم عليه السلام.. ورزق من خديجة جميع أولاده، ماعدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

ظلت خديجة، رضي الله عنها. طوال حياتها مع الرسول عليه الصلاة والسلام. وكانت فترة ما قبل الوحي من أشق الأيام في حياة الرسول حيث يستعد للقاء لم يألفه الانسان، وليس للانسان العادي قدرة على تحمل أعباء ما يكلف به، وأمر الرسالة ليس هينا.

ولما شرّف الله محمداً برسالته الخالدة، كانت خديجة أول من آمن به، وكان إيمانها عن عقيدة وفكر وتدبر.. وقد قامت. رضي الله عنها، بدور خطير، وتحملت أقسى ما يصادفه انسان منعم في حياته، كانت تدفع عنه سادة قريش وهم يكيلون له الاساءة بأنواعها، وكانت تشد من أزره، وتقوي عزيمته وتصبره.

ولعل أقوى ما صادف خديجة هو المقاطعة التي تعرض لها بنو هاشم وبنو عبد المطلب، بسبب ما يدعو إليه الرسول الكريم «ص»، لقد خرجت خديجة من بيتها لتنضم الى بني هاشم، وقد جاوزت الستين من عمرها، وحاصر المشركون الجميع، وقد كتب الصحيفة البغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، وقطعوا على أنفسهم عهداً بمحاصرة بني هاشم، وألاّ يقبلوا صلحاً ما لم يسلموا محمداً ليقتل، وصار المحاصرون لايخرجون إلاّ من الموسم الى الموسم، فقاسوا بذلك مشقة وبلاءً مكثوا فيه ثلاث سنين، مع ضيق العيش والجوع والألم، ولم تكن خديجة بأقل من هؤلاء الصبية وقد أصابها المرض ودبّت الشيخوخة الى جسدها. ثم ثار رجال من المشركين على المقاطعة. ومزقت الصحيفة، ورجعت خديجة الى دارها.

وكان الاعياء والتعب قد نالا منها فلزمت فراشها، وكان الزوج الوفي يمرضها بنفسه، لايفارقها ليلاً ونهاراً، ينظر إليها فيتمثل في خاطره صورة الأم والأخت والزوجة. حتى حم القضاء فأسلمت روحها الطاهرة الى خالقها في العام الذي خرجت فيه من حصار شعب «أبي طالب» وقيل إنها ماتت بعد ثلاثة أيام من موت أبي طالب، وكانت وفاة أبي طالب بعد ثمانية أشهر وواحد وعشرين يوماً من الخروج من الشعب، وذلك في السنة العاشرة من المبعث الشريف، وقبل الهجرة بثلاث سنين. قال حليم بن حزام: «ودفناها بالحجون، ونزل رسول الله «ص» في حفرتها، ولم يكن يومئذ صلاة جنازة حيث لم تكن قد فرضت.

وبوفاة خديجة (رض) خلت الدار من الأنيس، وأوحش المكان.. ولقد شعر رسول الله بالحزن والأسى، وأحس بالفراق والوحشة. وأنه فقد الحبيب والعون والمواسي، فقد خديجة؛ زوجته، وحبيبته وعونه، وفقد عمه. الحامي المدافع عنه.. فسمي ذلك العام بعام الحزن. حقاً أنه عام الأحزان.. عام فقَدَ فيه رسول الله (ص) أحب الناس الى قلبه وأكثرهم عطفاً عليه.

وليس رسول الله (ص) وحده هو الذي رزء في ذلك العام، بل وفاطمة الصبية الصغيرة التي لم تشبع من حنان الأمومة، وعطف الوالدة بعد.. فقد شاطرته هذه المأساة، ورزئت هي الأخرى، فشملتها المحنة في ذلك العام الحزين.. عام الألم والمأساة، وشعرت بغمامة الحزن واليتم تخيم على حياتها الطاهرة.

هذه إضاءات سريعة من حياة خديجة الكبرى، ويبقى الحديث عاجزاً عما أعطت هذه المرأة الكريمة للاسلام، والرسالة وموكب الإيمان، وقد أشار الكاتب اللبناني سليمان كتاني، الى ذلك العطاء، إذ يقول: «أعطت خديجة زوجها حباً وهي لا تشعر بأنها تعطي، بل تأخذ منه حباً، فيه كل السعادة، وأعطته ثروة وهي لا تشعر بأنها تعطي بل تأخذ منه هداية، تفوق كنوز الأرض، وهو بدوره أعطاها حباً وتقديراً. رفعاها الى أعلى مرتبة، وهو لا يشعر بأنه أعطاها، بل يقول: ما قام الاسلام إلاّ بسيف علي، وثروة خديجة، وأعطاها عمره وزهرة شبابه، ولم يبدل بها امرأة حتى غابت عن الوجود، وهو لا يشعر بأنه أعطاها وهو يقول: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس».

كان هذا كلام رجل غير مسلم، حول أم المؤمنين، ولا غرو فإن الحق والقيم العليا الرفيعة تشدّ إليها عشاق الانسانية أياً كانت مشاربهم، لاسيما إذا كانت النماذج من نمط خديجة.. الباذلة بلا منّ، والواهبة بلا حدود، والمضحية حتى الشوط الأخير.

لقد كانت خديجة تنثر العطاء، في كل الاتجاهات، وتبذر القيم أنّى حلّت، وتواصل الدرب اللاحب، رغم فداحة الخطب، ووعورة المسلك.. كل بنكران مميز للذات، يبقى درساً عظيماً ماثلاً لكل السائرين والسائرات في خطى الإيمان والرسالة.

وللمرحوم الشيخ عبد الله العلايلي لفتات رائعة ضمنها كتابه الشهير: «مثلهن الأعلى، السيدة خديجة»، ففي الفصل الأخير «قارورة المعبد»، يقول: ««حتى الإيمان.. ليطيب، لينسكب انسكاب الملآن بالعبق والفوح، هو في حاجة الى تخمير، الى تعتيق.. ولعل ذلك، هو ما خالط النسّاك الذين أعتزلوا الحياة، وما الى الحياة من أباطيل الزخرف وزخرف الأباطيل، وأخذ بهوى أفئدتهم أخذاً في الذروات حيث المغاور والكهوف، مغمضة الأعين نصف اغماض، لتتلقف انساناً شاء له القدر أن يسكب فيه سره، وأن يجعل منه قلباً انسانياً أنقى..

ما أدرانا أن يكون ذلك من تعليل القدر لهم، وأسلوب عمله فيهم، ثم ما أدرانا أن لا يكون قلب البشري، هذا القلب نفسه، وهو في شكل واحدة القوارير، إنه قارورة حقاً لمتحلب الإيمان.. وهو يعلل فيه تعليل الراح بالتعتيق. ويعالج معالجة العصير بالتقطير والتخمير.

ويمضي العلايلي بالقول: حتى إذا فض ختامه، انفض عن كوثر، عن ذات الانسان المبدعة انفض عن مثل معنى الخلد: «إنا أعطيناك الكوثر».

وخديجة المقدسة كان لها ذلك الايمان المعتق حقاً، أي كان لها ذلك الكوثر الروحي الذي تدفق به حقيقتها، كينبوع تمد ولاتنقطع، تفيض ولا تغيض. فأعطت للاسلام عطاءً كريماً.. فقد غذّت نبياً، وتعهدت وصياً.. لقد تعهدت علياً أيضاً، أي تعهدت للدعوة قطبها الآخر، يوم ضمه النبي إليه، ومد عليه ظل جناحه. فتركت فيه حظاً كما تركت في النبي حظاً، كانا لها تذكارين خالدين، ما بقي للانسانية عرق تمشي فيه نبضة حس رفيع»».

أهم المراجع

١- أعيان الشيعة، محسن الأمين، دار التعارف، بيروت، م ٦، ص ٣٠٨.

٢- الصديقة فاطمة الزهراء (ع)، منشورات مؤسسة البلاغ، طهران، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٣- فاطمة الزهراء المرأة النموذجية في الاسلام، الشيخ إبراهيم الأميني، ترجمة علي جمال الحسيني ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤- مثلهن الأعلى السيدة خديجة، الشيخ عبد الله العلايلي، ط ٤، بيروت، دار الجديد، ١٩٩٢.

٥- أعلام النساء، علي محمد علي دخيل، مؤسسة أهل البيت (ع)، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦- زوجات النبي محمد (ص) وأسرار الحكمة في تعددهن، إبراهيم محمد حسن الجمل، القاهرة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.

الشهيدة بنت الهدى
رائدة الوعي وقدوة الثائرات

في ظلال مآذن الكاظمية وقبتيها الذهبيتين ولدت الشهيدة بنت الهدى (آمنة الصدر)، وترعرعت في أحضان عائلة كريمة معروفة ، غير أن يد المنون خطفت أباها السيد حيدر الصدر، ولما تزل طفلة لم تتجاوز السنة من العمر.

ورغم أنها نشأت محرومة الحنان الأبوي فإن أمها الرؤوم قد عوضتها حنان الأب وعطفه، وفي كنف هذه الأم البارة التي كانت مكمن حبها ورعايتها، شبت عن الطوق وتجاوزت مرارة اليتم.

تعلّمت القراءة والكتابة في البيت، بمعونة أمها الصابرة، فكانت نعم الأم المربية والمعلمة لابنتها، ومنذ نعومة أظفارها التزم أخواها السيد اسماعيل الصدر والسيد الشهيد محمد باقر الصدر تربيتها ورعايتها، حيث تلقت من العلوم الدينية والشؤون الاجتماعية والثقافية الشيء الكثير، حتى غدت فيما بعد رائدة العمل الاسلامي النسوي في العراق.

وحينما قرر شقيقاها الرحيل الى مدينة العلم والجامعة الدينية الكبرى في النجف الأشرف، لاكمال دراستهما، رحلت العلوية الطاهرة (آمنة) معهما، وكانت في ريعان الصبا، وهناك أخذت تطالع الكتب وتتلقى الدروس الخاصة

باللغة وعلومها والفقه وأصوله والحديث وعلومه، كما درست الأخلاق وعلوم القرآن والتفسير والسيرة النبوية.

إضافة الى تلقيها العلوم الدينية، انكبت الشهيدة بنت الهدى على مطالعة الكتب والمؤلفات الحديثة، فاتسعت معالم اطلاعها ومعرفتها بكثير من الأمور، وهذا ما فتح أمامها آفاقا بعيدة، وفي مقدمتها دراسة المجتمع وتشخيص أمراض المرأة المسلمة في العراق والعالم الاسلامي، وكيف غزت الأفكار الوافدة والثقافة الغربية خاصة أوساط المجتمع المسلم والتي حاولت التأثير على أفكار المرأة خاصة، فحطّت من كرامتها، وشوهت من معالمها، واحتالت عليها ببريقها الزائف، فانبرت بنت الهدى لتعيد الحياة الى نصف المجتمع، وتغرس فيه الأمل والنور، وتعيد للمرأة بصيرتها ورشدها، وكان لها في ذلك جهاد طويل ومرير.

من ذكرياتها أيام الطفولة، كما ترويها لإحدى مريداتها، اذ تقول : حينما كنت صغيرة كانت حالتنا المادية ضعيفة جداً، ولكن كانت لدي يومية مخصصة قدرها «عشرة فلوس»، كنت أجمع هذا المبلغ اليومي البسيط، ثم أذهب الى السوق لشراء كتاب اسلامي، وكانت لي صديقة تفعل كفعلي، في جمع المبلغ اليومي لها، ولكنها تشتري كتابا آخر، كي تقرأ كل واحدة منا كتاب صديقتها، عندما تنتهي من قراءة كتابها.

و بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، شاعت في العراق أجواء لم يألفها المجتمع من قبل، خاصة على صعيد القيم والنسيج الاجتماعي. وكانت المرأة المسلمة في مقدمة ضحايا ذلك التحول الخطير، فأخذت الشهيدة بنت الهدى على عاتقها مسؤولية التصدي الى موجة التغريب والتحلل، عبر مقالاتها في مجلة الأضواء، التي حرصت على مواكبتها حتى أحتجابها عن الصدور أواخر الستينات.

لم تكتف الشهيدة بالاثارة الفكرية، وإنما نزلت الى الواقع الميداني، لتجعل

منه مختبراً لممارسة عملية، أفضت الى نتائج باهرة، حيث تمكنت من ارساء قاعدة لجيل نسوي رسالي يلتزم برسالة السماء، بالضد من تيار تغريبي عارم. وكانت البداية النوعية قبولها تكليف جمعية الصندوق الخيري الاسلامي مهمة الاشراف على مدارس الزهراء (ع) الخاصة للبنات في الكاظمية. وذلك في النصف الثاني من الستينات، إضافة الى إشرافها على مدرسة أخرى للبنات في النجف.

استمرت المربية الكبيرة تواصل سعيها الأسبوعي المعروف بين النجف والكاظمية، مقسمة أيام الأسبوع بين المدينتين دائبة الحركة والعمل. لا تكاد تهدأ أو تستقر طوال ساعات اليوم. يحدوها نحو أهدافها إيمانها الكبير بإسلامها الحنيف كعقيدة ومبدأ ونظام، واعتزازها بأمتها الاسلامية وشعبها المسلم المغلوب.. وعبر تلك المدارس استطاعت الشهيدة زرع بذرة وعي، أتت أكلها وثمارها اليانعة في وقت قياسي.

وتمكنت من مد الجسور الى الفتاة الجامعية، لتتمكن من بث ظاهرة الحجاب في أروقة الجامعات العراقية، بعدما كانت تخلو منها تماماً، إن لم تكن تلك الجامعات وسيلة مهمة لنزع الحجاب، وطالما كانت بنات بعض الأسر - حتى العلمية - تسفر حال دخولها الحرم الجامعي!

كانت أجهزة الرصد الاستعماري تراقب الموقف عن كثب، فوصلت الى قناعة تامة: بأن التيار الاسلامي الواعي الذي كان يقوده الشهيد الصدر ينذر بعواقب وخيمة لمصالح الغرب ونفوذه، فسارعت الدوائر الغربية المعنية (لعبة الأمم) الى إيصال حزب البعث العراقي الى سدة الحكم، وقد صمم هذا الحزب العميل، ومنذ البداية، على تنفيذ كامل التوصيات الأجنبية، ومنها عزل الأجيال عن الاسلام.. ولهذا نجد أنه بادر الى اغلاق كافة المؤسسات الاسلامية التي يشم منها رائحة الوعي، وكانت مدارس الزهراء، كما هي مدارس الجواد للبنين، في

طليعة المشاريع الاسلامية المستهدفة، وبالفعل أغلقت سلطات البعث هذه المدارس، لا لسبب سوى أنها اسلامية!

في قبال هذه الهجمة الشرسة، لم تستسلم الشهيدة بل راحت تكثف جهدها للعمل الاجتماعي، وتتوجه الى مخاطبة الشريحة الأوسع، عبر كتابة القصص الاسلامية الهادفة، ذات الطابع النسوي، وهكذا أنتجت الشهيدة العديد من القصص ومنها: «الفضيلة تنتصر، الباحثة عن الحقيقة، صراع، لقاء في المستشفى، امرأتان ورجل، الخالة الضائعة، ذكريات على تلال مكة» إضافة الى كتبها: «المرأة مع النبي، كلمة ودعوة، بطولة المرأة المسلمة.. الخ»، وللشهيدة محاولات شعرية جادة.

ومنذ أن وعت الشهيدة دورها وتحملت مسؤوليتها الرسالية وقفت جنب شقيقها المرجع الشهيد الصدر رضوان الله عليه، وكانت تتمثل خطى بطلة كربلاء زينب الكبرى في وقفتها الشجاعة الى جنب أخيها الإمام الحسين (ع) بوجه البغي الأموي..

وقد اتضح موقفها البطولي أكثر من مرة، وخاصة حينما يتصاعد الصراع مع البعث الحاكم.. ومن أروع مواقفها وأكثرها جرأة تلك التي كانت خلال فترات اعتقال شقيقها المرجع الشهيد، وخاصة الأخيرة منها، وكان لها دور مشهود في تأجيج انتفاضة رجب ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م) ومما قالته وهي تودع شقيقها الصدر، خلال اعتقاله قبيل انتفاضة رجب: «اذهب يا أخي، الله معك، فهذا هو طريقنا، وهذا هو طريق أجدادك الطاهرين». ثم ألقت خطاباً أمام الملأ لمدة ربع ساعة، كان مشحوناً بالحماس وإثارة الهمم وتحدي الظلم.. ولم يجرؤ أحد من جلاوزة الأمن على منعها.. ولكن السلطات الجائرة أضمرت لها كيداً.

ففي يوم السبت العشرين من جمادى الأولى ١٤٠٠هـ المصادف للخامس من نيسان ١٩٨٠، داهمت أجهزة الأمن العفلقي منزل المرجع الشهيد لتقتاده الى

بغداد لتعود في اليوم التالي لاعتقال رفيقة جهاده شقيقته بنت الهدى.. ليعذبا سوية.. ويعانقا الشهادة سوية.. كما عاشا كذلك(*).. وسلام عليهما في الخالدين.. مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

(*) للاحاطة بالموضوع بشكل أفضل مراجعة كراس «الشهيدة بنت الهدى .. الشموخ المضمخ بعبير الدم» لكاتب السطور، بغداد، ط ٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

بنت الشاطئ .. العطاء المتألق

حفل القرن العشرون بأسماء العديد من النساء اللاتي اشتهرن في مجالي الفكر والأدب وغيرهما، وفي شرقنا الاسلامي لم نعدم أمثال هؤلاء ممن خضن في عالم المعرفة والابداع. وتعد الدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة بـ«بنت الشاطئ» - فريدة عصرها في العلم والنبوغ - علامة متألقة بين المفكرين الإسلاميين والعرب في هذا القرن ، كما تقول الكاتبة صافيناز كاظم.

وبنت الشاطئ غنية عن التعريف، فقد فرضت نفسها على واقع الحياة الفكرية والأدبية منذ الثلاثينات، من هذا القرن، وإذ كانت الخمسينات والستينات أوج مرحلة التألق، ولكنها - نتيجة ما ألم بها من نكبات وفواجع على صعيد حياتها الاجتماعية - ركنت الى بيتها، وانصرفت تكابد همومها، وتجتر أحزانها، من غير أن تنقطع عن البحث .. ورغم هذا فإن قطّاعاً واسعاً من شباب الجيل المعاصر يجهل هذه الكاتبة الكبيرة أو لم يتوفر، في أقل التقادير، على قراءة نتاجها الثرّ بالشكل المطلوب.

ولما كانت تمر في لحظات عصيبة من حياتها، وطغيان الكآبة والتجهم اللذين أخذا يفتكان بواقعها «الى الحد الذي أمست فيه تزهد بالبشر أجمعين، وتلوذ بنفسها، وبوحدتها القاتلة، وهي في آخر سني العمر، فإن من الواجب أن نقف قليلاً أمام «شاهد العصر» هذه.. وهو بعض الوفاء لها، وقليل من دين كبير في أعناقنا تجاه مؤلفة «بطلة كربلاء».

• النشأة : نشأت في أسرة كريمة تنتسب الى البيت الحسيني الشريف، من جهة الأب، بنيما كانت أمها حفيدة الشيخ ابراهيم الدمهوجي شيخ الجامع الأزهر.. وبهذا تكون قد جمعت المجد من طرفيه. ولدت بنت الشاطئ في دمياط في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٣. وكعادة البيوتات العلمية في ذلك الوقت، انخرطت بنت الشاطئ في أحد الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، وبعد أن استقام لسانها عكفت على قراءة أمهات الكتب الاسلامية.

كانت الثانية من بين شقيقاتها الخمس، وشقيقيها الاثنين، وبرغم أنها لاتذكر شيئاً عنهم في سيرتها التي أودعتها - أو بعضاً منها - في كتابها (على الجسر) الذي كتبته بعد رحيل أستاذها ورفيق عمرها الشيخ أمين الخولي. بيد أننا نعثر على بعض ذكرياتها، هنا وهناك، في ثنايا بعض مؤلفاتها، ومن ذلك ما ذكرته في مقدمة سفرها القيم (بطلة كربلاء) حيث قالت، وهي تخاطب أباها: «لم أنس يا أبي، على بعد العهد وتطاول الأيام، مجلسك فينا تحدثنا عن آل البيت الكرام، أولئك الذين أشربتنا منذ الصغر حبهم، وعلمتنا أن نزهو بشرف انتسابنا إليهم».

وعن مدى تعلق أبيها بآل البيت (ع) راحت بنت الشاطئ تروي هذه الحكاية، ذات العلاقة بمولد إحدى شقيقاتها: «..أذكرها يا أبي، ليلة من ليالي شهر رجب، وقد رأيناك تتهيأ للسفر في غد الى القاهرة، وأمنا الغالية (نضر الله وجهها) تترقب ساعة الوضع فالتمسناك - أنا وشقيقتي الكبرى فاطمة - وأنت في خلوتك تتهجّد، ورجوناك أن تلغي سفرك ذاك أو ترجئه، فقدكنا خائفين، قلت لنا: لاتخافا ولاتحزنا، فالله معها، ثم أفسحت لنا مكاناً الى جانبك، ومضيت تحدثنا عن رحلتك التي لم تكن تستطيع أن ترجئها، لأنك تؤدي بها واجباً مفروضاً، هي المشاركة فى الاحتفال بذكرى السيدة زينب (ع)، ومضى وهن من الليل ونحن في حديث منك، نسمع قصتها المؤثرة، فلما أسفر الصبح ودعتنا وأنت تقول لأمي إن وضعتها أنثى، فسميها زينب، ثم تركتها وإيانا لرعاية الله. ومن تلك الليلة

يا أبي، وعيت إسم «السيدة زينب» وبعض ملامحها اللافتة المؤثرة، ثم لم أنسها أبداً..».

في مثل هذه الأجواء المترعة بالإيمان، والعابقة بحب أهل البيت (ع) نشأت بنت الشاطئ، وفي هذا الاتجاه سلكت سبيلها، ولم تحد عنه، رغم ما اعتور بعض محطات حياتها من ضعف بشري، بسبب ضغوط التأثيرات الغربية، وطغيان نزعتها التدميرية التي تمثلت بتهالك قطاعات واسعة من أبناء مجتمعاتنا الشرقية على محاكاة الغرب، في كل شيء.

• الشباب : أكملت بنت الشاطئ تعليمها الأولي والثانوي، لتصبح معلمة في المدرسة الأولية، وليستقر بها المقام في القاهرة قادمة من دمياط. وفي هذه المدينة التي تغير فيها المناخ النفسي، حاولت بنت الشاطئ أن تنغمس في أجواء هذه المدينة، لكن دون جدوى، فلقد ظل الحنين الى مدينتها دمياط يراودها، وانعكس هذا في أول قصيدة لها نشرت في مجلة «النهضة النسائية» تحت عنوان «الحنين الى دمياط».

في تلك الأثناء كانت بنت الشاطئ قد انتقلت من وظيفتها لتصبح كاتبة في كلية البنات في الجيزة ثم في الزمالك، ولم يطل الوقت حتى تلتحق بنت الشاطئ بمجلة «النهضة النسائية» وعن واجباتها تقول: ««نظير أربعة جنيهات فى الشهر كتابة بريد المجلة، وإعداد موادها للطبع، وتصدير كل عدد منها بمقال افتتاحي أتفنن في إنشائه وأوقعه بإسم السيدة الكبيرة صاحبة المجلة! ثم أحمل المواد كل شهر الى مطبعة «حجازي» بالجملية، لأعود مرة فأصححها، وأخرى لأتسلم أعدادها، - نحو ألفي مطبوعة - وأنقلها في عربة خيل الى مقر المجلة فى حي «عابدين»، وأكتب عناوين المشتركين على غلافها ثم أحملها على دفعات الى صندوق بريد المطبوعات على ناصية شارعي خيرت والمبتديان وأتابع حركة البريد وتسديد الاشتراكات، وأحتفظ بما يرد منها حتى تعود السيدة الحاجة من رحلتها السنوية الى الحجاز حيث اعتادت أن تقضي هناك نحو ستة أشهر..!».

ورغم ما كان يلحق بها من حيف في عملها هذا، فقد فُتحت أمامها آفاق جديدة ورحبة، استطاعت خلالها الولوج الى بوابات الصحافة، فأخذت تنشر كتاباتها في مجلة «الهلال» وصحيفتي «البلاغ» و «كوكب الشرق»، وخشية أن يعلم والدها بأمر ما تنشر تخفت وراء الاسم المستعار «بنت الشاطئ» الذي صار علما أكثر شهرة من اسمها الحقيقي.

ودأبت بهذا الاسم المستعار على النشر حتى رسخت قدمها في جريدة «الأهرام» منذ صيف عام ١٩٣٩، وكانت الأهرام تضع مقالاتها عن الريف المصري وقضية الفلاح في صفحاتها الأولى وقد قابلها جبرائيل تقلا صاحب الجريدة وضمها الى أسرة التحرير بتوصية من أنطون الجميل.

عام ١٩٣٦ كان لقاؤها المصيري الأول بأمين الخولي، وكانت قد تشوقت الى التلمذة عليه منذ أن سمعت طلابه يتحدثون عن «منهجه» وكانت قد لازمت الجامعة عاماً بأكمله قبل لقائه، فلم تجد فيه إلاّ ما يخيب أملها ويشعرها أنها تعطي من زادها لقديم أكثر مما تأخذ من علم جديد .. ولكن الأمر اختلف بعد لقائها أمين الخولي .. الذي شدها أستاذاً قديراً، وانتهت حكايتها معه إلى أن تكون رفيقة دربه .. ولتبدأ معه – وفي كنفه – مرحلة جديدة من التألق والعطاء.

من المصادفات الطريفة، أن ميلاد بنت الشاطئ كان بتاريخ ١٩١٣/١١/٦، وقابلت زوجها لأول وهلة في ٦/١١/ ١٩٣٦ وهي تعتبر التاريخين يومي ميلادها إلاّ أننا لو سألناها أيهما ميلادك الحقيقي؟ لأجابت بلا تردد، يوم إذ قابلته للمرة الأولى ١٩٣٦/١١/٦ وبقيت تحبه كل الحب، وتعزو إليه كل جميل في وجودها..ولهذا كان وقع الصدمة عليها عنيفاً بفقده أواخر الستينات. وتقول إحدى تلميذاتها عن ذلك: «قابلتها في نهاية الستينات .. بعد مصابها بفقد أستاذها وزوجها الدكتور أمين الخولي، وكانت حزينة جداً وتشير الى واقعة وفاته بـ«عندما أصابتني النكسة» حتى إنني في البداية اختلط علي الأمر، وتصورت أنها

تقصد نكسة هزيمة ٥ حزيران ١٩٦٧، ولكنني من مجرى الكلام عرفت أنها تقصد نكسة شخصية وفهمت تماماً ما تعني».

ولم تكن هذه الفجيعة الوحيدة في حياتها، فلقد حفلت حياتها بالفواجع، آخرها فقدها وحيدها المهندس أكمل الخولي في حادث مؤلم، مما جعلها تعتزل الناس، ولا تلتقي بأحد إلاّ في أضيق الحدود، ومرت في الأيام الأخيرة من عمرها - وقد ناهزت الثمانين - بأزمة اكتئاب وحزن لهذه الفاجعة التي ألمّت بها.

جولة سريعة في نتاجها الفكري

ليس من السهولة بمكان أن نقف - في هذه العجالة - على طبيعة النتاج الثر للدكتورة بنت الشاطئ، خاصة وأنه يتميز بنكهة خاصة امتزجت فيها صرامة المنهج، وأمانة الأسلوب، ورقة العاطفة، إلاّ أن ذلك لا يعفينا من إلقاء نظرة - ولوسريعة - على أهم مفردات هذا النتاج الرائع، فإضافة الى كتابها «بطلة كربلاء» وكذلك كتابها الذي سردت فيه مسيرتها الذاتية «على الجسر»، تحتفظ المكتبة المعاصرة بالعديد من دراساتها القيمة، ناهيك عن مئات المقالات والبحوث، وأهم كتبها: القرآن وقضايا الانسان «بيروت ١٩٧٢»، مقال في الانسان: دراسة قرآنية «القاهرة ١٩٦٩»، التفسير البياني للقرآن الكريم «القاهرة ١٩٦٢»، اعداد البشر «القاهرة ١٩٦٨»، القرآن والتفسير العصري «القاهرة ١٩٧٠»، لغتنا والحياة «القاهرة ١٩٦٩»، تراثنا بين ماض وحاضر «القاهرة ١٩٦٨»...ولعل آخر ما كتبته هو قراءة في وثائق البهائية «القاهرة ١٩٨٨»... إضافة الى ما تقدم فللمؤلفة سلسلة سيدات بيت النبوة: «أم النبي، نساء النبي، بنات النبي»، فضلاً عن قيامها بتحقيق كتاب «علوم الحديث» لابن الصلاح الشهرزوري.

مارست «بنت الشاطئ» التدريس الجامعي في القاهرة والكو يت والمغرب،

بعنوان أستاذ الدراسات القرآنية، وبقيت حتى فترة متأخرة، حيث هدّها الزمن وأنهكتها الخطوب.

خاضت بعض المعارك الأدبية والفكرية، وأهمها تلك التي كانت مع مصطفى محمود، حينما نشر في مجلة «صباح الخير» مقالات بعنوان «محاولة تفسير عصري للقرآن» جمعها فيما بعد في كتاب مطبوع بعنوان: «القرآن: محاولة لفهم عصري»، وقد احتدم النقاش بين الطرفين، خاصة حينما اتسع نطاقه، بفعل مداخلات عديد، لا مجال لذكرها.

وفي بداية تصديها لنقد أفكار مصطفى محمود التي لا تخلو من شطط، حرصت على أن لا تشغل أمتها بجدل عقيم، حول هذا الخلاف، بين من يريدون لها أن تفهم القرآن كما يبينه لها مفسر صحفي محدث، ومن يشغلهم فهمه كما بيّنه نبي الاسلام وفهمته مدرسة النبوّة. ولكن هذا الحرص لم يحل بينها وبين مواجهة الشبهة الخطيرة التي أثارها الكاتب غير المتخصص. لذا نراها ترد على تلك الشبهة بقولها: «إذا جاز لطبيب أو فلكي أو زراعي، أن يفسر للناس القرآن، بما تيسر له فهمه منه، جاز لمن يستطيع من علماء العربية وفقهاء الدين قراءة كتاب في الطب أو الفلك أو الزراعة، أن يفتي الناس بما تيسر له فهمه منها. وإذا استباح كل عصري أن يفسر القرآن للناس برأيه واجتهاده دون علم أو مؤهل، بدعوى أن القرآن نزل للعالمين ولم ينزل للمتخصصين، ساغ أن تعطل وظيفة المفتي وقضاة الشريعة، فلا يحتكرون فقه الاسلام وهو ديننا جميعا!».

وراحت تقول: «ولا أتردد في الجهر بأنه لا حرمة عندنا لمن لا يحترم العلم، بل تسقط كل حرمة له بمجرد خوضه فيما لا يعلم، وجرأته على أن يقول: «أدري» فيما لايدري! قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات قرآنية يمكن أن تتصل بالطب وأن يكتب خبير زراعي فيما يفهمه من آيات القرآن في النبات والفاكهة والزرع ولواقح الرياح، وأن يلتفت خبير كيميائي الى آية القدرة

الإلهية في تسوية بنان الانسان لا يشتبه ببنان غيره من ملايين البشر.. وأن يقف عالم جغرافي عند آية القدرة في البحرين يلتقيان هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، وبينهما برزخ لا يبغيان..وأن يقف عالم فلكي عند آية القدرة في السماء رفعها الله بغير عمد ترونها، وما في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات لأولى الألباب. قد افهم هذا ومثله. ولكن الذي لا أفهمه، وما ينبغى لي أن أفهمه هو أن يجرؤ مفسرون محدثون على أن يخوضوا في كل هذا، فيخرج أحدهم على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وصيدلة وطبيعة وكيمياء وجغرافيا وهندسة، وفلك وزراعة وحيوان وحشرات وجيولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا وانتربولوجيا».

واختتمت حديثها بالسخرية من هذه المحاولات وعدم قدرتها على الاتيان بمثلها بالقول: «إلاَّ أن أتخلى عن كبرياء علمي وعزة أصالتي فأعيش عصر العلم بمنطق قريتي حين يفد عليها الباعة الجائلون بألف صنف، يروج لها ضجيج إعلاني بالطبل والزمر، عن كل شيء لكل شيء أو (بتاع كله) في فكاهتنا الشعبية الساخرة - بالادعاء! -». وتتويجاً لجهودها الفكرية تم في عام ١٩٨٨ ترشيح الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) لعضوية مجمع البحوث الاسلامية الذي يضم كبار علماء جامع الأزهر الشريف، وهو الهيئة التي يُختار منها شيخ الجامع الأزهر. وبقيت فيه رغم مرضها العضال حتى وافاها الأجل في ١٢/١/ ١٩٩٨م، تغمدها الله برحمته.

مراجع البحث

١- د. بنت الشاطئ ((بطلة كربلاء: زينب بنت الزهراء))، دار الأندلس، ط٣، بيروت، ١٩٦١.

٢- د. بنت الشاطئ ((القرآن وقضايا الانسان))، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢.

٣- يراجع المقال الذي كتبته صافيناز كاظم عن أستاذتها بنت الشاطئ،صحيفة الحياة (لندن)، ١١/٨/ ١٩٩٢.

الأديبة البوسنية مليكة صالح بك
التجربة المثيرة

يزخر الوطن الاسلامي، اليوم، بالعديد من رواد العمل الاسلامي. وتقف الأديبة مليكة صالح بك في مقدمة الرساليات اللاتي دافعن عن الاسلام، ودفعت فاتورة ولائها لهويتها سجناً وتعذيباً وغربة وتضحيات جسام.

وباديء ذي بدء. لابد من الاعتراف بأن الأديبة البوسنية الدكتورة مليكة بك غنية عن التعريف، بسبب ما تركته على صفحات الواقع المعاصر من سطور مضيئة وهي تواجه الأفكار الماركسية أو الليبرالية .. سواء وراء القضبان أو في خنادق المواجهة الأخرى.

ونتيجة لمواقفها الجريئة أصبحت الأديبة مليكة صالح بك الأكثر شهرة، داخل البوسنة وخارجها، من بين نظرائها من أدباء وأديبات البوسنة. فمنذ ثلاثة عقود وهي تواصل جهادها المرير ضد قوى الظلام والعنصرية.

ورغم شهرتها الذائعة الصيت، لم يزل هناك العديد ممن لا يعرفها أو يجهل عنها الكثير.. ارتأينا أن تكون وقفتنا هذه مع الأديبة الاسلامية المجاهدة، التي خاضت المعارك تلو المعارك دفاعاً عن الاسلام والدعوة إليه، سواء في يوغسلافيا التي كانت ترزح تحت نير الحكم الشيوعي أو في موطنها البوسنة إبان الحرب مع الصرب والكروات أو في ربوع أوربا.

مليكة صالح من مواليد سراييفو، أكملت دراستها التقليدية هناك، والتحقت بكليتي العلوم السياسية والفلسفية، أكملت دراستها العليا في فرنسا، وعادت الى سراييفو سنة ١٩٧٤م، حيث عملت محاضرة في كلية الفلسفة ومستشارة لوزارة الشؤون الثقافية في جمهورية البوسنة «المنضوية قسراً تحت الاتحاد اليوغسلافي منذ منتصف الأربعينات»، حيث الرضوخ الى تجربة الشيوعية التيتوية. في عام ١٩٧٩م، خلعت مليكة ثوب الفكر الشيوعي، وسرت في عروقها دماء اسلامية جديدة، لتعيد لروحها تواصلها مع الجذور وامتداداتها في الزمن، لتخوض النضال ضد رفاق الأمس الذين لم يرحموها، واضطهدوها داخل محاكم التفتيش الشيوعية.

اكتشاف الذات

عن ذلك التحول الفكري الرائع. وكيف اكتشفت الأدبية ملكية ذاتها، وعادت الى وعيها الحضاري وهويتها الاسلامية، نترك المجال للكاتبة تروي قصة التحول بنفسها، إذ تقول:

«نشأت في وضع سياسي ومحيط ثقافي، يزعم أن السائد بما فيه من محامد ومساوئ هو ثقافة أوربا، ويعكس نمط الحياة الأوربية التي لا يمكن الخروج عنها. وكان النظام الاشتراكي يروج لذلك المفهوم الذي لا يخلو من إرهاب فكري. فالذي لا يعيش الحياة «الأوربية» النمطية هو متخلف ورجعي وظلامي وغير ذلك من الأوصاف التي استُهلكت، والتي تعبر عن افلاس حقيقي وشنيع يبعث على الشفقة.

..ولأني كنت طفلة فقد انعكس الواقع الموضوعي وضجيجه على تصوراتي للحياة، وانخرطت فيها بخلفية معقدة بالحداثة، ولكن أسئلة كثيرة كانت تطرق رأسي، عن طبيعة ما كان يجري، وهل الأوربية أو الحداثة بهذا التصور السائد

أمر لا مفر منه وقدر مقدور؟ هل هذا هو النمط الذي يجب أن يحتذى لمجرد أنه تسمى بأسماء براقة، وهل توجد أنماط أخرى من السلوك يمكن أن تنازل وتنتصر على ما يروج له هنا وهناك؟

كانت تلك اختلاجات تتسرب الى نفسي متخفية، وبجرعات متفاوتة، كلما شاهدت أو سمعت أو عشت حادثة وقفت عندها أو فكرت فيها، ولكني كنت أطرد تلك الطرقات الفطرية كلما ألمّت بي، وحاولت هزي هزاً، وكنت أسخر منها في كتاباتي إمعاناً في حربها، ولكني لم أستطع أن أخدع عقلي وأدوس على قلبي، وأتنكر لذاتي كامرأة مسلمة. من حيث التاريخ كان الاسلام وما يزال أقوى مني ومن كل قوة على وجه الأرض، لو يعطى الفرصة ليقول كلمته للعاملين
في هدوء..».

قصة التحول الكبير

أما كيف تحولت الأديبة مليكة صالح بك من الشيوعية الى الاسلام فها هي تسرد علينا قصة تحولها الكبير، وتتحدث عن لحظة اتخاذ القرار الصعب: «في سنة ١٩٧٩م اطلعت على ترجمة لمعاني القرآن الكريم. وكانت تلك نقطة الحسم، وملك كياني شعور اقتحم عقلي عنوة وأفرغ ما فيه من ترهات فلسفية وتصورات معلبة عن الحداثة والتقدم والتطور والحياة كلها، ليس هناك من تطور يفوق السمو الروحي، وليس هناك من لذة تفوق أن ينام الانسان وهو راض عن ذاته، وليس هناك من علم جدير بالاحترام من التواضع في طرح أعقد المسائل العلمية والاصغاء باهتمام لتجارب التراكمات التاريخية في الحياة الاجتماعية، التطور شيء طبيعي تقتضيه مصالح المجتمع وهو يسير بشكل آلي من خلال الكدح اليومي والاحتكاك السلمي بالمدنيات الأخرى، وليس قهراً من فوق،

سواء بالاستعمار، أو السلطة والتي في الغالب ما تؤدي الى نتائج كارثية لأن المجتمعات كالأجسام إما أن تقاوم وتنتصر أو تخضع فتنهزم وتموت.

في السنة نفسها زرت لندن، ووجدت كتبا اسلامية عدة قمت باقتنائها، وكان ذلك فجراً جديداً في حياتي، كما قمت بزيارة أخي في العراق، ووجدت حركة اسلامية تمثل اسلاماً حياً يتوغل في كل مناحي الحياة أثار اعجابي، وإن كنت استأت لموقف السلطات منها، وهكذا كانت ثورتي الداخلية تلامس اسلاماً يعاش وليس اسلاماً يتحدث عنه من فوق المنابر أو على صفحات الكتب فقط.

وفي تلك السنة قامت الثورة الاسلامية في ايران، والتي فاق دويها كل التوقعات. وأثرت تأثيراً بالغاً في أدبيات ومناهج الحركات الاسلامية في العالم.. من قبلتها ومن اختلفت معها. لقد أراد الله أن يعيد الاسلام للساحة الدولية.

انزعاج الاستبداد

وهكذا وجدت الأديبة مليكة نفسها وهي في صفوف الملتحقين بركب الاسلام. إنها إذن مسيرة العودة الى الذات، لم يكن ذلك ليروق للآخرين، وازعج موقفها هذا السلطات الشيوعية التي لم تقف مكتوفة الأيدي، لاسيما أن «مليكة بيكوفيتش» كما كان هو اسمها اليوغسلافي.. ليست امرأة عادية أو شيوعية نكرة.. لقد كانت في تلك الفترة كاتبة واثقة الخطى على درب العالمية، كما كانوا يقولون، وعاملاً أساسياً في الحياة الثقافية. إنها - باختصار - كانت كاتبة شهيرة وينتظرها مستقبل واعد خارج نطاق يوغسلافيا.

لم يستطع شيوعيو يوغسلافيا - كما هو شأن غيرهم - استيعاب ما حدث، ولم يكن لديهم ما يواجهون به الموقف سوى اللجوء الى محاكم التفتيش، فأقاموا على شاكلتها محاكم تفتيش اشتراكية! بيد أن تلك الأساليب

والممارسات البوليسية لم تفت في عضد الأديبة الكبيرة، إن لم تكن حافزاً لها في تصعيد المواجهة، فارتدت الحجاب، وكان لهذه الخطوة وقع الصاعقة على السلطات الشيوعية، التي بادرت بعد ستة أشهر الى إخراجها من العمل، مع إيقاف نشر كتبها، وبعد تسعة شهور، وبينما كانت تذكر الله بعد صلاة الفجر، اقتحم سبعة من منتسبي الشرطة بيتها ليقتادوها الى السجن، فيما تركت ولدها وحيداً، وكان عمره ١٢ سنة. لترزح في السجون اليوغسلافية سنتين ونصف، تعرضت فيها لجميع صنوف العذاب والاضطهاد، وكان سلاحها - كما تقول - هو ذكر الله والإضراب عن الطعام لمدة ٧٢ يوماً وقد وصلت الى حافة الهلاك!

الهروب إلى الحرية

بعد اطلاق سراحها، كان أمام الأديبة أن تخوض تجربة جديدة وهي الخارجة تواً من جحيم الرفاق، فقررت «الهروب الى الحرية»، ولما كان هذا الهدف ليس بالأمر اليسير، خاصة في ظل الأنظمة الشمولية، فكان لابد والحالة هذه من السعي الحثيث للحصول على جواز سفر.

غير أن ذلك بحد ذاته يدخل في نطاق الخطوط الحمراء، لمن يروم أن يستنشق هواء خالياً من أدران الديكتاتورية، وإزاء تعنّت السلطات اليوغسلافية المختصة أقدمت على عدة محاولات للاعتصام، وفي أماكن عدة، كما قامت إحدى الدول الاسلامية بمساع حميدة، وكذلك منظمات حقوق الانسان التي كانت في خصومة مع الدولة اليوغسلافية.. مما انعكس ذلك إيجاباً على قضية الأديبة المسلمة. وقد حصلت بالفعل على جواز سفر وعلى لجوء سياسي في لندن.

في أعقاب ذلك، طافت دولاً عدة منها مصر وكندا، وكانت المسلمة

الوحيدة في العالم التي استطاعت الكشف عما كان يحدث في البوسنة من اضطهاد شيوعي. وكانت تتردد كثيراً على المكتبات العالمية وتجمع المواد العلمية المختلفة، وخلال تلك الرحلة التي شملت ست دول كتبت روايتها «الأرواح الطاهرة» التي استغرقت كتابتها أكثر من سنتين، وتتناول العدوان الأكبر على فلسطين.

نتاجها الفكري والأدبي

للأديبة مليكة ١٤ كتاباً في حقول الفلسفة والرواية والقصة الشعرية والثقافة والسياسة. وقد حصلت إبان «شيوعيتها» على جوائز عدة كبيرة، وكانوا قد أعادوا نشر بعض أعمالها دون ذكر اسم المؤلف.

على صعيد نتاجها الروائي، تعتز الأديبة مليكة برواية «سليمان وبلقيس» التي استوحتها من القصص القرآني، باعتبارها أفضل رواياتها وأعربت عن أملها بأن تراها قبل حين أجلها.

في السنين الأخيرة عكفت الأديبة على كتابة روايات لغير المسلمين، ضمن خطاب واع يعرف كيف ينفذ الى ذهنية الغربي المعبأ بأحكام نمطيّة مضادة وجاهزة ضد الاسلام. وفي هذا الاتجاه كتبت مؤخراً رواية بعنوان «حديقة لكل الناس»، حاولت فيها نزع عقدة التفوق لدى الأوربيين، وعقدة العنصر، وخرافة الشعب المختار، والحضارة الغالبة.. وهذه المفاهيم النمط السائد في التفكير الغربي إلا أن الرواية أخذت تؤثر في قطاع واسع من الشباب هناك.

أفكار بصوت عال

وعلى الرغم من النتائج الطيبة التي أفرزتها محاولة الأديبة مليكة فى هذا المجال، فانها لم تكتف بذلك الانجاز، وهي تدرك ضرورة الرقي بمستوى

الخطاب الدعوي بما يتناسب والمستوى الثقافي والفكري المعقد في الغرب نتيجة لتزاحم الأفكار والرؤى هناك، لذا نراها لا تتوانى عن طرح مخاوفها، متى ما أتيحت لها الفرصة، مؤكدة على ضرورة تطوير آليات التفكير الاسلامي وتحديث أسلوب الخطاب، فتقول: «اتقوا الله في الإسلام أيها المتصدرون للدعوة في الغرب. الغرب أرض خصبة للمخلصين لهذا الدين واسعي الأفق، الآن في الغرب من المسلمين الجدد من تمذهب بمذهب من أدخله الاسلام، وأصبح يحب ويكره ويوالي ويتبرأ، حسب منهج الجماعة التي ينتمي إليها. وأخشى أن يتحول المسلمون في الغرب شيعاً يضرب بعضهم رقاب بعض».

وبدلاً من الاستمرار في لعن الظلام، بادرت الى إيقاد شمعتها لتضيء الطريق ولو ببصيص من نور: «لابد من إيجاد أرضية تصالحية بين العاملين للاسلام، لابد من إيجاد تقارب، لابد من نقاش علمي لحسم الخلافات أو على الأقل وضعها في مجال ما يمكن أن يسعه الاجتهاد. الخلق الاسلامي عند الاختلاف يغيب أحياناً وهذه كبيرة من الكبائر. في تاريخنا تسامح كبير وفي حاضرنا ضيق، وانتماء لفهم اسلامي لا للاسلام، وهذا ما يجب التنبه له، ولله الحمد هناك اتجاهات في كل الغرب من المسلمين الجدد تنحو للتفكير الحر والخروج من الأطر الجاهزة، وهي الأخرى لا تخلو من الأخطار».

للأديبة أفكار تستحق التوقف والتأمل حول العديد من القضايا الفكرية، السياسية والحركية. وخاصة فيما يتعلق بالمرأة المسلمة التي تعاني الاضطهاد والظلم والاستغلال.. كما تواجه العديد من التحديات والأزمات.

حديث المعاناة

وحين تتحدث كاتبة مثل مليكة صالح بك عن معاناة المرأة، فهي لن تتناول الموضوع نظرياً بقدر ما تنطلق من تجربة حية بكل مرارتها وقسوتها. رأت

الأديبة بلاد الغرب وتجولت في ربوعها، وشاهدت عن كثب مدى زيف المقولات الغربية عن حرية الرأي والتعبير. وديمقراطية المعتقد، وعلمانية التوجه.. وهاهي الأديبة المرهفة الاحساس ترى بأم عينيها كيف تتقاطع «عاصمة الثقافة ومدينة «النور» باريس - كما يدعون - مع كل شعاراتها لتتحول غولاً يهاجم الفتيات المسلمات اللاتي يرتدين الحجاب! وكيف تحول هذا النور الى جحيم اكتوت به عوائل مسلمة كثيرة!

واذا ما أشاحت بوجهها صوب الشرق.. فإنها ستصدم بالتجربتين العلمانيتين في الوطن الاسلامي «تركيا وتونس» حيث الهجمة الشرسة مشرعة ضد الحجاب والمحجبات، فيما تتسابق الأجهزة الأمنية في هذين البلدين الى تنفيذ مخطط «تجفيف ينابيع» ظاهرة الحجاب!

وتبقى تجربة الأديبة الكبيرة في بلدها لا تقل بشاعة عن بقية التجارب فقد سجنت وعذبت ونزع من على رأسها الحجاب، وعندما دخلت السجن وضعت جزءً من بطانية على رأسها، وعندما هددوها بنزعه قالت لمديرة السجن: بإمكانك نزع حجابي الذي فوق رأسي ولكن لا طاقة لك بحجابي الذي في قلبي وعقلي!

المجاهدة في كل الخنادق

على أن الأديبة الملتزمة لم تكتف بكل ذلك، فها هي تخوض غمار الجهاد على أكثر من صعيد: قولاً وعملاً، سلوكاً وممارسةً وتعيش الهم الاسلامي بكل آفاقه. ويتضح ذلك جلياً من خلال إجابتها على سؤال حول ما الذي يجب أن تفعله المرأة المسلمة في مواجهة التحديات المذكورة والمساهمة في الدفاع عن المرأة كما أرادها الله.. فكان جوابها: «أريد أن أبعث بسلامي لكل المحجبات وراء القضبان في العالم الاسلامي، وللأخوات المحرومات من التعليم والعمل في بعض البلدان، كتونس وتركيا بسبب أحجبتهن، فأنا مثلهن، مازلت ممنوعة من

العمل بسبب حجابي، فبلدي الذي قدم أكثر من مائتي الف شهيد، واغتصبت فيه المسلمات، الكلمة الأخيرة فيه ليس لقياداته، وإنما للأغراب أدعياء الديمقراطية، الديمقراطية العنصرية. فهي لهم فقط، فلا دور حددوه لنا سوى أن نمتدح ديمقراطيتهم ولا نحلم أن نصبح مثلهم، نحن في جهاد ولابد من استمرار الجهاد».

وتمضي هذه الأديبة المجاهدة في تحديد بعض الملامح الأساسية الملحة للمشروع النهضوي النسوي، فتقول: «الأجيال القادمة في حاجة لنماذج معاصرة، لعالمات معاصرات، لمجاهدات معاصرات، لكاتبات وصحفيات، لطبيبات مميزات لكل عنصر خصائصه. وأنا أحب المبادرات الاسلامية في عالم الفكر والحياة المعاصرة بما لا يخرج من معلوم من الدين بالضرورة.. اصنعوا النماذج ليكونَ لكم المستقبل.. بالمداد والدماء، الصبر والتضحية.. الجلد والاصرار والمرابطة في كل الأماكن.. العلاقة يجب أن تكون على أسس اسلامية وليس على أسس فئوية... تصنيف الأعداء وتصنيف الأصدقاء يجب أن يكون بالأرقام. راهنوا على الدراسات العليا فنحن في عالم الألقاب».

هذه جولة سريعة في حياة وأفكار الأديبة المسلمة الكبيرة مليكة صالح بك التي عشقت الاسلام بلا حدود.. وضحت من أجله بكل سخاء..

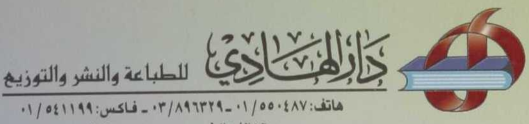
فتحية إكبار لها وللسائرات في دربها..

الفهرس



المرأة المسلمة

هموم وتحديات



هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٠١/٥٤١١٩٩
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com
URL: http://www.daralhadi.com

